

# دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطورها

غالب الناصر

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

مكتبة  
يوسف الرميض  
لنشر وتزويع الكتب  
بكافية مجالاتها

الكتاب: ..... دور علماء الشيعة العراقيين  
في تأسيس العلوم الإسلامية وتطورها  
المؤلف: ..... غالب الناصر  
الطبعة : ..... الأولى  
سنة الطبع: ..... ٢٠١٩ - هـ١٤٤٠  
المطبعة: ..... مطبعة العالمية الحديثة - النجف الأشرف

التصميم والإخراج الفني  
مكتب محمد الخزرجي ٠٧٨٠٠١٨٠٤٥٠  
العراق - النجف الأشرف

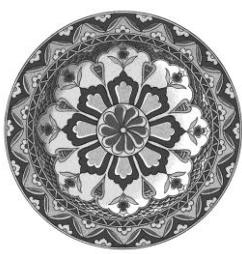
رقم الإيداع في دار الكتب الوثائق ببغداد ( ٢٠٥٦ ) لسنة ٢٠١٨ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على  
خير الخلق وأفضل السفراء محمد وعلى أهل

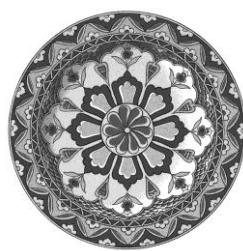
بيته الطيبين الطاهرين



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

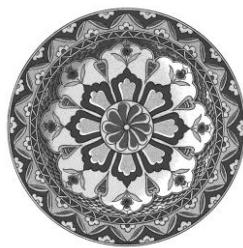
(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

سورة فاطر / ٢٨



## **المحتويات**

- دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطوريها
- الإنسان قيمة عليا في فكر الإمام علي (عليه السلام) :
- الحوزات العلمية: (النسق الاجتماعي ، والأنموذج الفكري ، الوظائف الاصلاحية).
- الأنماذج المقاصدي واستنباط الأحكام .
- الوعي النهضوي السياسي عند الشيخ محمد حسين كاشف .
- الأنماذج في بناء الشخصية (الفكر السيكولوجي عند محمد تقى الحكيم)



## المقدمة

هذه مجموعة من البحوث التي كتبتها في مناسبات فكرية وثقافية مختلفة إلا أنها تلتقي في مضمون واحد وهو إظهار مساقات علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العوم وتطورها ، ودورهم في المشاركة التاريخية في رفد الثقافة الإنسانية والحضارة العالمية والفكر العلمي بما هو جديد من التأسيسات العلمية والمساقات التطويرية على مر الزمان .

ومن المعروف في منطق المؤرخين لتطور العلوم وتاريخ الأفكار، إن الأمم الحية ، وليس الأمم الميتة ، هي تلك الأمم القادرة على الاستمرار في وعي دورها الثقافي والفكري وموقعها في هذا العالم من حيث المساهمة في التأسيس والتطوير ، وهي القادرة على تصوير هذا الدور واعطاء الآخرين الفكرة الصحيحة عن حجم مساقاتها في صناعة القيمة المضافة في هذا المجال الحيوي والخطير من نشاط الشعوب والدول ، وفي ضوء هذا الوعي تستلهم المزيد من القدرة على الابداع والمواصلة، ومن ثم الاستمرار في العطاء وإنتاج هذه القيمة المضافة من دون كسل أو ملل، حيث أن لأمم الميتة هي تلك التي فقدت هذا الوعي ونسخت هذا الدور الحضاري في التعريف بنفسها أو في تقديم الصورة الدقيقة عن دورها في هذا العالم، ومن ثم غير قادرة على الاستلهام من ما يحييها ما يضيء حاضرها ومستقبلها .

لقد أرتبط تاريخ الشيعة الاثنا عشرية بالتاريخ الفكري والعلمي والأخلاقي والسلوكي للرسول الأعظم صلى الله عليه واله ، منذ نزول الوحي وكذلك بأئمة أهل البيت عليهم السلام ، حيث يشكل القرآن الكريم والسنة النبوية الروايد المعرفية الأولى لهذا الوعي وهذا الدور الكبير في رعاية العلم وفي تأسيس العلوم وتطويرها .

ومن هذه البحوث الجزئية والقصيرة في بيان دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطويرها ، قدماً وحيثاً ، يمكن الخلوص إلى فهم أوسع وكلی عن الحوافز الموجودة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، وعن القدرات الموضوعية والمنهجية لدى علماء الشيعة ولاسيما في العراق على الانجاز ، وكذلك استنطاق الجوانب الملهمة في هذه المسيرة والقادرة على الدفع باتجاه تحقيق القيمة المضافة في مجالات البحوث العلمية والفكرية ومن ثم القدرة على رفد المعرفة الإنسانية على الدوام .

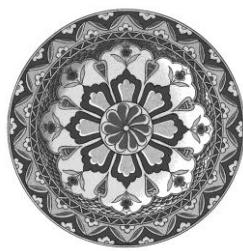
من هنا عملت على نشر هذه المجموعة من البحوث في كتاب مستقل وذلك لوجود هذا الناظم الفكري فيما بينها فهي تمتد في عمقها الزمني إلى المساهمات الأولى عند علماء الشيعة كما في ظهور كتاب غريب القرآن لزيد الشهيد (ت ١٢٢ هجري ) رضوان الله عليه ، وحتى العصر الحديث وظهور ضرورات التطوير والنهضة في العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، مواكبة التطور الإنساني ووجهة التحديات التي فرضها هذا التطور في المجالات الفلسفية والعلمية والأخلاقية .

## **الدراسة الأولى**

### **دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطورها**

**المبحث الأول : البيئة العراقية دور علماء الشيعة في تأسيس العلوم  
الإسلامية وتطورها .**

**المبحث الثاني : نماذج من دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس  
العلوم الإسلامية وتطورها**



## المقدمة :

جاء إعداد هذا البحث للمشاركة في المؤتمر الدولي ، المنعقد في الجمهورية الإسلامية في إيران ، في ربيع عام ٢٠١٧ ، بشأن دور أو أثر العلماء والمفكرين الشيعة في تأسيس العلوم الإسلامية وتطويرها والنهوض بها ، وهو بعنوان : (دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطويرها) ، وذلك من خلال التطرق إلى مقدمة عامة عن تطور البحث العلمي والحياة الفكرية في العراق ، بصفته مركز من مراكز الفكر الشيعي في العالم الإسلامي ، ومن ثم التطرق إلى بعض النماذج الرائدة في تأسيس العلوم والأفكار والناهج البحثية في الحضارة الإسلامية في مراحلها الأولى على يد العلماء الشيعة من العراقيين ، كما هو الحال مع تجارب رائدة في مجال تأسيس علم اللغة ، وعلم غريب القرآن ، وعلم العروض ، وعلم الكلام ، وعلم المنطق ، وعلم النص ، وغير ذلك من العلوم .

الغاية من البحث ، هي إعادة النظر ببعض المقولات التي ارتبطت عادة بالتعريف بهذه التأسيسات ، وما يمكن أن يصطلاح عليها ، ومن ثم نقد المنظور السائد الذي تؤسس له هذه المقولات ، فنرى مثلاً : إن ما يسمى بتأسيس علم النحو من قبل أبي الأسود الدؤلي ، هو في الحقيقة أو عند إعادة القراءة ، تأسيس لعلم اللغة أو علم العربية كما يقول الزجاج<sup>١</sup> ، وأن تأسيس علم

---

١ - الزجاج ، أو أبو إسحاق الزجاج أو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج البغدادي (٢٤١ هـ - ٣١١ هـ - ٨٥٥ / ٩٢٣ م) نحوه من العصر العباسي،

التفسير المنسوب إلى زيد الشهيد ، إن هو إلا تأسيس لعلم غريب القرآن ، وهو البداية الحقيقة ، لتأسيس علم : علوم القرآن<sup>١</sup> ، النظرية والعملية لتأسيس هذا العلم في القرن الأول الهجري في بلاد العراق .

وكذلك في مجال علم البلاغة المنسوب إلى الشريف الرضي (ت ٤٠٥ هجري) ، كصاحب أول كتاب في التعريف بالمجاز القرآني ، إن هو إلا تأسيس مبكر لما يُعرف اليوم بـ(علم النص) ، وإن ما قدمه أبو إدريس الحلبي : (ت ٥٤٣ هجري) ، صاحب كتاب السرائر ، في كتاباته الفقهية من النقد الفقهي والاجتماعي للتقليد ، هو ليس من الفقه التقليدي أو الاجتهاد المتعارف ، بل هو تأسيس لما يعرف اليوم بـعلم اجتماع المعرفة الفقهية<sup>٢</sup> ، وهي المعرفة التي تربط الفقه بالواقع الاجتماعي والنقد للتقليد ، وهو يكشف ، أن المواضن

"من أهل العلم بالأدب والدين المتن" كما وصفه ابن خلkan. صنف العديد من الكتب، أشهرها كتاب معاني القرآن في التفسير، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف وكتاب تفسير أسماء الله الحسنى.

١ - تُعرف علوم القرآن على أنها العلوم التي تخدم القرآن الكريم، وتحاول كشف خباياه وأسراره من خلال البحث فيه من حيث كتابته، ونزوله، وقراءته، وترتيله، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتناهيه، ورسمه، وقصصه، وأساليبه، وبلاوغته وإعجازه، ولعل السبب وراء نشأته هو تعدد جوانب و مجالات القرآن الكريم وتفرعها.

٢ - علم اجتماع المعرفة (Sociology of knowledge) ، هو دراسة العلاقة بين الفكر الإنساني والسياق الاجتماعي الذي نشأ داخله، والآثار السائدة لأفكاره على المجتمعات، وهو ليس مجال خاص في علم الاجتماع ولكنه يتناول المسائل الأساسية حول مدى وحدود التأثيرات الاجتماعية على حياة الفرد والأسسيات الاجتماعية والثقافية لمعارفنا حول العالم.

الاجتماعية لها القدرة على صياغة تقاليدها الفقهية التي لا تريد العدول عنها أو تجديدها لفترة طويلة من الزمن في ضوء دوافع هي في الأصل اجتماعية وليس علمية ، ومن هنا صار يفهم هذا النقد الفقهي للآراء عند الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ( ت ٤٦٠ هجري ) <sup>١</sup> ، على أنه نظر من التجاور أو التعدي على الشخصية وأضرار بالعلاقات ، وكسر للعادات العلمية السائدة في المجال الفقهي ، مما يؤكّد بعد الاجتماعي للمعرفة الفقهية في تأسيسات الشيخ ابن ادريس الحلبي ، ومن هنا : (عد بعض فقهاء الإمامية التعدي على آراء الشيخ الطوسي الفقهية ومقامه العلمي المقدس خروجاً على الأعراف والتقاليد ) <sup>٢</sup> .

١ - ولد الشيخ الطوسي سنة ٣٨٥ هجرية في شهر رمضان، في خراسان في ناحية طوس، ونشأ فيها وترعرع بين أهلها إلى أن بلغ الثالثة والعشرين من عمره. عندها، عزم على الهجرة إلى العراق، فنزل في العاصمة بغداد العام ٤٠٨ هجرية، وبقي مقيماً في العراق إلى آخر عمره، حيث لعب دوراً نشيطاً في الحياة الفكرية العامة، وقام بتأسيس الحوزة، وتوفي في النجف الأشرف سنة ٤٦٠ هجرية.

٢ - حسن الحكيم ، مدرسة الحلة العلمية ، مركز الهدى ، مطبعة البينة ، قم ، ط١ ، ٢٠٠٨، ص: ٥٥.

## المبحث الأول

### البيئة العراقية دور علماء الشيعة في تأسيس العلوم الإسلامية وتطورها

في البداية ، لابد من ذكر بعض الجوانب العامة ، مثل المدة المقصودة في هذا البحث ، وهي فترة التأسيسات الأولى في مجال العلوم الإنسانية ، التي تمت من القرن الأول الهجري ، حتى القرن الخامس الهجري ، إذ تناول البحث في أوله ، شخصية عراقية من البصرة ، مثل أبي الأسود الدؤلي ، (ت ٦٩ هجري) وهو من القرن الأول الهجري ، وجهوده في تأسيس : (علم اللغة) ، وأنتهى البحث بشخصية عراقية من بغداد ، مثل الشريف الرضي (ت ٤٠٥ هجري) وهو من القرن الخامس ، كمؤسس ل(علم النص) ، وعلم النص هو مفهوم علمي أوسع من مصطلح علم البلاغة المعروف في نظرية المعرفة القدية ، أو مكونات هذا العلم التقليدية والسائلة والمحصورة في حقول المعاني والبيان والبديع .

كما لابد في بداية البحث من تناول أو ذكر العوامل التي ساعدت في إيجاد النهضة العلمية في العراق ، والحوافز التي شكلت الدافع النفسي للبحث والتفكير العلمي في الحقب الأولى من تاريخ المسلمين ، ولاسيما في الأوساط الاجتماعية المرتبطة بجدرسة أهل البيت العلمية ، وهنا لابد أن نسجل أن في مقدمة هذه الحوافز عند انتلاقة الإسلام ، بالطبع ، هو الرغبة واستشعار الوجوب ، والضرورة في تحقيق التحولات الاجتماعية عند تلامذة الإمامية

المعصومين من خلال العناية بدراسة القرآن الكريم ، وكلمات الرسول الأعظم صلى الله عليه واله ، وكذلك من خلال العناية بالأحاديث الشريفة الصادرة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ، والتي تفسر ما في القرآن الكريم من الآيات والمعاني في هذه الأحاديث ، وتنزيل مضامين هذه المعرف الالهية إلى واقع عملي :

( الحقبة الأولى ، وهي حقبة الأئمة المعصومين وتلامذتهم وبطانتهم ، الذين ترى العديد منهم كهشام بن الحكم ، مثلاً ، وهو شيعي شديد الكلف بالإمام السادس جعفر ، يجمعون تعاليم الأئمة في تصانيف ومؤلفات ، وهذا بالطبع عدا عن مؤلفاتهم الشخصية ، وتستمر هذه الحقبة حتى تاريخ غيبة الإمام الثاني عشر الكبرى ٣٢٩ هجرية ).

إن مجيء الأئمة المعصومين من أهل البيت (عليهم السلام) إلى أرض العراق ، واسهامهم في تكوين هذه الحاضنة العلمية ، هو من مهد لهذه المساهمات في التأسيس العلمي ، وذلك في وسط اجتماعي ومحيط يعني بالأفكار أيضاً ، نتيجة احتكاكه السابق بالحضارات ، وتسوده روح الاصالة الحضارية ، المعروفة في أرض الرافدين والتي تتدلى عصور قديمة ، مثل ، حضارة بابل وظهور ابراهيم عليه السلام ، والاتصال بالحضارة الفارسية القديمة ، وكذلك

---

١ - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، دار عويدات ، بيروت ، ط ٢٠٠٤ ، ص ٨٩ .

تواتر الدوافع السياسية في الحقب اللاحقة ، في هذه البلاد ، ففيها تقع عاصمة العالم الإسلامي آنذاك ، وهي ملتقى المفكرين من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وكذلك العامل الاقتصادي . وتتوفر الاستقرار الاقتصادي الكافي لترغع العلماء للبحث والتطوير .

فمجيء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، مثلاً ، وهو مصدر معرفي هائل ، إلى أرض العراق ، مهد هذا الحضور للإمام على أرض العراق لنشوء حركة علمية غير مسبوقة . وكذلك مجيء الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ، إلى العاصمة الكوفة ، وتشكيله لجامعة الكوفة الكبرى . والذي شكل محطة كبرى لانطلاق البحث العلمي في أرض العراق ، واستئنافاً للهمم الشيعية في الارتقاء والدخول في هذه الحقول المعرفية ، ومن ثم تقديم العطاء التأسيس فيها .

وهكذا صار من الواضح أن هذه العلوم ، إنما تستمد معارفها من مصادرين رئيين هما : القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، في مفهومه الواسع ، أي الذي يشمل كلمات وعلوم المعصومين من أئمة أهل البيت ، ويضاف إلى ذلك ملاحظ الواقع ، والفهم العلمي للظواهر المدرستة في هذه الحقول البحثية ، كما هو الحال عند دراسة الأساليب البينانية في اللغة العربية وظاهرة المجاز فيها ، وأخيراً ، الصياغات الخاصة بالعلماء للنظريات والأفكار ، ولاسيما في المؤلفات والكتب التي وصلت إلينا ، فهي مصادر معرفية في تأسيس العلوم ، أسمهم السابق منها في رفد اللاحق بمزيد من التأمل والتفكير في الحقول المعرفية

والعلوم السائدة آنذاك ، رغم إنكار البعض لصحة صدور هذه المؤلفات في حينها ، كما يحصل هذا الإنكار مع مدونة (نهج البلاغة) ، من قبل المخالفين لمدرسة أهل البيت ، أو إنكار ، رسائل جابر بن حيان الكوفي ، وهو في طليعة علماء الشيعة العراقيين في مجال الكيمياء ، من قبل المستشرقين ، مثل : كراوس ، رغم أن هذا المستشرق ، هو من حقق مطالب رسائل جابر العلمية ، ومن المؤسف أن خلص في النهاية إلى الادعاء بأن هذه الرسائل ، إنما كتبت بعد دخول العالم الإسلامي في عصر الترجمة ، لاستحالة معرفة جابر بكل هذا الابداع العلمي ، وذلك من أجل تعزيز المركزية الغربية وثبتت رياوتها في هذا الحقل العلمي الحيوي والتقليل من الجهد والابداع في العالم الإسلامي<sup>١</sup> . كما أن هذه العلوم والمعارف لم تتشكل دفعة واحدة ، بل هي نتيجة للتفاعلات والتأثيرات المتبادلة بين النص والواقع ، وفي ضوء الحاجة لتقديم الحلول للمشكلات ، العقدية والأخلاقية والعملية ، ومتطلبات الوعي العام بسبيل تيسير الحياة ، والأمور التي كانت تشغل العلماء والمفكرين والكتاب في ذلك الزمان . ومن مجموع هذه التفاعلات الواقعية ، تشكلت نظرية المعرفة الإسلامية حيثـ ، والتي تعنى بتحديد المصادر المعرفية للعلوم الإسلامية والمعارف ، وقيمة هذه المعرفة ، والجذوى أو المنافع التي يمكن أن تقدمها للإنسان المسلم في تدبير الحياة الفردية أو النظام الاجتماعي ، ومن ثم كانت نظرية المعرفة الإسلامية تقدم باستمرار الرؤية المطلوبة في الاجتهاد والتطوير والتغريب والاضافة المعرفية في

---

١ - جابر بن حيان ، تدبیر الاکسیر الاعظم ، تحقيق : بیبر لوری ، ترجمة : لویس صلیبا ، دار بیبلیون ، جبیل ، لبنان ، ٢٠٠٩ ، ص : ٢٠ .

هذه العلوم . إن تجميع شتات هذه المعارف والتأسيسات العلمية في لوحة فنية ، أو صورة واحدة ، يُمكّن من إعطاء تصور جديد عن حجم التقدم العلمي والحضاري الذي تسبب به نزول القرآن الكريم ، والأثر المهم الذي مارسه الإمام عليهم السلام في إعادة البناء الحضاري ، وتأهيل الأفراد ، والمجتمع ، والنظام العام ، في إطار حياة اجتماعية ، وثقافية وفكرية مما يجعل الحياة العامة والعلاقات أكثر إنسانية ، وأقرب إلى طاعة المولى تبارك وتعالى ، في حاضنة اجتماعية واسعة يمثل علماء الشيعة فيها دور القدوة ، أو يمارسون تأثير الجماعة الصالحة ، كمجتمع معرفي والأخلاقي بالدرجة الأساس .

ولاريب أن التسميات التي منحت لهذه الجهود التي بذلها العلماء الرواد والأوائل في مجال دراسة الموضوعات ، والمعارف ، وأسماء العلوم ، إنما هي تسميات لاحقة ، وجزئية ، تم اطلاقها على هذه الجهود بأثر رجعي ، فهي بالتالي إعادة قراءة لما حصل سابقاً ، وتقويم لهذه المنجزات الضارة في عمق التاريخ الإسلامي . فقد قيل ، مثلاً ، أن العالم الفلاحي هنا ، أو المحدث الكبير هناك ، هو من يقف وراء تأسيس هذا العلم أو ذاك ، أو هو من طور أكثر من غيره ، هذا الحقل المعرفي ، ومن ثم فهي اطلاقات قابلة للمناقشة ، وإعادة القراءة ، والاستدراك وقد وقع فيها الكثير من الخلافات قديماً وحديثاً ، فقد قيل أن المؤسس الحقيقي لعلم الاصول هو أبان بن تغلب<sup>١</sup>

---

١ - أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري الكوفي (ت. ١٤١ هـ). راوي ومفسر ومحدث ونحوبي شيعي كوفي وقارئ لغوي وصف بأنه من غلة الشيعة، يقال أن جده كان مولى لحرير بن عباد من بنى بكر بن وائل، فانتسب إليه. وقد أجمع الشيعة

، وذلك من أنه ألف كتاب في مباحث اللفاظ ، ومن الواضح أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، ولو صح ما ذكروه ، فإنه يمكن القول أن محتوى هذا الكتاب هو من قبيل التأسيس لعلم ( دلالة اللفاظ ) ، وليس يدرج في تأسيس ( علم الأصول ) المصطلح عليه في الوقت الحاضر ، ومحل الشاهد أن هذه القضايا تبقى قابلة للنقاش والأخذ والرد ، كما سيتضح من خلال هذا البحث .

وفي هذه الأوراق المتبقية من البحث ستناول عدد من الاستغالات في عديد العلوم ، المترابطة في ذاتها ، حيث التداخل موجود في الموضوع ، وهو السائد في تكوينها ، وهي تبدأ بعلم اللغة ، وتنتهي بعلم النص ، فيما تمّ بعلم غريب القرآن ، وهو جزء من اللغة في جانب ، وجزء من التفسير في الجانب الآخر ، وكذلك علم المنطق ، الذي يتناول موضوع اللغة في التفكير والحجاج والأداء والاستعمال المؤثر ، كما هو الحال في تدخله ، أيضاً ، مع علم الكلام ، حيث يتسبب ظاهر الكلام بمشكلات عقدية ، هي نتيجة هذا التداخل بين المجاز والحقيقة في وصف الذات الإلهية ، مثلاً ، أو العصمة أو الولاية وغير ذلك من المشكلات .

لقد جمعت هذه الموضوعات ، كما هو واضح ، بين النظر العقلي والتأويل اللغوي ، والتي كان تلاميذه مدرسة الإمام علي عليه السلام ، ولاسيما العلماء الشيعة في العراق ، أثراً في إثارتها بالبحث من حيث الموضوع ، والمسائل ، والخيالية الجامعية ، والمنهجية في البحث والاستنباط ، أو الاستدلال العقلي ، وكذلك

---

على توثيقه، ورووا العديد من الأحاديث عن أئمتهم في فضله ومناقبه، وقد عاصر منهم زين العابدين، والباقر .

الأغراض ، أو الاهداف التي يمكن أن تترتب على البحث العلمي في هذه التأسيسات الأولى .

فيتمكن التعريف بهذه العلوم ، بشكل قد يكون مغاير بعض الشيء لما ساد في الدراسات السابقة من توصيفات ، كما هو الحال ، في الدراسة الرائدة في مجال تأريخ العلوم ، للسيد حسن الصدر والموسومة : (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ) ، أو قد مختلف عندما نعيد التعريف بهذه التأسيسات العلمية ، مع ما قدمه الدكتور حسين علي محفوظ من البحوث في هذا المجال<sup>١</sup> .

لقد غطى البحث خمسة من هذه التأسيسات وهي : (علم اللغة ) ، وجهود أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هجري ) ، وعلم (غريب القرآن) وجهود زيد الشهيد ((ت ١٢٠ هجري ) ، وعلم (الحجاج الكلامي) وجهود هشام بن الحكم (ت ١٧٩ هجري ) ، و(علم العروض ) ، وجهود الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٤ هجري ) ، و (علم المنطق ) ، وجهود ابن السكikt (ت ٢٤٤ ) ، و علم النص ، وجهود السيد الشريف الرضاي (ت: ٤٠٦ هجري ) في تغطية هذا العلم .

ومن الواضح أن جميع هذه العلوم التي يتناولها هذا البحث ، أصبحت مجتمعة في نسيج معرفي واحد ، وتقع اليوم في مرمى أو الاهتمامات المشتركة

١ - حسين علي محفوظ ، تسعه من أعلام التراث العلمي في عصر الخلافة العباسية في سامراء ، بحوث الندوة الرابعة لتاريخ العلوم ، ج ٢ ، دار احياء التراث العلمي ، بغداد ، ١٩٩٠ مطبعة الموصل ، ص : ١٨١ .

والواسعة لعلم استعمال اللغة التواصلي<sup>١</sup> ، أو ما يعرف بالتداولية ( علم استعمال اللغة ) ، وما يتضمنه هذا العلم أو الحقل الكبير ، من أبعاد مثل : الغوص في مشكلات الحجاج والجحود والخوار التي تفتح على مسائل أو طرائق التفكير ، والضبط الاجتماعي ، واصدار الأوامر في الشغل اليومي من خلال اللغة .

وكذلك في مجال القاء الكلام وصناعة الخطاب ، من أجل بيان ، أو أداء العديد من الأغراض والوظائف النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكذلك في مجال انجاز الافعال ، من خلال الكلام والتوجيه واعطاء التعليمات التشريعية : ( الأوامر والنواهي ) ، ومن ثم العمل على التحرير الاجتماعي ، أو الادماج للفئات والطبقات ، وتقليل مظاهر التباين في المجتمع ، واحلال عناصر التجانس من خلال العناية باللغة واستعمالاتها في التواصل الاجتماعي وتحقيق الاعتراف أو الاختبار .

معنى أن انتقاء هذه العلوم ، لبحث الدور التأسيسي لبعض علماء مدرسة أهل البيت ( عليهم السلام ) ، قد جاء بشكل مدروس ، وذلك في ضوء عنصر الترابط الكامن في موضوعات هذه العلوم ونسيجها ، والذي يعكس حتماً على معرفة وظائفها ، وامكانية الافادة منها ، ومن هذا بعد الترابط في عملها

---

١ - لا شك أن التواصل communication الذي تعددت مفاهيمه وتتنوعت اتجاهاته في الآونة الأخيرة، ما هو إلا عملية بشرية تدور في تلك اللغة، بدءاً بالفكرة، وانتهاءً بالإبلاغ، هذه اللغة التي تتجلى أهميتها ويعاظم دورها في حياتنا اليومية، باعتبارها أداة نستقبل ونرسل بها، توسيع مداركنا، وتحرك شعورنا، لا تعود إلا أن تكون إشارات أو أصوات، وربما ملامح وعلامات يفهم معناها.

الاجتماعي ، كمدخلات في عمليات متنوعة ، مثل : التجديد ، والتطوير ، والتغيير ، والاصلاح ، في ضوء استراتيجيات معاصرة ، لا تقل أهمية عن التأسيس الأول ، لكي لا يتحول البحث إلى تحقيق تراثي في الأدبيات القديمة ، نظير ما يحصل من العناية بالآثار ، والمخطوطات ، والصور القديمة ، وجمع الطوابع البريدية ، والتحف ، ولا أحد اليوم يشك في أهمية دور أحياء التراث في نهضة الأمم ، فعماد النهضة الاوربية أنها كان من خلال استعادة ، وإعادة قراءة تراثها الاغريقي والرومانى وكذلك المسيحي ، والذي يشكل حتى الان محول رئيسي للحرك الفكري والثقافي في أوربا . وما يساعد على تفهم هذا الترابط لهذه التأسيسات وتقاربها في التفكير بالموضوعات بالإضافة إلى وحدة البُعد اللغوي في بناء نسيجها ، هو تقاربها في الوظائف والمهام ، سواء في مجال فهم الكتاب والسنة ، كمقدمات ضرورية في هذا الدرس ، أم في مجال واسع آخر هو التواصل الاجتماعي والثقافي مع المحيط ، و يؤيد ذلك ، بشكل تجريبي وعملي أنها تأسيسات حصلت في بيئة اجتماعية واحدة ، وهي البيئة العراقية ، ومن قبل العلماء العراقيين الشيعة ، وفي داخل المدرسة الفكرية والمذهبية الواحدة وهي مدرسة أهل البيت ( عليهم السلام ) ، أي في اطار مصادر معرفية واحدة ، ويصدق بعضها بعضاً : القرآن والسنة والاجماع والعقل .

## المبحث الثاني :

# نماذج من دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطويرها

### أولاً: علم اللغة وجهود أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هجري):

لم يكن ليخطر على بال أي عربي أن تكون معجزة الله تعالى الجديدة للبشرية ، هي معجزة لغوية تماماً في ظاهر تركيبها الكلامي<sup>١</sup> ، وقبل البحث في جوانبها الاعجازية الكثيرة ، فقد اعتمدت هذه المدونة ، والمعجزة في لغتها وظيفة التواصل بين الخالق والمخلوق ، وباللسان العربي المبين ، الأمر الذي لفت انتباه أهل الدين الجديد من العرب والمسلمين إلى أهمية اللغة وعمقها في الحياة ، وضرورة دراستها والمحافظة عليها في الاستعمالات ، من الانحراف والاختفاء ، وذلك من خلال ضبط أجزائها ، واستعمالات هذه الأجزاء ، والمكونات ، والتبصر بسماتها وخصائصها النسيجية والوظيفية وتأثيراتها الادراكية ، وموقعها في اثناء الكلام أو قواعدها عند الاستعمال في عديد المقامات والاحوال .

١ - ولا ريب أن صور الإعجاز القرآني في المعاني لا تقف عند حد من الحدود ، وجميع هذه المعاني هي من مدلولات اللغة وأسلوبها في توصيل المعنى ، ومن هنا قيل أن اللغة هي مأوى الوجود .

وفي الإطار التاريخي ، تتحدث العديد من السردية ، التاريخية ، عن السبب وراء تأسيس علم النحو في تلك الفترة المبكرة من الإسلام ، أي في حدود منتصف القرن الأول ، وأن الإمام علي عليه السلام ، كان وراء إطلاق نقطة البداية في علم اللغة ، إذ جعل من البحث في أقسام الكلام مدخلاً ، استهلاكاً في تأسيس هذا العلم ، الذي أخذ اسم النحو فيما بعد .

ومن الواضح أن (علم النحو) ، هو العلم الذي يبحث في تراكيب الجمل في العربية ، وفي أجزاء الكلام والواقع من حيث البناء والإعراب ، هو أكثر خصوصية من البحث العام في نسيج اللغة ، ذلك أن علم اللغة ، يتناول مطلق الألفاظ والكلام من حيث الصوت والدلالة والتراكيب ، وهو بهذا يشمل التراكيب البلاغية ، والتراكيب الصرفية ، بالإضافة إلى التراكيب النحوية .

ومن هنا نرى أن هذا التأسيس ، وهذا الاشتغال بتقسيم الألفاظ ، ودلالاتها الوظيفية ، لم يكن مختصاً بعلم النحو ، وإنما كان تأسيساً ، مطلقاً ، وعاماً ، وقد أفضى في النتائج النهائية إلى تأسيس جملة من العلوم اللغوية ، وليس علم النحو فحسب ، ويؤكد ذلك إنجازات أبي الأسود الدؤلي بإعادة ضبط أو تنقيط الحروف العربية .

من الواضح أن هذا العلم نشأ بشكل مبكر في العالم الإسلامي ، مقتناً ، بالكثير من الأمور ، منها ، أنه ارتبط بمعرفة أو فهم أو تفسير القرآن الكريم ، وكذلك مقتناً بالتفقه في الدين ومعرفة الأحكام ، ومرتبط باستشعار ضرورة الحفاظة على التواصل الوعي بالإفادة القانونية من القرآن ، ومعرفة ما جاء فيه من المعارف والأحكام ، من خلال المعرفة اللغوية العلمية ، وعدم التعويل على

المعرفة الفطرية ، السائدة ، وكذلك أرسى أسس التفكير المنطقي ، والانضباط العملي والأخلاقي من خلال الرصانة اللغوية ، وهذا يؤكد القاعدة العريضة في التأسيس والهدف منها، كان أكبر من الأخطاء اللغوية وضرورة تجاوزها :

( لابد أنه كان هنالك دافع أشد إلحاحاً وقوة وراء ظهور نحو علمي حقيقي ، وهو وصف شامل ومتماستك للغة العربية الصحيحة ، مثل هذا النظام النحوي ليس نتاجاً جانياً حتمياً للاتصال الطارئ مع حضارات أخرى .... إن النحو المنظم على وجه منهجي أصيل يضفي العقلانية على قواعد السلوك الاعتباطية ، ويضفي المصداقية عليها من خلال قوة العقل نفسه ، والشبيه الواضح هو الفقه ، الذي يفعل الشيء نفسه بالضبط )<sup>١</sup>.

وقد أجمع الباحثون في تاريخ الأفكار والمعارف الإسلامية ، والمؤرخون لتأسيس العلوم ، على أن أبي الأسود الدؤلي : (ت ٦٩ هجري ) وهو من العلماء العراقيين الأوائل ، ومن تلامذة ، وأصحاب أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)<sup>٢</sup> ، وبتوجيهه من الإمام علي عليه السلام أعتنى

---

١ - يونج ، ولثام ، وسيرجنت ، الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط ٢٠١٦ ، ص ١٧٥ .

٢ - أبو الأسود الدؤلي (٦٣ ق. هـ - ٦٩ هـ) هو ظالم بن عمرو بن سفيان، ولد في الكوفة ونشأ في البصرة، من سادات التابعين وأعيانهم، يعتبر أول من وضع علم النحو، وشكل المصحف. صحب الإمام علي بن أبي طالب، وشهد معه وقعة صفين. وهو ملك

بجوانب مهمة من مشكلات اللغة العربية ، ونطقوها ، كمشكلة اللحن في اللغة ، ومشكلة كتابة نصوص الآيات الشريفة في المصحف ، وبذلك يعدّ أباً الأسود الدؤلي المشغل الأول بعلم اللغة ، قبل نهاية النصف الأول من القرن الأول الهجري ، وذلك بعد أن تلقى تعليمات وتوجيهات محددة في موضوعين ، الأول : هو في أقسام الكلام من : الاسم والفعل والحرف ، عن الإمام علي ، وكيف أوضح له الإمام مدلولات هذه الأقسام في الواقع وعالم التكوين والذهن ، وقد أصطلاح ابن الأباري على هذه التعليمات بعلم العربية ، عندما تحدث عن هذا التأسيس :

( إن أول من وضع علم العربية ، وأثبت قواعده ، وحد حدوده ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، واخذ عنه أبو الأسود الدؤلي )<sup>١</sup>.

والثاني هو في توجيهات الإمام بشأن تنقيط المصحف الشريف ، وهي قضية غاية في الحساسية ولا ينهض بها إلا من كان في الطليعة من العلماء في اللغة :

( ومضى وضع أبي الأسود الدؤلي لشكل المصحف ، أنه وضع الضوابط التي تمنع القارئ من الزلل أو اللحن في القرآن الكريم ، وهل للنحو غاية أخرى أبرز من حفظ اللسان من الخطأ) <sup>١</sup>.

---

النحو. فهو أول من ضبط قواعد النحو، فوضع باب الفاعل، المفعول به، المضاف وحروف النصب والرفع والجر والجزم. حياة .

١ - ابن الأباري ، نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص : ١٣ .

لقد حاول عديد الباحثين ، ومنهم مستشرقون ، إرجاع تأسيس هذا العلم الحيوى إلى حواز ، من خارج الأوساط الإسلامية ، ومنها الأوساط السريانية أو اليونانية ، للتقليل من عظمة هذا الانجاز ، وللتشكيل بقدرة الامة الإسلامية على الابداع ، والاكتشاف ، والتنظير ، أو التأسيس العلمي .

### **ثانياً : علم (غريب القرآن) ، وجهود زيد الشهيد (ت ١٢٢ هجري) :**

شكل القرآن الكريم ، وما يتضمنه من المحتوى الفكري والتاريخي واللغوي والقانوني ، محوراً أساسياً في الاشتغال اليومي للباحثين والمفسرين والكتاب في العالم الإسلامي ، وكان لابد من استجلاء الكلمات والتراتيب الغريبة من الناحية اللغوية ، و الغامضة المعنى في هذا النص المقدس ، الذي يتطلب العمل به باستمرار ، من أجل الوقوف الجدي على المراد الحقيقي من وراء هذه الكلمات الغريبة والغامضة في المعنى والمضمون ، وصار من اللازم التصدّي لتأسيس حقل من البحث في غريب القرآن .

موضوع هذا العلم أو المجال البحثي ، هو مجموعة المفردات الغريبة في القرآن الكريم ، وهو من الموضوعات التي نالت اهتمام الصحابة والتابعين منذ اليوم الاول لنزول القرآن الكريم ، وأرتبط فيما بعد بعلم التفسير ، لكن من الواضح أن هذه الموضوع أكثر خصوصية من تفسير الآيات ، وبيان المعاني الواسعة للقرآن الكريم ، بل هو علم يعني بالمرة الغامضة ، وغير المفهومة بشكل

١ - محمد منصور ، ابو الاسود الدؤلي في الميزان ، انتشارات مكتب التبليغ الإسلامي ، قم ، ١٤١٨ هـ، نقلأ عن : مازن مبارك ، النحو العربي ، ص : ٣٠ .

مباشر ، من الفاظ القرآن الكريم ، وهي الفاظ عادة تكون قليلة الاستعمال عند الناس أيضا ، أو تكون مخالفة للقياس عند اعمال الصياغات العربية التقليدية والمشهورة ، وعلى جميع التقادير ، فان اللفظ القرآني حينئذ ، يكون بعيد المعنى ، ولا يتناوله الفهم الا عن تفكير ، ونظر ، وتأمل ، مما يستدعي الالام باللغة ، والاستعمالات ، ومعرفة الوضع ، وأساليب التصريف والبلاغة .

ويبدو أن كتاب زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)<sup>١</sup>، الموسوم : ( تفسير غريب القرآن )<sup>٢</sup> ، هو من أقدم التصنيفات في هذا الحقل المعرفي ، ذلك بأن زيد بن علي (ت ١٢٢ هجري) ، الذي عاش في العراق ، ثم ثار ضد الامويين ، واستشهد ودفن في العراق ، متقدم على جميع من وردت أسمائهم في مجال التصنيف في علم غريب القرآن ، كما هو الحال مع أبان بن تغلب ( ١٤٠ هجري ) ، فقد أرتحل زيد قبل أبان بنحو عشرين سنة كما في بعض الروايات .

ويعكس هذا الاهتمام العلمي المبكر بمشكلة الالفاظ الغريبة في القرآن أهمية الواقع في توجيه النظر والتأليف ، فمن المؤكد أن الطلب على استيضاح كتاب الله تعالى كان يقع في مقدمة الاولويات الفكرية والثقافية في مسار الحياة اليومية

١ - هو زيد بن علي عليهما السلام ولد في المدينة المنورة. أبوه الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وأمه من بلاد السنديان. والكثير من المراجع والمصادر لم يثبت سنة ولادته، كما اختلف في سنةشهادته. فقد أورد ابن الأثير في الكامل شهادته في أحداث عام (١٢٢هـ).

٢ - زيد بن علي ، تفسير الشهيد زيد بن علي ، المسمى تفسير غريب القرآن ، دراسة وتحقيق : الدكتور حسن محمد تقى الحكيم ، الدار العالمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢ .

، وذلك لما للقرآن الكريم من الأثر المعرفي : النظري والتطبيقي ، في مجالات : العقائد والأخلاقيات والسلوكيات وكذلك في مجال معرفة التاريخ والشعوب السابقة والاديان والأفكار ، والإفادة من هذا الرصيد العلمي في تسخير شؤون الحياة اليومية في المجتمع الإسلامي .

تضمن هذا الكتاب ، تبع زيد بن علي للكلمات الغريبة في القرآن الكريم ، وهو يبين معنى الكلمة حسب أقدمية ورودها في السور ، مثل أي تفسير معاصر ، إذ يراعى في هذا الأسلوب ، حتى التسلسل في كلمات الآية الواحدة ، وفي آيات السورة الواحدة ، ومن ثم في السور القرآنية جمِيعاً ، وقد ذكر السور جميعاً في كتابة ، أي من أول سورة الفاتحة وحتى آخر سورة الناس ، ولو استعرضنا ما فسره في سورة الفاتحة لوجدناه قد بدأ بتفسير الآية الأولى منها وذكر مفرداتها ، ثم الثانية ، ثم الرابعة ، ثم السادسة ، جاء في أول الكتاب :

( حدثنا أبو : قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء

بن السائب ، قال : حدثنا أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي عن زيد بن علي عليهما السلام ، أنه سئل عن فاتحة الكتاب فقال : « بسم الله » ، هو تعظيم الله ، « الرحمن » بما خلق من الأرض في الأرض والسماء في السماء ..... قوله تعالى « المَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَلَا الصَّالِحُونَ » هم اليهود والنصارى )<sup>١</sup> .

١ - زيد بن علي ، تفسير الشهيد زيد بن علي ، المسمى تفسير غريب القرآن ، دراسة وتحقيق : الدكتور حسن محمد تقى الحكيم ، الدار العالمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢ ص :

وهكذا يستمر زيد بن علي في ذكر المفردات القرآنية ، تباعاً ، ويبيّن معانٍ هذه الكلمات حتى سورة الناس ، جاء في أخر الكتاب :

( قوله تعالى ﴿الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ، الَّذِي يُوَسْوِسُ﴾ ثم يخسّ ، قال الإمام زيد بن علي صلوات الله عليه : ما من مولود إلا وعلى قلبه الوسواس الخناس ، فإذا عقل ، فذكر الله تعالى خرج ذلك من قلبه )<sup>١</sup> .

### **ثالثاً: علم (الحجاج الكلامي) ، وجهود هشام بن الحكم (ت ١٧٩ هـ) :**

في ضوء معارف القرآن الكريم ، وأحاديث النبي الأكرم ، تضافرت الجهود ، من قبل تلامذة الأئمة واصحابهم ، في الدفاع عن حقائق الإسلام الكلية والكبرى ، أي تلك التي تخص الرؤية الكونية الإسلامية ، وتصوراتها المتراطبة عن الله تعالى وعن رسوله الكريم ، وموقع الإمامة في الدين ، والمسائل الفرعية المتصلة بالعقيدة ، ولاسيما ، تلك التي تتعلق بفعل المولى ، والقضاء والقدر والحساب والعقاب ، وهي موضوعات اصطلاح عليها القوم منذ البدايات الأولى للإسلام ، بعلم الكلام .

يعد هذا العلم والاهتمام بموضوعاته من أقدم الاهتمامات في حياة المسلمين ، إذ ارتبط بالاهتمام بالتصورات والأفكار عن ب فعل المولى تبارك وتعالى ، وبالتالي عن الوجود الأقدس للذات الإلهية ، والصفات ، ومسائل الخلق ، والكلام ، والقضاء والقدر ، والجبر أو التفويض ، واستحقاق العذاب ،

---

١ - المصدر نفسه ، ص ٤١٥ .

وارسال الرسل ، وبعث الانبياء ، وجعل الهداة ، الأوصياء ، وغير ذلك مما هو ممكن أن يصدر عن المولى تبارك وتعالى من الافعال ، كما ارتبط بالدفاع والذود الحجاجي عن هذه العقائد .

ومن الواضح أن هذا الاهتمام هو متفرع على تناول القرآن الكريم لهذه المسائل ، وكذلك بسبب المشكلات الواقعية التي ترتبت على التصورات الخاطئة في هذا المجال ، ولاسيما من قبل أعداء الإسلام من الداخل ، أو الخارج الإسلامي ، من أجل تبرير أفعال الظالمين ، وسلطتهم على المسلمين ، فشكل الدفاع عن التصورات الصحيحة في المجالات الاعتقادية ، هو المسوغ الأول لازدهار هذا العلم والتأليف فيه .

وفي هذا الإطار الدفافي ، الذي أسس لهذا العلم ، جاءت مساهمة تلامذة الإمامة عليهم السلام ، كما هو الحال مع هشام بن الحكم الكوفي ، وهو أبو محمد : هشام بن الحكم ( ت ١٧٩ هجري )<sup>١</sup> ، من تلامذة وأصحاب الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة ، إذ يعدّ من المؤسسين في الأوائل في مجال علم (الحجاج الكلامي) . بشهادة الكثيرين ، إلى جانب آخرين من معاصريه ، في مدرسة الإمام الصادق ( عليه السلام ) ، مثل مؤمن الطاق ، وهشام بن سالم الجواليقي ، وعلم الحجاج الكلامي ، هو أوسع من مجرد عرض الأصول

١ - هشام بن الحكم الكوفي البغدادي، ولد بالكوفة، مولى بنى شيبان، كنيته أبو محمد، هاجر إلى بغداد، من أعلام القرن الثاني الهجري، و من رواة الحديث و متكلمي الشيعة، وهو من أصحاب الإمامين جعفر الصادق و موسى الكاظم، وقد روى عنهما أحاديث، تعلم علم الكيمياء على يد جعفر الصادق، كان يعمل بالتجارة.

الاعتقادية في شكلها البنيوي ، والوظيفي وما يتضمن من الأدلة ، وال Shawahed ، كما هي واردة في الكتاب والسنة والعقل ، إذ يتضمن الحجاج قوة الحوار ، وأسلوب المنطق ، وكفاءة استعمال اللغة ، ومنهجية الجدل في الدفاع عن هذه الأصول الاعتقادية واستراتيجيات اتصال الأفكار الاعتقادية إلى ذهن المخاطب والتأثير به من أجل الانقاذ .

ولعل سردية الحوار المعروفة بين هشام وكبير المعتزلة في البصرة من الشواهد على هذا التأسيس العلمي لعلم الحجاج الكلامي في فترة مبكرة من تاريخ المسلمين ، وقد جاء في هذا الحوار :

( قال هشام : بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد ، وجلوسه في مسجد البصرة ، وعظم ذلك عليّ ، فخرجت إليه ، ودخلت البصرة يوم الجمعة ، وأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة ، وإذا عمرو بن عبيد عليه شملة سوداء مؤتز بها من صوف وشملة مرتد بها ، والناس يسألونه ، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي ، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتيّ ، ثم قلت : أيها العالم أنا رجل غريب ، أتأذن لي فأسألك عن مسألة ؟ )

قال : أسأل !

قلت له : ألك عين ؟

قال يابني أي شيء هذا من السؤال ، إذاً كيف تسأله عنه ؟  
فقلت : هذه مسألتي .

فقال : يابني ! سل وإن كانت مسألتك حمقى .

قلت : أجبني فيها .

قال : فقال لي : سل !

فقلت : أللّك عين ؟

قال : نعم .

قلت : قال : فما تصنع بها ؟

قال : أرى بها الألوان والأشخاص .

قال : قلت : أللّك أنف ؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به ؟

قال : أشم به الرائحة .

قال : قلت : أللّك لسان ؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به ؟

قال : أتكلّم به .

قال : قلت : أللّك أذن ؟

قال : نعم .

قلت : فما تصنع بها ؟

قال : أسمع بها الأصوات .

قال : قلت : أللّك يدان ؟

قال : نعم .

قلت : فما تصنع بهما ؟

قال : أبطش بهما ، وأعرف بهما اللّيin من الخشن .

قال : قلت : ألك رجال ؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع بهما ؟

قال : أنتقل بهما من مكان إلى مكان .

قال : قلت : ألك فم ؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به ؟

قال : أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها .

قال : قلت : ألك قلب ؟

قال : نعم .

قال : قلت : فما تصنع به ؟

قال : أميّز به كلما ورد على هذه الجوارح .

قال : قلت : أفلéis في هذه الجوارح غنى عن القلب ؟

قال : لا .

قلت : وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة ؟

قال : يا بني إنَّ الجوارح إذا شكَّت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته ، ردَّته إلى القلب ، فتيقن بها اليقين ، وأبطل الشك .

قال : فقلت : فإنما أقام الله عز وجل القلب لشك الجوارح ؟

قال : نعم .

قلت : لابد من القلب وإلا لم يستيقن الجوارح .

قال : نعم .

قلت : يا أبا مروان ، إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحكم حتى جعل لها إماماً ، يصحح لها الصحيح ، وينفي ما شكت فيه ، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم ، وشكهم ، واختلافهم ، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم ، ويقيم لك إماماً بجوارحك ، تردّ اليه حيرتك وشكك ؟ ! .

قال : فسكت ولم يقل لي شيئاً .

قال : ثم التفت إليّ فقال لي : أنت هشام ؟

قال : قلت : لا .

فقال لي : أجالسته ؟

فقلت : لا .

قال : فمن أين أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة .

قال : فأنت إذاً هو . ثم ضمني إليه ، وأقعدني في مجلسه ، وما نطق حتى قمت ، فضحك أبو عبد الله - عليه السلام - ، ثم قال : يا هشام ، من علمك هذا ؟

قلت : يأبن رسول الله جرى على لساني

قال : يا هشام هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى).

ومن المؤسف أن ما وصلنا من مساهماته جاء في إطار الكتب الأخرى ، بعد أن أفرغت كتب هؤلاء العلماء وأصولهم في الكتب المطولة والموسوعات الكبرى ، حيث استوّعت هذه المطولات ، الأصول الصغيرة وأدرجتها في إطار

من التبوب الجديد والمنتظم ، مثل كتب الموسوعات من الأحاديث والجماعات الروائية ، فصرنا ، حينئذ ، نقرأ في هذه المطولات ، ضمناً ، تلك الكتب الصغيرة وما فيها من الأحاديث ، أو المقالات أو الحوارات ، والتي كانت منشأة في زمن ما بين الناس ، كأصول مستقلة في التأليف ، كما هو الحال مع حوارات وأحاديث هشام بن الحكم ، ومنها حديث التعريف بالمعبد ، سبحانه تعالى ، أو الحوار التاريخي الذي دار بين هشام وعمر بن عبيد شيخ المعتزلة في البصرة بشأن جعل منصب الامامة ، المقرر من قبل المولى تبارك وتعالى ، والغرض من جعل هذا المنصب الالهي للناس ، وكيف أنه وسيلة من وسائل الهدایة المستمرة للبشرية .

ففي أول كتاب الكافي ، يطالعنا حديث هشام بن الحكم عند التعريف باسم الجلالة : الله تبارك وتعالى ، كثاني حديث في باب التعريف بالمعبد ، جل وعلا ، وذلك لأهمية هذا الحديث في تصوّر الذات الالهية ، منزهة عن أي توصيف أو توهّم ، ومن ثم نفي التجسيم والتجمسي ، جاء في الكافي : علي بن ابراهيم عن أبيه ، عن النضر بن سويد عن هشام بن الحكم : أنه سأله أبو عبد الله عليه السلام ، عن أسماء الله واشتقاقها : الله مما هو مشتق ؟.

قال : فقال لي : ( يا هشام ، الله مشتق من إله ، والاله يقتضي مألوها ، والاسم غير المسمى ، فمن عبد الاسم دون المعنى ، فقد كفر ولم يعبد شيئاً )

ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر ، وعبد اثنين ، ومن عبد المعنى دون الاسم ، فذاك التوحيد ، أفهمت يا هشام ؟<sup>١</sup>

ومن مراجعة عديد المدونات المطولة في الحديث ، يتضح أن ما كتبه هشام من الأحاديث ، في مجال علم الكلام والاصول الاعتقادية ، والتصورات عن الذات الالهية ، قد أفرغ في هذه الموسوعات مثل موسوعة الشيخ الصدوق في التوحيد ، وغير ذلك من الجواجم الحديبية وكتب الرجال والتاريخ ، فهو وإن لم يصلنا منه مؤلف مستقل العنوان ، منسوب إليه ، إلا أن ما دونه من الأحاديث الشريفة عن الأئمة قد وصل إلينا قطعاً في ضمن المدونات الحديبية التي تعنى بالعقائد .

أما ما ينسب إليه من أقوال هنا وهناك ، في التجسيم كما هو الحال في كتاب : ( مقالات المسلمين ) ، للأشعري ، وظل يردد المستشرقون في الكتابات الحديثة والمعاصرة :

( وتمثل آراء هشام الكلامية فقهاً مادياً معارضًا للأراء الأكثر تشبيهية التي اعتقدها غيره من المتكلمين الأوائل ، هذه المادية تراوحت مع موقف جبري من الافعال البشرية )<sup>٢</sup>.

١ - ابو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازى ، الكافي ، الاصول ، ج ١ ، الحديث : ٢٣٦ ، ص ٢١٨ .

٢ - يونج ، ولاثام ، وسيرجنت ، الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠١٦ ، ص ٥٧ .

من الواضح أن هذه التصريحات والأقوال المنسوبة إلى تراث هشام الفكرى ، من القول بالتجسيم ، أو الاعتقاد بالجبرية ، هي إنما يراد بها صرف الأنظار عن تراث هذا الفكر الكبير ، من خلال نسبة معتقدات لا تمت للمنهج الفكرى لمدرسة أهل البيت ( عليهم السلام ) ، لا من قريب ولا من بعيد ، ومن ثم فهي إنما حقيقة، فلابد أن تعود لفترات سابقة ، على اتصاله بالإمام الصادق عليه السلام ، حيث كانت الساحة العلمية في العهد الاموى يصدق بها كل من هب ودب ، ولعله قد تأثر ببعضهم ، أو أن هذه الأقوال هي من الأكاذيب ، المنسوبة لهذا العلم الفكرى الكبير ، وما لا حقيقة لها ، رغم أنها تتردد في جميع الاطوار والاعصار ، وكذبها ليس بعيد ، فمن كذب على رسول الله ( صلى الله عليه واله ) ووضع الالاف من الاحاديث ، من المؤكد أنه لا يتورع عن نسبة الجبرية أو التجسيم والتشبيه لهشام في جميع اطواره الفكرية ، قبل اللقاء بالأئم و كذلك بعد اللقاء والدراسة الشريفة عند الامام المعصوم .

ومهما كان ، فالصياغة النهائية لمقولات علم الكلام الامامي ، إنما تسرد من خلال الاحاديث الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، والتي هي من نفائس الاحاديث في تراث جدهم الرسول الاعظم ، صاحب مقام الاسراء والمعراج ، وقد حفظت ، ودونت ، ونقلت اليانا في الكتب العقدية ، بفضل هؤلاء الاعلام .

#### رابعاً: علم العروض ، وجهود الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٤ هـ) :

القرآن الكريم الذي هو محور الدراسات الإسلامية ، وكان معجزة في الصياغة اللغوية ، والبلاغية ، وتشكيل الالحان من خلال جرس الكلمات التي تتناغم مع المحتوى ، كان هذا النص المقدس ينطوي على ايقاع هائل عند القراءة ، أو التجويد ، وضبط موسيقي في منسجم عند الاصغاء اليه في المجالس القرآنية التي يتلى فيها القرآن من أجل الثواب والأجر ، فهو يتطلب الالامام بمستويات من الاداء الصوتي والالحان ، الأمر الذي لفت الانتباه في وقت مبكر من تاريخ العلوم الإسلامية وتأسيسها إلى ضرورة النظر الصوتي والايقاعي في تخريج الكلام أو الشعر العربي وضبط الانقام التي يعتمدها في توزيع الفواصل والاجزاء في اللغة الشعرية .

لم يكن من السهل أن يظهر علم العروض <sup>١</sup> بشكل مبكر في الدراسات اللغوية عند العرب ، وذلك لما يتطلب البحث أو الدراسة في هذا الحقل ، من المقدمات الكثيرة ، ومن أهمها الالامام بالموسيقى وعلم الايقاع ، وعلاقة ذلك بعلوم اللغة : البلاغة ، و النحو ، وعلم الصرف ، وكذلك وجود الجامع بين

١ - العَرْوَضُ هو علم يعرف به صحيح أوزان الشعر العربي من فاسدتها وما يعتريها من الزحافات والعلل . استتبّط عالم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري الأزدي الذي ولد بعمان عام مائة للهجرة وانتقل إلى البصرة وتوفي عام أربعة وسبعين ومئة للهجرة في أوائل خلافة الرشيد، ويقال إنه أحدث أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب

هذه الأبعاد المختلفة من خلال تحسن البعد الموسيقي والايقاعي في استعمال اللغة من أجل التأثير في أسماع الآخرين وتحريك المشاعر والاحاسيس .

لكن تشاء القدر ، أن يظهر الخليل بن أحمد الفراهيدي <sup>١</sup> ، وهو من تتلمذ على يد أيوب السختياني ( ت ١٣١ هجري ) ، في البصرة ، وتقلب في عديد المعارف والثقافات والأفكار التي تفجرت في ذلك الوقت بسبب النهضة الفكرية التي احدثها الإمام الصادق عليه السلام ، وفي العراق خاصة ، حتى أنتهى به المطاف العقدي إلى مدرسة أئمة أهل البيت ، وفي مرحلة من مراحل نضجه الفكري ، ابتكر ما يعرف اليوم بعلم العروض ، أو علم الأوزان الشعرية والايقاع اللغوي ، يقول الجاحظ :

( وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد والأرجاز ، ألقاباً لم تكن تتعارف تلك الأعaries بتلك الالقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك ) <sup>٢</sup>.

١ - الخليل بن احمد ( ت ١٣١ هجري ) ، هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن نعيم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفاً بها. ودرس لدى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وهو أيضاً أستاذ سيبويه النحوي. ولد في عمان ومات في البصرة، وعاش فقيراً صابراً.

٢ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، مطبعة الاستقامة ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٤٧ ، ص ١٥٣.

لقد تناول الخليل من الشعر جانبه الايقاعي ، الجمجم بين اللفظ والموسيقى ، وعرف أن اللغة العربية لغة موسيقية ، ذات أنغام خاصة ، ساعدت على انتشار ظاهرة الشعر ، حتى قيل أن الشعر ديوان العرب ، وهكذا : ( لم يكن الخليل علماً وقف بحثه على ظواهر اللغة ، وصفها وتحليلها ، فحسب ، ولكنه كان ذوقاً ، درس اللغة دراسة فنية ، ووصل إلى ادراك الحس اللغوي عند العرب ).<sup>١</sup>

ويذهب صاحب طبقات النحوين واللغويين ، إلى أن ما أنجزه من الخليل بن أحمد الفراهيدي الابداع في مجال دراسة الايقاع الشعري واللغوي ، هو من الهم الموسيقيين واصحاب الانجان من بعده ، السبيل المنهجية إلى البحث والدراسة في الانقام والموسيقى عندما ذكر أبي الأسود في طليعة الطبقة الأولى من المؤسسين .<sup>٢</sup>

#### خامساً : علم المنطق ، وجهود ابن السكري (ت ٢٤٤) :

القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، والواقع والأحداث الكبرى التي تزامنت مع الدعوة للإسلام ، هي من كانت وراء الحركة الفكرية والثقافية التي

١ - مهدي المخزومي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، اعماله ومنهجه ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص : ١٨٥ .

٢ - أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، طبقات النحوين واللغويين ، دار المعارف ، مصر ، ص : ٢١ .

سادت العالم الإسلامي في القرن الأول ، وما ترتب عليها من الجدل والخوار والحجاج والصراعات الفكرية والكلامية والاقتتال في كثير من الأحيان ، والأخذ والرد على جميع المستويات الاجتماعية .

لقد طور المسلمون من قدراتهم في مجالات مثل : الجدل الكلامي والدفاع عن الآراء ، وأسلوب الحجاج والمناظرة ، وصناعة الخطابة من أجل اقناع الآخرين أو التأثير فيهم ، من أجل خلق الحواضن الاجتماعية التي لابد أن تلتف حول هذا النمط الجديد من الحكم والفكر والسلطة ، وقد فرض هذا التطور الجديد والتحولات الفكرية ضرورة الضبط والدقة في استعمال اللغة عند المناظرة أو الحجاج أو مخاطبة الجمهور في المناسبات الدينية بقصد الوعظ ، والارشاد ، والاقناع ، والتأثير :

( كذلك وضع المنطق في خدمة علم الكلام ، حيث كان الإسلام يفرض القيام بالوعظ في الجامع كل نهار الجمعة ، كما كان النبي يفعل ذلك في المدينة ، كانت هذه الموعظ تعبر من حق السلطة والخلفاء في العاصمة وولاة المقاطعات ).<sup>١</sup>

من يراجع كتاب اصلاح المنطق للشهيد ، أبي يعقوب يوسف بن اسحاق<sup>٢</sup> ، سيجد أن موضوع هذا الكتاب هو : اللغة ، وهو يسعى في هذا الجهد العلمي ،

١ - الكسندر ما كوفلسكي ، تاريخ علم المنطق ، ترجمة : نديم علاء الدين ، وابراهيم فتحي ، دار الفارابي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ ، ص : ٢٣٩ .

٢ - هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدروقي الأهوazi . إمام من أئمة اللغة العربية وعالم نحوى وأديب شهير ، من عظماء الشيعة وكتاب رجالاتها ، ويعُد من خواص

للمطالبة بتوخي الدقة في الاستعمال اللغوي ، يبتغي أن يعالج داءاً كان قد استشرى في لغة العرب المستعربة ، وهو داء الخطأ في الكلام عند استعمال اللغة وتداروها ، ومن هنا صار من الممكن ادراج هذا الكتاب في الموضوع العام لعلم المنطق وهو استعمال اللغة في أنماط التواصل اللغوي ، وذلك بلحاظ المنهج التداولي أي علم استعمال اللغة ، وهو منهج معاصر في دراسة الظواهر التداو利ّة يعتمد أسلوب الادماج للأبعاد اللغوية والمنطقية والبلاغية ، فيشير إلى:

( ثلاثة ميادين من الظواهر التي تبرز ضرورة تجاوز المنوال :  
شكل - معنى ، وال الحاجة إلى إدخال بعد التداولي ، وهو  
ظواهر تتصل بأداء القول ، والاستدلال ، والتعليمات )<sup>١</sup>.

وفي ضوء هذا المنظور التداولي ، يجري ادماج ظاهرة الاستدلال والقاء الحجج ، والجدال بمعناه العام ، الذي هو جزء من الصناعة المنطقية ، في علم استعمال اللغة ، فلا غرابة حينئذ ، أن يعالج ابن السكبي رحمة الله الآخطاء اللغوية في مجال الاستعمال ، والالقاء ، والإداء اللغوي في ضوء عنوان هو من حقل علم المنطق ، الصوري ، والشكلي ، طالما هو يندرج في إطار تصحيح الأخطاء وعصمة الذهن عن الخطأ في الاستدلال والحجاج والإداء الكلامي .

الإمامين محمد بن علي الجواد و علي بن محمد الهادي ( عليهما السلام ) ، وهو من علماء العراقيين .

١ - جاك موشرل ، آن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداوليّة ، ترجمة : مجموعة من الأساتذة ، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، ط ٢٠١٠ ، ص : ٢٤ .

فالغرض الجامع ، هو بناء التصورات الصحيحة في الذهن ، فإذا كان الغرض من المنطق هو صيانة الذهن عن الخطأ في التفكير ، فمن الضروري ، اعتماد اللغة الخالية من الأخطاء في جميع مراحل الاستعمال اللغوي وأنمطه من : إلقاء القول ، ومن الاستدلال ، ومن اعطاء التعليمات كما هو مقرر في برنامج علم استعمال اللغة المعاصر :

( هذا الكتاب قد أراد ابن السكيت به أن يعالج داء كان قد استشرى في لغة العرب والمستعربة ، وهو داء اللحن والخطأ في الكلام ، فعمد إلى أن يؤلف كتابه ويضممه أبواباً يمكن بها ضبط جمهرة من لغة العرب ، وذلك بذكر اللفاظ المتفقة في الوزن الواحد مع اختلاف المعنى ، أو المختلفة فيه مع اتفاق المعنى ، وما فيه لغتان أو أكثر ، وما يعلّم الصحيح ، وما يهمز وما لا يهمز ، وما يشدد وما تغليط فيه العامة )<sup>١</sup> .

وفي ضوء منهج التداولية ، يبدو من المستغرب ما ذكره البعض من استهجان نسبة أو اطلاق عنوان الكتاب إلى اصلاح المنطق<sup>٢</sup> ، فيما هو خال من الكلام عن الاقيسة المنطقية ، أو التعريف بالقضايا ، وأنماط الحمل أو صناعة البرهان ، فقد صار من الواضح اليوم ، عدم اختصاص التفكير المنطقي واستعمال اللغة ، واشكال الاستدلال ، وأنماط الحجاج والجدل والخوار والاستبatement والمناظرة

١ - ابن السكيت ، اصلاح المنطق ، تحقيق : محمد مرعب ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٢٠٢١ ، ص ٨ .

٢ - المصدر نفسه ، ص : ٧ .

، بعلم واحد وفهرسة محددة ، بل المهم هو رفع الكفاءة في الاداء ، وقياس درجة الجودة في الاستعمال ، والقدرة على التأثير :

( الواقع أن الاستدلال والحجاج يلتقيان ويتقاطعان في الفلسفة ، انتاجاً وتعليناً ، ضمن مدار واحد ، ومركز هذا المدار هو عرض الحقيقة العقلية – اللغطية ، عرضاً استدللاً متماسكاً ، توافقه اجراءات حجاجية معروضة في تناقض مع انجازات لسانية وبلاغية وتداوile وغيرها ) .<sup>١</sup>

وهذا التقاطع الجامع بين الحجاج ، والخطابة ، والتأثير البلاغي ، والذي تعمل التداوile ، على ابرازه في علم جديد ، هو متتحقق في كتاب : إصلاح المنطق ، والذي حظي بعناية عديد المفكرين والباحثين في الأزمنة اللاحقة لعصر ابن السكين ، فتعاهدوه بالشرح ، والتبويب ، والاقتباس ، وكان من المصادر المهمة في تطوير الصناعة المنطقية والاشغال بها ، حتى قال الخطيب في تاريخ بغداد :

( قال أبو سهل : سمعت البرد يقول : ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب يعقوب بن السكين في المنطق ) .<sup>٢</sup>

١ - حبيب اعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، يوليو ، ٢٠٠١ ص : ١٢٩ .

٢ - ابو بكر بن عبد المجيد المعروف بالخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، تحقيق بشار عواد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١ ، ص : ٣٤٣ .

### **سادساً : علم النص ، وجهود السيد الشريف الرضي (ت: ٦٠٤ هجري) :**

ذكرنا أكثر من مرة في هذا البحث ، أن نظرية المعرفة الإسلامية قد استندت إلى مرجعية القرآن الكريم ، والحديث الشريف في تأسيسها والبحث في الموضوعات سواء في المجالات الطبيعية أو الحقول المعرفية الإنسانية وغير ذلك ، إنما يجري في ضوء مرجعية النص ، مما منح النص أهمية استثنائية في المخيال العلمي والمعرفي .

من هنا صار النص القرآني نفسه محوراً وموضوعاً للبحث والتدقيق من أجل الغايات الكثيرة المرتبطة به ، أي معرفة مكونات هذا النص ، وطريقة عرضه للموضوعات والبناء الفنوي ، وأنماط الترابط أو التكثيف والدلالي ، ولاسيما في مجال بناء الرؤية الكونية ، واعطاء التصورات عن هذا العالم ، أو الوجود ، وعن خالق هذا الوجود ، وما يمكن أن تتتصف به هذه الذات المقدسة من الصفات ، ومن هنا تداخلت المسائل اللغوية مع القضايا العلمية والوجودية ، وصار من الصعب التعبير عن الواقع في حدود اللغة البشرية المتاحة ، من جعل من النص القرآني ذاته مفعم بالبلاغة ، وبالتعابير المجازية الفنية .

تشكل الخواص التركيبية والدلالية والتواصلية في النص القرآني ، أركان أساسية ، وأعمدة مقومة في صناعة النص ، وبالتالي فهي مدار البحث في علم النص ، ونتيجة سعة هذه المدارات ، وتدخلها ، ولاسيما مع المعرف الأخرى ، توسع هذا العلم بشكل يصعب السيطرة عليه ، لكثرة المفاهيم ، والاتجاهات: البنوية، والوظيفية، والتاريخية، الجدلية، والتفكيكية، والنماذج المفسرة لعمل واشتغال النصوص على المستويات: الدلالية والتركيبية والتداولية بالمعنى

الواسع لمفهوم التداولية ونماذج الاتصال السائدة في المجتمعات، وصناعة الرموز والنماذج التي تؤمن التواصل بين الأجيال والحضارات.

يمكن اليوم القول ، وبقوة ، أن ما قام به السيد الشريف الرضي (ت: ٤٠٦ هجري )<sup>١</sup> ، من استحضار للنص القرآني ، والنص في الحديث النبوى ، عبر كتابة : (تلخيص البيان في مجازات القرآن) ، وكتاب : (المجازات النبوية) ، هو خطوة غير مسبوقة في البحث والتأسيس لعلم النص ، الذي يتخطى دائرة الحصر البلاغي ، والتركيب الفنية في البيان والبديع ، إلى دائرة أوسع في النص تشمل :

(المظان البينية واللغوية والتفسيرية ، بمعنى يقابل الحقيقة ، وإن اشتمل على جملة من أنواع البيان ، أو قصدت به الاستعارة ، باعتبارها تقابل الحقيقة ، لأنها استعمال مجازي).<sup>٢</sup>.  
وليس هذا بالغريب أو المتعذر أن يكون أبو الحسن الشريف الرضي (ت: ٤٠٦ هجري ) ، فهو العالم الموسوعي بالنصوص عامة في ذلك الزمان ، والنصوص المقدسة من القرآن الكريم ، ونصوص الحديث الشريف ، أو نصوص نهج البلاغة خاصة ، وقد كان من المتضلعين في دراسة المحتوى والوقوف على المعاني السامية في هذه النصوص :

١ - ولد السيف الشريف المرتضى في رجب سنة ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م في بغداد، وتوفي بها في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة ٤٣٦ هـ - ١٠٤٤ م، وسنّه يومئذ ثمانون سنة ، فهو من العلماء الشيعة العراقيين .

٢ - محمد حسين علي الصغير، مجاز القرآن، خصائصه الفنية وبلاغته العربية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٤م، ص: ٢١ .

( فقد كان ضليعاً ببلاغة العرب ، وعلوم القرآن ، واللغة ، والشعر ، والنشر ، وحسن اختياره لطائفة هائلة من خطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ، وتسميته لذلك بنهج البلاغة ، وتعليقاته وشرحه ووقفاته ولمساته البلاغية عليه ، دليل رriadته الأولى في الفن البلاغي وترسه الاستقرائي لأبعاده المختلفة ) .

ما قدمه الشريف ، في تلخيص البيان في مجازات القرآن ، لم يكن كتاباً متخصصاً في التراكيب البلاغية ، أو نماذج من الشواهد القرآنية في الاستعارة والتشبيه والكتابية أو أنماط البديع ، حتى نقول أن هذا الجهد يقع في حدود العلوم البلاغية ، بل هو تعامل مع نص متكامل ، وبناء كلي مترابط ، في الوحدة الموضوعية والوحدة اللغوية والوحدة العضوية والوحدة اليقاعية ، وهذا هو موضوع علم النص ، في أحد أهم التجليات وهي أنه خطاب كلي ، مترابط الأجزاء :

( لكل خطاب بنية كلية ترتبط بها أجزاء الخطاب و القارئ يصل الى هذه البنية الكلية عبر عمليات متنوعة تشتهر كلها في سمة الاختزال ، على أن البنية الكلية ليس شيئاً، معطى ، حتى وإن كانت هناك بنيات متنوعة أو مؤشرات على وجود

هذه البنية، وإنما هي مفهوم مجرد حدسي، به تتجلّى كلية الخطاب ووحدته<sup>١</sup>.

من هنا كانت طريقة الشريف في التعامل مع البناء في النص القرآني تنطلق ليس من محددات العناصر أو التراكيب البلاغية ، فحسب ، بل ايضاً على أساس الكشف والإبداع والتبادر الذهني وذلك من خلال قدرته الموسوعية ، وعمقه البلاغي ، ومخزونه الثقافي المستفيض في المعارف الإسلامية .

وعندما أراد بعض المعاصرين ، مقارنة الشريف بالسابقين عليه ، مثل أبي عبيدة ، وأبن قتيبة ، في القدرات على تحليل محتوى النص ، والأداء الأدبي ، والذائقـة الفنية ، قال :

( كان أغزر الثلاثة بياناً ، وأفصحهم لساناً ، وأبلغهم في التعبير عن مرامي القرآن ، بعبارة أدبية ، مشرقة ، ناصعة ، يتضح فيها ذوق الأديب ، ورقة الشاعر ، وحسن البلبل ، أكثر مما يتضح فيها فقه اللغة ، وعلم النحو )<sup>٢</sup>.

---

١ - حياة مختار ام السعد: تداولية الخطاب الروائي، من انسجام الملفوظ الى انسجام التلفظ، دار كنوز للمعرفة، عمان، الاردن، ط١، ٢٠١٥ م، ص ٢٦.

٢ - محمد عبد الغني حسن ، مقدمة تلخيص البيان ، دار احياء الكتب العلمية ، القاهرة ، ط١، ١٩٥٥ ، ص : ٤٨ .

**نتيجة البحث :**

خلص من خلال ما تقدم ، إلى :

أولاً : أهمية الفهم الترابطى للتأسيس الفكرى والعلمي في حركة نشأة العلوم في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، وأن هذا الترابط حقيقة موضوعية نتيجة وحدة البيئة العلمية واهتماماتها ، ووحدة الحقل العلمي وتقرب مكوناته ، ووحدة المصدر المعرفي .

وثانياً : كذلك ضرورة اعتماد محورية النص القرآني ، وما رافقه من الأحاديث الشريفة وتوجيهات الأئمة عليهم السلام ، والتي تستهدف بيان مكونات هذا النص ، حيث استلهم منها العلماء والاصحاب ، مناهج الاشتغال على هذه العلوم وتطورها .

كان ذلك من أجل مزيد من بث الروح الإنسانية في المجتمع الإسلامي ، وتنقيف هذا المجتمع والنهوض به في طريق الطاعة لله تبارك وتعالى والتكامل في الحياة النظرية والعملية .

ثالثاً : امكانية اعادة قراءة هذه التأسيسات في ضوء نظرة ما بعد حداثية ، لا تكرر ما ذكره الاخرون من اسقاطات جاهزة ، وتسميات على هذه التأسيسات القديمة ، فالاعمال الفكرية لابي الأسود الدؤلي يمكن إدراجها في علم اللغة ، ولا ينبغي حصرها في التأسيس النحوي ، ، والعمل المبتكر للخليل الفراهيدي ، كان في اطار الایقاع الفني في اللغة والتأسيس الموسيقي ، وهو أوسع من اختزاله في استقراء العروض ، وكذا الاعمال الفكرية للشريف المرتضى هي من الاشتغال على علم النص وليس بالضرورة حصرها في علم البلاغة ، ولا

تستهدف هذه الاعادة في القراءة الغاء التصورات السابقة ، بقدر ما هي تعزيز لها من جهة ، وفتح آفاق أخرى للفهم من ناحية ثانية . وبهذا يتم البحث والحمد لله رب العالمين .

### **ملخص البحث :**

تضمن هذا البحث بعد المقدمة ، مبحثين ، وكان البحث الأول : في التعريف بالبيئة العراقية ، وكيف كانت بيئه مواتية للعلماء الشيعة ، من الناحية الفكرية والاقتصادية والاستقرار ، في تأسيس العلوم وتطورها وفي الإفاده من هذه العلوم في الحياة العملية ، وتحقيق النهضة الحضارية التي أسهمت في دفع مجمل المنظومة الإنسانية إلى الأمام . فيما تضمن المبحث الثاني : التعريف بعديد الرواد الأوائل من علماء الشيعة العراقيين ، والعلوم التي تأسست على أيديهم مثل علوم : اللغة ، وعلم غريب القرآن ، وعلم العروض ، وعلم الكلام ، وعلم النطق ، وعلم النص .

### **الكلمات المفتاحية :**

١- الغريب في اللغة : هو الكلام الغامض ، وغير واضح المعنى ، وقليل الاستعمال .

٢- التداولية : أو التداوليات في المجال اللغوي أو علم المقامية أو الذرائع (بالإنجليزية: Pragmatics) علم من اللسانيات يهتم بتفسير الفرق والفجوة بين معاني كلمات الكلام الإنساني ومعانى مقصود المتكلم. يعامل الذرائع

السياق والمعاني في كلام الذي غير متناول باستعمال علم المعاني—أي، البلاغة العربية. يدرس هذا الفرع مختلف المحددات التي تتعلق بالتداول اللغوي .

٣- علم اللغة : هو علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي، وعما حصل من تركيب كل جوهر وهيئاتها من حيث الوضع والدلالة على المعاني الجزئية. وغايتها: الاحتراز عن الخطأ في فهم المعاني الوضعية، والوقوف على ما يفهم من كلمات العرب.

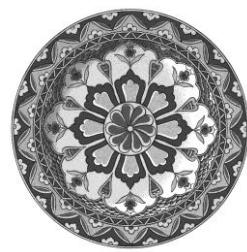
٤- علم الكلام : ويعرف أيضا باسم علم التوحيد، وعلم أصول الدين، وعلم الفقه الأكبر، وعلم الإيمان، وعلم الأسماء والصفات، وعلم أصول السنة، أحد أبرز العلوم الإسلامية الذي يهتم ببحث العقائد الإسلامية وإثبات صحتها والدفاع عنها بالأدلة العقلية والنقلية .

٥- علم الجدل والمناظرة : وهو الحوار في التراث الإسلامي ، حيث يزخر تراث العرب بالحوارات الفكرية الثرية التي كان منبعها ترشيد الصراع الفكري والمذهبي والخليولة دون تحوله إلى صراع عنيف، كان العرب يهدفون من حواراتهم إلى الانتصار للحق، وهو هدف مختلف تماماً عن الجدل اليوناني الذي يقوم على الانتصار للرأي صائباً أم خطأ.

## **الدراسة الثانية :**

**الإِنْسَانُ قِيمَةٌ عَلَيْهِ فِي فَكِيرِ الْإِمَامِ عَلَيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)**  
**(بناء الفاعلية الفردية والمجتمعية وتحسين شروط الحضور الحضاري)**

- مقدمة .
- التفكير بالإنسان .
- القيمة والاهتمام بالإنسان .
- نحو وعي اجتماعي فاعل .
- نقد قصور الفاعلية في الوعي (حالة الغياب) :
- نحو فعل تاريجي واعي .



(قيمة كُلّ امْرٍءٍ مَا يُحِسِّنُه)

الإمام علي (عليه السلام)

### المقدمة :

جاء إعداد هذا البحث والموسوم : (الإنسان قيمة عليا في فكر الإمام علي (عليه السلام) ) تلبية لدعوة الأخوة في كلية الآداب / جامعة الكوفة للمشاركة في مؤتمرهم التأريخي عن مولانا الإمام علي (عليه السلام) ، وذلك بمناسبة مرور الف وأربعينأئمة عام على استشهاده في محراب مسجد الكوفة المعظم علي يد أهل النفاق والغدر والخيانة ، وهو يكشف عن عمق اهتمام الإمام بالإنسان كقيمة عليا في هذا الوجود .

ولا ريب أن الجهد الرامي إلى التفكير بالإنسان والنظر في معنى الوجود الإنساني ، وعلاقة هذا الوجود المحدود بالوجود الكلي وبالطبيعة والكون من حوله ، قدية بقدم الوجود الإنساني ، وتطور الوعي عنده ، حيث تسؤالات الإنسان قائمة عن سبب وجود الإنسان في هذا العالم ، وعن قيمة هذا الوجود ومعناه وأهدافه ، وعن علاقته بمن أوجده وحدودها ، وما هي إمكانية التعرف على الوجود الكلي أو الوجود الالهي ؟ ، ومن ثم التساؤل عن إمكانية التعرف على المصير النهائي لهذا الوجود ، الأمر الذي دفع بالإنسانية إلى توظيف رواد الوعي جمِيعاً واستثمارها من أجل حل هذه الألغاز الكبرى في الحياة البشرية .

ومع معارف الأديان ، ولاسيما الدين الإسلامي ، و المعارف القرآن الكريم ، حققت الإنسانية مكتسباً كبيراً في تنوير الوعي البشري بالإجابة عن هذه التساؤلات الكبرى وتطور القوانين الساعية إلى الحفاظ على الكرامة الإنسانية ، ومن ثم فقد أسهمت هذه المعرفة في رفع مستوى الوعي الإنساني في البيئة العربية في فترة النزول ، وعملت على تحسين شروط نمو هذا الوعي وتطوره في المستويات كافة ، و إعادة بناء قدرته الفردية والمجتمعية على انجاز الفعل التاريخي وتحفيز العمل الجماعي ، ومن ثم الإسهام في تحسين شروط محمل الوجود الإنساني وبذورة كفاءته على تحسين الواقع ورفع مستوى الأداء الثقافي والإنجاز الحضاري بما يتحقق فعلاً مفهوم الكرامة الإنسانية وهي تعبر دقيق عن قيمة الإنسان ، الأمر الذي سرى فيما بعد في جميع ارجاء المعمرة واسهم في نهضتها حتى يومنا هذا .

ومن المؤكد أن المسلمين من أصحاب النبي الأكرم (ص) ، لم يكونوا على و蒂ة واحدة ، أو أمكانية متقاربة في الإفادة من معطيات الرسالة الإسلامية ومضمون القرآن الكريم ، وذلك بسبب طبيعة الاختلاف في الاستعداد الفطري والروحي ، وكذلك بسبب التفاوت فيقرب من النبي الأعظم ﷺ ودرجة الاستلهام ، ومن ثم صار ذلك سبباً في تفاوت المساهمة ، أو القدرة على تغطية مطالب الإسلام كافة ، من بعد رحيل الرسول الكريم ، ولاسيما في مجال العمل على نقد قصور الفاعلية أو تحسين شروط الوعي عند المسلمين في المحافظة على كرامات بعضهم البعض ، ودرجة فهمهم للحياة ، وطبيعة الكون ، والعلاقة الغيبية والروحية مع الله تعالى ، ومن ثم تحسين قدرتهم على

المساهمة الحضارية ، الأمر الذي كان في حينها يشكل المهمة القادمة للإنسان المسلم في هداية البشرية في هذا العالم الكبير من حول جزيرة العرب .

وهنا يبرز الدور الريادي لمولانا الإمام علي (عليه السلام) ، في الاستمرار من بعد رحيل الرسول الكريم في إداء هذه المهمة في حفظ قيمة الإنسان والاعتزاز بالكرامة الإنسانية ، مهمة الامامة التي تستمر في الحفاظ على الاسلام وتقديمه للناس بلا زيادة أو نقصان ، وتفكيك تراكمات الجاهلية وأشكال غياب الوعي فيها ، وذلك من موقع القيادة ، القادرة على النقد والتحسين ، ولها القدرة الواضحة والجلية على تغطية مضمون الإسلام العميق وبجميع تفصياته ، ومحتوى سردیات القرآن الكريم عن الوجود وأسرار التكوين ، وكذلك في مجالات العقيدة والأخلاق والتشريع والتاريخ والعلوم واللغة ، وبما يؤمن بالارتقاء بالإنسان المسلم في جدلیات تطور الوعي ، كمياً ونوعياً ، كقيمة عليا في هذا الوجود .

وسواء جاء هذا النقد للفاعلية وتحسين شروط الوعي ، على مستوى البناء الفردي الداخلي والتفاعل مع الذات وارتباطها الروحي بقيم بالله تعالى ، أم على مستوى الأداء الاجتماعي ، والتفاعل مع الجماعة في ضوء قيم السماء والعقل ، أم على مستوى الأداء الحضاري ، وصناعة التاريخ والدور العربي والاسلامي في تقديم الاسلام للعالم ، فقصة اهتمام الامام علي عليه السلام ببناء الإنسان وانصاج وعيه والحفظ على كرامته ، قد تمثلت هذه المستويات جمیعاً ، الفردية والاجتماعية والحضارية ، وهي بلا ريب سردية كبيرة في

مجال بناء الوعي ومنح الهوية ، إنها قصة مفعمة بالعلاقات الحيوية مع المحيط ، ثرية جداً بالمعطيات التاريخية والواقف ، وبالكلمات والنصوص الخالدة ، وطرائق الحاج والتفكير والاستنباط المبتكرة ، والتطبيق المنهجي لمقاصد الشريعة ، كاشفة عن قيمة الإنسان في هذا الوجود .

### **التفكير بالإنسان :**

يعتقد كل انسان من بني البشر ، أنه مركز هذا الكون أو الوجود ، وذلك بحكم مركزية الوعي الحسي لديه ، ومحورية تصوراته عما حوله من الموجودات والناس ، حيث تنهل هذه التصورات من الروافد الحسية التي يتمتع بها في تكوينه الجسدي ، ومن ثم تكتسبه هذا الشعور والاحساس بالموقع المحوري والرئيس ، الذي تدور من حوله الأشياء والواقع وهو يتأملها ويلاحظها ، ومن ثم يحاول أن يفهمها ، يضع الأسماء والمفاهيم والصفات ، و التفسيرات والنظريات والشروحات والرموز ، التي تساعده على التواصل مع الآخرين في فهم هذا الوجود الكبير والمترامي الأطراف ، وادراك هذه الأجزاء الطبيعية للكون من حوله والمشاعر والمعاني والاحاسيس والقيم في داخله ، التي يشارك بها مع من حوله من أبناء البشر ، فتشكل هذه التصورات الذاتية والأحساس والمشاعر والقيم والمصالح المتبادلة بين الفرد والجماعة سبباً للتوافق تارة والانسجام والتكييف ، وأخرى تكون سبباً للاختلاف وللصراع وال الحرب والاقتتال ، ومن هذا التوافق والانسجام ، ومن ذاك الاختلاف والصراع ، في الوعي الفردي والجماعي ، تتشكل حياة الفرد بأفراحها

واحزانها ، كما تتشكل حياة الجماعة المترابطة في الوجود والمصير ، بتقدمها وتخلفها ، كما تقوم الدول والحضارات أو تتلاشى في اطوارها وادوارها .

ومن هذا العرض تتضح أهمية الوعي الأولي الحسي عند الإنسان وارتباط هذا الوعي بالواقع ، ومن ثم يأتي التدرج من هذا الوعي والانتقال إلى المشاعر والاحسیس والاستنتاجات والاستقراءات وإلى درجات التفكير العالية التي تترتب على هذه المركزية والمحورية للوعي الإنساني ، ولا ريب أنه في عصر الجاهلية ، واحكامها وأخلاقياتها ، وثقافتها ، قد تراكمت في هذا الوعي أنماط من الاحقاد والزيف والأكاذيب والاساطير ، بما يكفي لنصف قيمة الإنسان ، وهدر كرامته .

ومن يراجع كلمات الإمام والخطب والرسائل والوصايا التي استهدفت تربية الوعي الفردي لدى الأفراد ، سواء من خلال النقد والتفكير ، أم من خلال البناء والتأسيس ، تتضح له أهمية هذا التأمل الأولي الحسي عند الكائن البشري ، والذي يفترض أن يقوده إلى أعلى مراتب الكمال في الوجود من خلال الانتقال السليم في الاستقراء والاستدلال والاستنتاج من معرفة ما حوله من الموجودات الحسية والتفكير بها إلى إدراك ما هو خفي عن العين الناظرة وحاضر لدى البصيرة النافذة :

(ولَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ ، لِدِقَّقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ ،

والتَّقْلِيلُ والْخَفِيفُ ، وَالْقَوِيُّ وَالْمُضَعِّفُ ، فِي خَلْقِهِ إِلَى سَوَاءٍ .  
وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ ، وَالرِّبَاحُ وَالْمَاءُ . فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ  
وَالْقَمَرِ ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ ، وَالْخَلْفَ هَذَا  
اللَّيْلُ وَالنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرُ هَذِهِ الْبِحَارِ ، وَكُثْرَةُ هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَطُولُ  
هَذِهِ الْقَلَالِ ، وَتَفَرُّقُ هَذِهِ الْلُّغَاتِ ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ .  
فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقْدَرَ ، وَأَنْكَرَ الْمُدْبَرَ ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ  
كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارَعٌ ، وَلَا لَاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ ، وَلَمْ  
يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادْعَوا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أُوْعَدُوا ، وَهَلْ  
يَكُونُ بَنَاءً مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أَوْ جِنَاحًا مِنْ غَيْرِ جَانٍ ! ) ١ .

لقد شخص لنا الإمام بكلماته أن الإنسان هو المقصود الأول والمستهدف عند التفكير بال موجودات في هذا العالم ، فعلى هذا المخلوق المحدود والصغير والضعف في الظاهر ، مدار بناء هذا الكون الفسيح والرحيب بلا حدود ، وال الموجودات المسخرة فيه للإنسان ، وكيف لا ؟ ، وهو من تقبل العهد أمام الله تعالى ، في أن يتحمل الأمانة في هذا الكون دون الآخرين من العقلاء ، حيث أمتنعت الموجودات الأخرى عن تحملها ، وهذا مؤشر مهم على مركزية هذا الكائن و احساسه من أنه المحور في تصور ما حوله من الموجودات :

( ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةَ ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَبْيَنَةِ ، وَالْأَرْضِينَ الْمَدْحُوَةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ

١ - نهج البلاغة ، الجزء الثاني ، ص : ١١٧ ، طبعة ١ ، سورية ، دمشق .

المنصوبة؛ فلا أطول ولا أعرض، ولا أعلى ولا أعظم منها، ولو  
امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنع، ولكن أشفقن  
من العقوبة، وعقلن ما جهل من هو أضعف منه، وهو الإنسان،  
إنه كان ظلوماً جهولاً<sup>1)</sup>.

وهكذا يتضح الترابط الجذري بين موقع مركبة الامانة في الوجود ، وإمكانية الارقاء بالوعي عند الكائن الإنساني من الوعي الحسي بما حوله ثم التحول الكبير نحو المشاعر والاحسیس والعواطف وصولاً إلى درجات التفكير العالية التي لا تيسّر للموجودات الأخرى ، من البحث والاستنتاج ووضع المفاهيم والنظريات وابداع النماذج والتركيب والنظمومات التي تيسّر العيش الكريم ، وذلك تجنباً للوقوع في براثن الجهل والتخلّف المادي والمعنوي ، الذي من شأنه أن يهدّر الكرامة الإنسانية ويفرغ الوجود من محتواه الحق وهذا ما حذر منه الإمام :

( ثُمَّ مَنْهَهُ قُلْبًا حَافِظًا، وَلِسَانًا لَافِظًا، وَبَصَرًا لَاحْظَا، لِيَفْهَمَ  
مُعْتَبِرًا، وَيَقْصِرُ مَزْدَجْرًا؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَأَسْتَوَى مِثَالُهُ،  
نَفَرَ مُسْتَكْبِرًا، وَخَبَطَ سَادِرًا، مَاتَحًا فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادَحًا  
سَعِيًّا لِدُنْيَا، فِي لَذَّاتِ طَرَبَهُ، وَبَدْوَاتِ أَرْبَهُ؛ لَا يَحْتَسِبُ رِزْيَةً،

وَلَا يَخْشَعُ تَقْيَةً ؛ فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيرًا ، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ  
أُسِيرًا ، لَمْ يُفْدِ عَوْضًا ، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضًا) .

### القيمة والاهتمام بالإنسان (بناء الوعي الفردي) :

طبيعة الاهتمام عند الإنسان هي كاشف كبير عن حدود الوعي ، والعلاقة بين القيمة والاهتمام بالقضايا والأشياء والواقع والنصوص وال الموجودات من حول الإنسان عامة ، علاقة جذرية ومتبدلة ، الاهتمام الإنساني يمثل كاشف كبير عن حدود القيمة في الأشياء والكائنات ، فعادة لا أحد يغير الأمور التافه اهتماماً ، مثلما أن القيمة الكبيرة للشيء تستدعي المزيد من الاهتمام والعناء بذلك الشيء ، وكذلك جعله من المقصود التي يسعى الإنسان للحفاظ عليها وينع الآخرين من التجاوز عليها ، إذ من الواضح أن لا أحد يتقبل العبث بال المقدسات في أعرافه ، أو الأعراض أو هدر الكرامات الإنسانية ، لما يحسه الجميع من أهمية هذه الموارد في الوجود .

من هنا يعكس لنا حجم التفكير بالإنسان وقضاياهم في كلام الإمام علي وحضوره الدائم في نصوص نهج البلاغة أو في غيره من المدونات الإسلامية ، كمخاطب أساسي ونوعي ، ومحط اهتمام استثنائي وعناء زائدة ، يكشف هذا الاهتمام الأصيل عن القيمة الكبيرة والمودعة في هذا الموجود الاجتماعي ،

والإمام (عليه السلام) يسعى بكل قوة من أجل تحسين شروط الوعي عنده ، إذ أن الوعي ومستوياته عند الإنسان ، هو الأساس في تحديد هذه القيمة ، والإنسان من خلال الوعي والاهتمام وتشخيص الأولويات وادراك المصالح والمفاسد في الأمور ، ومعرفة الجدوى من هذا الاهتمام ، هو من يمنح الأشياء القيمة في نفسها .

ومن هنا كان الإمام يسعى ، وبكل جدية من أجل الوقوف بوجه العوامل التي تعمل على التقليل من قيمة الإنسان ، وتحط من هذه القيمة ، وذلك عندما يهتم الإنسان المعنى بما هو غير مهم أصلاً ، أو بما هو من الشر ، أي بما لا قيمة له ، سواء من حطام الدنيا ، أم اللذات الآنية ، عديمة الجدوى ، ومن ثم يهمل الأشياء ذات القيمة الكبرى ، التي من شأنها أن ترفع من كرامته وتعززها

:

(مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلَّةُ  
حَدِّهِ، وَنَضِيَضُ وَفْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ بِسَيِّفِهِ، وَالْمُعْلَنُ بِشَرِّهِ،  
وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحَطَامِ  
يَتَهِزِّهُ، أَوْ مَقْنِبَ، يَقُودُهُ، أَوْ مَنْبِرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمُتَجَرُ أَنْ تَرَى  
الْدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَّاً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوْضًا!) <sup>١</sup> .

كان الإمام (عليه السلام) يعمل ومن خلال التواصل الدائم مع الآخرين على رصد مصادر وروافد التخريب والأمراض المزمنة التي يتعرض لها هذا

الوعي ، وحالات الخراب التي تنتابه في وظائفه الكبرى فتفسد هذه الوظائف ، ومن هذه الوظائف : الملاحظ والفهم والتفكير والربط ، فتعمل على تشويه المشاعر والأحاسيس النبيلة التي تقتضيها الفطرة السليمة ، ومن ثم تعمل على تزييف الوعي ، فيسقط التفكير والفهم والاستنتاج في المغالطات ، ومن ثم تعمل هذه الفوضى على تحجيم قدرات الإنسان على التكامل والارتقاء ومتابعة العمل بالمقاصد أو القدرة على وضع الاهداف ومتابعة تنفيذها ، وبذلك يسقط في دائرة انعدام القيمة في هذا الوجود ، بل يصبح لا يفهم للكراهة الإنسانية من محتوى :

(لَا تَكُنْ مِّنْ يَرْجُوُ الْآخِرَةَ بِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَيَرْجِي التَّوْبَةَ  
بِطُولِ الْأَمْلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا  
بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبُعْ، وَإِنْ مُنْعَنِّهَا لَمْ  
يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ، وَيَتَغَيِّرُ الزِّيَادَةُ فِيمَا بَقِيَ،  
يَنْهَى وَلَا يَتَهَى، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي، يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا  
يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيَغْضِبُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ  
لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيَقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتُ لَهُ، إِنْ سَقَمَ ظَلَّ  
نَادِمًا، وَإِنْ صَحَّ أَمْنَ لَاهِيَا، يُعْجِبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عَوْفِيَ، وَيَقْنَطُ  
إِذَا ابْتَلِيَ، إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءً دَعَا مُضْطَرًا، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءً أَعْرَضَ  
مُغْتَرًا، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظْنُ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيقِنُ،  
يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنِي مِنْ ذَنْبِهِ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ  
عَمَلِهِ، إِنْ اسْتَغْنَى بِطَرِ وَفْتَنَ، وَإِنْ افْتَرَ قَنْطَ وَوَهَنَ ، يُقْصِرُ

إِذَا عَمِلَ، وَيَبْلُغُ إِذَا سَأَلَ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةً أَسْلَفَ  
 الْمَعْصِيَةَ وَسَوْفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَثَهُ مَحْتَةً افْرَجَ عَنْ شَرَائِطِ  
 الْمَلَةَ، يَصِفُّ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ، وَيَبْلُغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا  
 يَتَعَظُ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدَلٌّ، وَمِنَ الْعَمَلِ مُقْلٌ، يُنَافِسُ فِيمَا  
 يَفْنِي، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَيْقَنُ، يَرَى الْغُنْمَ مَغْرِماً، وَالْغُرْمَ مَغْنِماً،  
 يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَا يُيَادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا  
 يَسْتَقْلُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُهُ مِنْ  
 طَاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاغِيٌّ، وَلَنْفَسِهِ مُدَاهِنٌ، اللَّهُو  
 مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ، يَحْكُمُ عَلَى  
 غَيْرِهِ لَنْفَسِهِ وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ، يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيَغْوِي نَفْسَهُ،  
 فَهُوَ يُطَاعُ وَيُعَصَّي، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوْفَيِّ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي  
 غَيْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ.<sup>١</sup>

من أسباب بناء الوعي دراسة القرآن الكريم ، ومع هذا الوعي يرتقي الإنسان في سلم الوجود ، فالاهتمام بالقرآن الكريم ، قيمة علمية كبرى ، ومعرفة الجدوى الكامنة في هذا الكتاب ، معبر كبير عن قيمة الوعي عند الإنسان الذي يهتم بالقرآن ، وبهذا الوعي تفتح له مدارج الكرامات وسبل الارتقاء الذهني من الحسي إلى المعاني الكبرى التي تمنح الإنسان قيمته الحقيقة ، إن تفتح الوعي الإنساني على القرآن هو افتتاح على القيم الكبرى في هذا الوجود ،

وعلى جميع المستويات الفكرية والمعرفية والجمالية ، الأمر الذي يرفع من قيمة الذات الإنسانية بعد هندستها في ضوء المحتوى العلمي والأدبي لهذا الكتاب الشريف ، ومنه ينطلق لتأكيد فاعليته الفردية والجماعية والحضارية ، أي من الجدوى لوجوده الفردي ، وكذلك في الجماعة والقدرة على تحقيق المنجز الحضاري :

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسَرَاجًا لَا يَخْبُو تَوْقِدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْدُهُ، وَمَنْهَا جَأَ لَا يُضْلِلُ نَهْجَهُ،  
وَشَعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْءَهُ، وَفَرْقَانًا لَا يُخْمِدُ بَرْهَانَهُ، وَتَبَيَّنًا لَا تُهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشَفَاءً لَا تُخْشِى أَسْقَامَهُ، وَعِزًا لَا تُهْزَمُ  
أَنْصَارُهُ، وَحَقًا لَا تُخْذِلُ أَعْوَانَهُ، فَهُوَ مَعْدُنُ الْإِيمَانِ  
وَبِحِجْوَتِهِ، وَبِنَابِيعِ الْعِلْمِ وَبِحُورِهِ، وَرِيَاضِ الْعَدْلِ وَغُدْرَانِهِ  
، وَأَثَافِيِّ الْإِسْلَامِ وَبَنِيَانِهِ، وَأَوْدِيَةِ الْحَقِّ وَغَيْطَانِهِ . وَبَحْرًا لَا  
يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعَيْنًا لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لَا  
يَغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لَا يُضْلِلُ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ،  
وَأَعْلَامُ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَأَكَامُ لَا يَجُوزُ عَنْهَا  
الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللَّهُ رِيَانًا لِعَطْشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ  
الْفَقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ لَطْرُقِ الْصُّلْحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءً،  
وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عَرْوَتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا  
ذِرْوَتُهُ، وَعِزًا لِمَنْ تَوَلَّهُ، وَسَلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهَدِيَ لِمَنْ اتَّهَمَ  
بِهِ، وَعَذْرًا لِمَنْ اتَّهَلَهُ، وَبَرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ

خَاصِّمْ بِهِ، وَفَلَجَا لِمَنْ حَاجَ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً  
لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَاحَةً لِمَنْ اسْتَلَمَ، وَعَلِمَا لِمَنْ  
وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى.)<sup>١</sup>.

وفي المقابل يجعل الإمام من اهمال القرآن الكريم ، وأهل القرآن من العارفين بأسرار هذا الكتاب ، وقدرته على التغيير نحو الأفضل ، وهم رافدان كبيران من رواد تغذية الروح الإنسانية وبناء الوعي ، يجعل من هذا الإهمال هو مؤشر على المرض الذاتي ، وتدني القيمة في هذا الوعي ، الوعي الذاتي يترجم عادة إلى سلوكيات ، ومظاهر من الاهتمام والاحتفاء ، ومع الاهتمام يتضح انعدام الوعي أصلًا :

( فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتْهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتْهُ؛ فَالْكِتَابُ  
يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ مَنْفَيَا طَرِيدَانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحَبَانِ فِي  
طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوِيٌّ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ  
الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لَأَنَّ  
الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنْ اجْتَمَعَا، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ  
عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ  
وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَقِنْ عَنْهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ،  
وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبَرَهُ، وَمِنْ قَبْلِ مَا مَثَلُوا

**بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيْةً،  
وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ الْعُقوْبَةَ السَّيِّئَةَ.)<sup>١</sup>**

لا يمكن تحقيق الاهتمام والعناية الحقيقة بالأفراد والجماعات ورفع منسوب الوعي لديهم الا من خلال التواصل الدائم معهم والاتصال المباشر ، فالعزلة والانفراد أو الابتعاد عن الآخرين لا تجدي في بناء الإنسانية ، ولا تحقيق التأثير المرغوب في الجماعات وتغييرها ، من هنا كان الإمام يحرص على التواصل ، بل كان هو قطب الرحمى ، ومركز دائرة التوجيه والسيطرة من بعد رحيل الرسول الكريم ( صلى الله عليه وآله ) ، ومع ذلك جعل التواصل حق للطرفين ، وأمر واجب التبادل مع الآخرين :

**(أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَمَا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئُوكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهِلُوا، وَتَأْدِيْبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقُّي عَلَيْكُمْ: فَاللَّوْفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُوكُمْ.)<sup>٢</sup>**

خطبة المتقين ، وهي واحدة من أروع الخطب المروية عن الإمام يقدم فيها صورة المتقين ، حيث تكتسب القيم أهميتها في بناء الذات ، وتحظى بالاهتمام الكبير في تكوين الشخصية الوعائية لدورها وعلاقتها مع الله والذات والناس ،

١ - نهج البلاغة ، الجزء الثاني ، ص : ٣١ .

٢ - نهج البلاغة ، الجزء الأول ، ص : ٨٤ .

و الذي ينعكس في الحصلة على ذلك قيمة الإنسان ذاته أمام الله تعالى وفي المجتمع و يتجلى جميع ذلك في السلوك الذي يمنح الوجود بوجوده النوراني قيمة الكبرى :

(فَمِنْ عَلَامَةٍ أَحَدُهُمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينِ، وَحَزْمًا فِي لِينِ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينِ، وَحَرْصًا فِي عِلْمِ، وَعِلْمًا فِي حَلْمِ، وَقَصْدًا فِي غَنْيٍ، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةِ، وَتَجْمَلًا فِي فَاقَةِ ، وَصَبَرًا فِي شَدَّةِ، وَطَلَبًا فِي حَلَالِ، وَنَشَاطًا فِي هُدَى، وَتَحرُّجًا عَنْ طَمَعِ ، يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحةَ وَهُوَ عَلَى وَجْلِ، يُمْسِي وَهْمَهُ الشُّكْرُ، وَيَصْبِحُ وَهْمَهُ الذِّكْرُ، يَبْيَتْ حَذْرًا، وَيَصْبِحُ فَرِحًا، حَذْرًا لَمَا حَذْرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ، الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ، إِنْ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ ، قُرْةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتْهُ فِيمَا لَا يَقِنُ، يَمْزُجُ الْحَلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ، تَرَاهُ قَرِيبًا أَمْلُهُ، قَلِيلًا زَلَّهُ، خَاشِعًا قَلْبَهُ، قَانِعَةً نَفْسَهُ، مَنْزُورًا أَكْلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينَهُ، مَيْتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا غَيْظُهُ ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كَتَبَ فِي الدَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الدَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَنْ ظَلَمَهُ، وَيَعْطِي مِنْ حِرْمَهُ، وَيَصِلُّ مِنْ قَطْعَهُ ، بَعِيدًا فُحْشَهُ، لَيْنَا قَوْلَهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرَهُ، مُدِبِّرًا شَرَهُ ، فِي

الزلزال وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور . لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يُضيّع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابذ بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشتم بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له . نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة )<sup>١</sup> .

### نحووي اجتماعي وفاعلية مجتمعية .

لا يمكن أن تتحقق المهام الحضارية الكبيرة ذات النفع العام والتاريخي ، مثل البناء الأخلاقي والقانوني الذي يضمن استمرار وحماية المجتمع ، أو تحرير البلاد من الغزاة ، أو التقليل من أسباب الفقر ، او احداث النهضة في التعليم والصحة والتجارة أو الصناعة ، عبر الجهد الفردي ، مهما كان هذا الوعي الفردي من التفتح والنجاح والسمو والفاعلية ، فهذه المهام تتطلب ، دوماً ذلك الحضور الواسع للجماعات الفاعلة والأخلاق المشتركة القائمة على اساس استشعار المسؤولية عن الجماعة والمشاعر والاحاسيس الخلية من الحقد والتنابذ والتهميش والابعاد المتبادل ، وتتطلب كذلك التنظيم ، من تقسيم

١ - نهج البلاغة ، الجزء الثاني ، ص : ١٦٠ .

للعمل والمهارات من أجل الوصول إلى الأهداف المشتركة التي تؤمن بها الجماعة وتوافق على تحقيقها .

من هنا أهتم الإمام بدور الجماعة الوعية والأكثريّة من الناس المنسجمة في الأخلاق والعمل وتشكيل المنظومات ، وأشار بدورها عندما تكون واعية لهمتها الحضارية في تحقيق الإنجاز ، والمشاركة في صنعه ، كل بحسب اختصاصه ، والوصول بالمشروع الحضاري ومنظومات الأمة إلى النهايات الطبيعية من الالكمال والارتقاء ، وكان يرى ذلك من الواجبات المتبادلة بين الحاكم والأمة :

(أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًا إِلَّا فِي حَرْبٍ،  
وَلَا أَطْوِي دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ، وَلَا أَؤْخِرَ لَكُمْ حَقًا  
عَنْ مَحَلِّهِ، وَلَا أَفْقِدَ بِهِ دُونَ مَقْطَعَهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي  
الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِللهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ،  
وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلَا تَنْكُصُوا عَنْ دُعَوَةِ، وَلَا تُفْرِطُوا  
فِي صَلَاحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ  
تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهُونَ عَلَيَّ مِنْ اعْوَجَ  
مِنْكُمْ، ثُمَّ أَعْظَمُ لَهُ الْعُقوَبَةَ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً،  
فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ  
اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ . )<sup>١)</sup> .

<sup>١)</sup> - نهج البلاغة، ج ٣ ، ص : ٧٩ .

وفي هذا الإطار من الهندسة الاجتماعية التي كان الإمام يؤمن بها من أجل السمو بالإنسانية والمجتمع وتحقيق الادماج الاجتماعي من خلال بناء الذات وتربيتها وتهذيبها ، جاء تأسيس علم النحو والسعي نحو الضبط اللغوي عند الناس في المراحل المبكرة من التطور العلمي عند المسلمين ، وهذا ما نبه عليه المستشرقون :

( لابد أنه كان هنالك دافع أشد إلحاحاً وقوة وراء ظهور نحو علمي حقيقي ، وهو وصف شامل ومتماستك للغة العربية الصحيحة ، مثل هذا النظام النحوي ليس نتاجاً جانياً حتمياً للاتصال الطارئ مع حضارات أخرى .... إن النحو المنظم على وجه منهجي أصيل يضفي العقلانية على قواعد السلوك الاعتباطية ، ويضفي المصداقية عليها من خلال قوة العقل نفسه ، والشيء الواضح هو الفقه ، الذي يفعل الشيء نفسه بالضبط )<sup>١</sup>.

وهذا الأمر ينطبق على جميع الجهود العلمية والتربوية التي سعى الإمام إلى القيام بها بين الناس ، والتي من شأنها النهوض بقيمة الإنسان وبقيمة المجتمع ، فلا ريب في أن قيمة المجتمع هي من خلال قيمة الأفراد في هذا المجتمع وسلوكياتهم ، وفي قيمة وعيهم وآخلاقهم وموافقهم وعلى أساس هذا الوعي

---

١ - يونج ، ولثام ، وسيرجنت ، الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٦ ، ص : ١٧٥ .

العلمي والأخلاقي ، ومن هنا صنف الأئمّة الناس ، وحدد طبقات المجتمع في حديث كميل المعروض في نهج البلاغة :

(النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَّبَانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاهَةٍ  
وَهُمْ جُرَاعَةٌ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ  
يَسْتَطِيُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجُؤُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا  
كَمِيلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ  
الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ،  
وَصَنْعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ ، يَا كَمِيلَ بْنَ زِيَادَ، مَعْرِفَةُ  
الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ،  
وَجَمِيلُ الْأَحْدُوْثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ  
مَحْكُومٌ عَلَيْهِ ، يَا كَمِيلَ بْنَ زِيَادَ، هَلَّكَ خَزانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ  
أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ: أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ،  
وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ ، هَا إِنَّ هَا هُنَا لَعِلَّمًا جَمَّا  
(وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمْلَةً! بَلِّي أَصَبْتُ لَقَنَا  
غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلْدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِرًا بِنَعْمَ  
اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَيَحْجُجُهُ عَلَى أُولَيَائِهِ، أَوْ مُنْقَادًا لِحَمْلَةِ  
الْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ  
عَارِضٍ مِنْ شَبَهَةٍ). ١.

كما جعل الإمام من احترام المرأة قيمة علياً في المجتمع ، وحثَّ الجميع إلى العمل على احترام هذه القيمة ، ومن العجيب أن الإمام يذكر الناس بموقع المرأة وضرورة حمايتها والضمانات التي كانت تحظى بها في العصور السابقة على الإسلام :

(إِنْ كُنَا لِنُؤْمِنُ بِالْكَفْ عَنْهُنَّ وَإِنْهُنْ لَمُشْرِكَاتْ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ  
لِيَتَنَوَّلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرُ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيَعْبِرُ بِهَا وَعَقِبُهُ  
مِنْ بَعْدِهِ) <sup>١</sup>.

وكان ينتقد بشدة حالات التقاعس عن أداء الواجب الاجتماعي ، أو حالات انعدام التماسك والتعاون من أجل تحقيق حماية المجتمع ، ولاسيما في الشدائ드 وصد الغارات التي تشنها الجماعات الإرهابية التابعة لجيش معاوية في الشام على اطراف العراق :

(أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجَمَّعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُكُمْ  
يُوَهِي الصُّمُ الصَّلَابُ، وَفَعْلُكُمْ يَطْمَعُ فِيْكُمُ الْأَعْدَاءُ.  
تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقَتَالُ قُلْتُمْ:  
حِيدِي حِيدِي ! مَا عَزَّتْ دُعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ  
مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَصَالِيلِهِ؛ دَفَاعَ ذِي الدِّينِ الْمَطْوُلُ. لَا  
يَمْنَعُ الضَّيْمُ الْذَّلِيلُ، وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجَدِّ؛ أَيَّ دَارٍ بَعْدَ  
دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ! الْمَغْرُورُ وَاللهِ

١ - نهج البلاغة، ج ٣ ، ص : ١٣ .

مَنْ غَرَّتْمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيْبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ )<sup>١</sup>.

### نقد قصور الفاعلية في الوعي (حالة الغياب) :

لا ريب أن الأدوار الكبرى للأمم إنما هي حصيلة وعي أفرادها والجماعات والذئب الوعائية فيها ، وإذا كان الوعي المفتح على الوجود ، هو من يضع الإنسان في مركز الموجودات من حوله ، يتحسس هذا الكون ويلاحظ ، ويتعرف على الخفايا في التكوين وأسراره ، لكي يسيطر على الطبيعة ويسخرها ، يفهم المحيط والناس لكي ييسر الحياة ، ويفكر في الأسباب والتائج ، فإن هذا النظر من موقع الحور في تسخير الكون ، هو من يمنح الإنسان القيمة ، وذلك عندما يكون هذا الوعي قد احتفى بالقيم الإنسانية العالية الكبرى من : قيم الحب وعمل الواجب ، وشكر المنعم ، وكراهة الغدر والظلم ، والعمل على جلب النفع للناس بالتعاون ، والعمل على صناعة الخير من دون النظر في مقابل وحسابات الربح ، ومساعدة الآخرين بلا شرط ، وتحقيق الحضور الإيجابي في المجتمع من خلال العمل على ترسیخ فعل الخير والانصاف وشجب العداوة ، وصولاً إلى الفعل الحضاري الذي يتخطى الانسجام مع المحيط والوسط الاجتماعي المحلي إلى تحقيق الفائدة والانسجام في العالم باسره وعلى امتداد التاريخ ، وهذا الأمر يتطلب وعي أمة ، وأمة واعية ، من مستوى القيادة وحتى أدنى المستويات فيها ، وليس أمة أرتفع فيها منسوب الطاقة

الحرارية ، فصارت تضرب يميناً وشمالاً من غير وعي أصيل يردعها عن الظلم والانحراف ومن ثم تسقط قيمتها الأخلاقية والريادية ، وتتبدد الحرارة فيها ، بعد ثبوت نقص الوعي فيها ، كما حصل بعد رحيل الرسول الكريم :

(إن الوعي - بذلك المعنى الشامل والمركز المستأصل بجذور ما قبله ، والذي يخلق جميع المفاهيم والافكار المسبقة - من طبيعته الثبات والاستقرار ، بل التعمق على مر الزمن . لأن هذا الوعي - بطبيعته - يتدرج ويخلق له - بالتدريج - مجالات جديدة ، وفقاً لخط العمل وخط الاحداث ، فالامة الوعية هي أمّة تسير في طريق التعمق في وعيها ، والامة التي تحمل طاقة حرارية هائلة هي الامة التي لو بقيّة هي وحدتها مع هذه الطاقة الحرارية فسوف تتناقض هذه الطاقة الحرارية بالاستمرار.)<sup>١</sup>

إذن ، ما كان يسعى إليه الإمام عليه السلام هو رفع قيمة الأمة برفع منسوب وعيها ، وذلك من خلال تربية المجتمع على قيم العدالة والمساواة التي تتحقق الادماج الاجتماعي وهو قيمة عليا يصعب الحصول عليها في المجتمعات القائمة على العنصرية والاقصاء للناس الآخرين ، والذين هم في الحقيقة و الواقع كما يصف الإمام أخوة في الدين والإنسانية :

---

١ - السيد الشهيد الصدر ، ائمة اهل البيت ، دورهم في تحصين الرسالة الإسلامية ، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، قم ، ط ٢ ، ١٤٣٤ ، ص : ١٥٨ .

(إِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخْ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ) <sup>١</sup>.

لكن الوعي السائد في زمن الإمام لم يكن يتفهم هذه الحقائق ، كان مجرد طاقة حرارية ناتجة عن وهج الرسالة وتحسّن طاقة الوحي ، وليس ناتجة عن وعي الوحي ، فلم يكن الوعي عند القوم بعد النبي بذلك المستوى من الإدراك والعمق لكي يتعرف على هذا الدور التاريخي للإنسان ، والذي يبدأ أولاً من بناء الذات ، التي يشتهر حضورها وجودها من خلال شدة الحضور وفي الفاعلية في المجتمع ، وصناعة الفعل التاريخي ، بل كان الوعي في مستوى العام غارق في الغياب والسبات والشبحية والتنافر الذي يجعل من الحضور غير مؤثر:

(مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحًا بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنُسَاكًا بِلَا صَلَاحٍ، وَتَجَارًا بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظًا نُوَمًا، وَشَهُودًا غَيْيَا، وَنَاظِرَةً عُمِيًّا، وَسَامِعَةً صُمِّاً، وَنَاطِقَةً بُكْمِاً) <sup>٢</sup>.

كان الإمام (عليه السلام) ، يعرف بشكل جيد قصور الناس من حوله ، عن أهمية بناء الوعي المطلوب أولاً في ذاتهم ، فلا ريب أنهم لم يتشربوا بعد قيم الإسلام ومتطلباته الواجبة عليهم في تقديم هذا الدين المتقى ، إلى الناس من حولهم في ارجاء المعمورة في احسن شكل وبأفضل تقديم ، وأجل تعریف وافي لهذا الدين الذي جاء رحمة للعالمين ، ولتحرير الناس من الخرافات والجهل

١ - نهج البلاغة ، الجزء الثالث ، ص: ٨٧ .

٢ - نهج البلاغة ، الجزء الاول ، ص: ٢٠٧ .

لكي يستقطب القلوب والمشاعر والاحاسيس والأفهام ، وذلك بدليلا عن طرائق : قرع السيوف وملاقاة الحتوف وشن الغارات :

(أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ أَكْفَى مِنْ دُنْيَاكُمْ بِطَمْرِيهِ، وَمَنْ طَعْمَهُ بِقُرْصِيهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْيُنُونِي بُورَعًا وَاجْتَهَادًا، وَعَفَةً وَسَدَادًا ، فَوَاللَّهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا ، وَلَا ادْخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثُوبِي طِمْرًا.)<sup>١</sup> .

يعرف الإمام عليه السلام أهمية المثال الحسي أو الأنموذج المادي في التربية وصناعة الوعي ، ومن هنا أنتقد الإمام هذا القصور الذاتي والتقصير الشخصي عند الناس من حوله ، والعجز عن الانسجام مع قيم الاسلام التي كانت تتجسد في سلوكه اليومي بشكل محسوس ، لأن هذا التقصير في الادراك الحسي الذي يفترض فيه تحقق الوضوح في معرفة الأنموذج الأمثل ، حسأ ، خراب هذا الاحساس البسيط هو الأساس النوعي لجميع أنواع الضرر والآخر ، وما حصل من الانتكاس والردة في التخاذل عن نصرة الحق ، إنما هو حصيلة حالة التداعي في الوعي الفردي عن فهم الاخطار الوجودية الحقيقة ، ومن ثم العجز عن فهم ضرورات النهوض بالدور الاجتماعي والحضاري الذي انيط بهذه الأمة من أجل انقاذ العالم الغارق في الظلم آنذاك ، والذي هو من أهم متطلبات المرحلة ، فكان عدم الاهتمام بالمصير الذاتي ،

وغض الطرف عن التهديد الوجودي ، عند الأفراد هو بداية السقوط في الاختبار ، وهو ، المؤشر الكبير على هذا التدني في القيمة ، وفي فهم أهمية الحفاظ على الكرامة الإنسانية التي يستهدفها أتباع الشيطان في المقام الأول ، ومن ثم عدم القدرة المجتمع بشكل عام على تشخيص الجدوى من النهومن واداء الدور المطلوب :

(شُهُودُ كَغَيْبٍ، وَعَيْدُ كَأَرْبَابٍ، أَتْلُوا عَلَيْكُمُ الْحِكْمَ فَتَتَفَرَّوْنَ  
مِنْهَا، وَأَعْظِمُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحْثُكُمْ عَلَى  
جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَيْتَ عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَأَكُمْ مُتَفَرِّقِينَ  
أَيْدِي سَبَا، تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ  
مَوَاعِظِكُمْ، أَقْوَمُكُمْ غُدُوَّةً، وَتَرْجِعُونَ إِلَيْيَ عَشِيَّةَ كَظْهَرِ الْحَيَّةِ ،  
عَجزَ الْمُقْوِمْ، وَأَعْضَلَ الْمُقْوِمْ.)<sup>١</sup>

### نحو فعل تاريخي وحضاري واعي :

أن يحظى الفرد والمجتمع ، أي الجميع وبلا استثناء بحياة حرة وكريمة ، وبيئة تحفظ فيها كرامة الإنسان ، بما يتاسب مع القيمة العليا لهذا الكائن ، هذا هو قمة النجاح في الفعل والسلوك الحضاري ، ولاسيما عندما يتحول إلى ثقافة راسخة وهوية موجهة ، وهو الأمل الكبير الذي يتوجب على الدولة أن تسعى

أليه من خلال مؤسساتها التربوية والعليمية ، والسعى وراء هذا الطموح هو المؤسس الحقيقي للحركات الاجتماعية والثورات التي تسعى للوصول إلى السلطة من أجل تحقيق هذا الوضع الإنساني الذي تتطلب الطبيعة البشرية التواقة للكمال ، وجوده على الدوام .

وهكذا صار تاريخ الأمم والشعوب يرتبط بالمنجزات التاريخية والأفعال التي تدخلها في مصاف الأمم المؤسسة للحضارات ، وقيم التقدم والنهوض واحترام الكرامة الإنسانية وتأمين العيش الكريم للجميع ، ويتبصر من المراجعة التاريخية لمسيرة الأمم عليه السلام أنه كان يعمل بالواجب والممكن في هذا المجال ، وأنه لم يترك واجباً ، كان في مقدوره الاتيان به أو الارشاد اليه ، من خلال بناء وتوجيه الجماعة القادرة على صناعة المستقبل ، ومن هنا فهو عليه السلام ، لا يتخطى طريقة العمل في حدود الممكن التاريخي المقررة في فلسفة التاريخ ، وفي ضوء بذلك رفض الإمام (عليه السلام) السكوت أو التجاهل لحركة معاوية التي كانت تظهر أمراً ، وهو طلب الثأر لمقتل عثمان بن عفان ، فيما كان يخفي سعيه للسيطرة على القيادة في العالم الإسلامي للقضاء على الإسلام بطريقة تختلف عن طريقة أسلافه السابقين من قاتلوا النبي الكريم في سلسلة من الحروب التاريخية :

(إِنَّ اسْتَعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرِ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقُ  
لِلشَّامِ، وَصَرْفُ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ، وَلَكِنْ قَدْ وَقَتْ  
لِجَرِيرِ وَقْتًا لَا يُقْيِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعًا أَوْ عَاصِيًا، وَالرَّأْيُ مَعَ

الأنة ، فَأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدَاد ، وَلَقَدْ ضَرَبَتْ  
أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَبَّلَتْ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ لِي إِلَّا  
الْقِتَالُ أَوِ الْكُفْرُ ، إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالْأَحْدَاثِ  
أَحْدَاثًا ، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا ، فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا . )<sup>١</sup>

لقد نقل الإمام (عليه السلام) ، بعد أن قبل التصدي لهذا التحدي الكبير بجمل الحياة الإسلامية من فضاء الصراعات غير المهمة إلى الصراعات المهمة ، وأضفى طابعاً جدياً على محتوى السلوك الوعي في حياة الأمة الإسلامية ، ففي بداية الصراع على السلطة الذي تفجر بعد رحيل الرسول الكريم (ص) والمخاوف من الاستئثار ، كانت هيئة الصراع والتنافس تأخذ طابعاً فردياً ، في حدود جماعة متقاربة ظاهرياً في وعيها ، وفي قربها من دائرة الرسول الكريم ، لكنها في الواقع كانت تحمل فقط طاقة حرارية من الإيمان الجمعي فيما تفتقر لذلك الوعي على مستوى أهمية القيادة الوعية المعصومة والتي تمنح للأمة قيمتها الحقيقة في الوجود الحالي والمستقبل ، أمة بطاقة حرارية وليس بوعي كما عبر عن ذلك السيد محمد باقر الصدر :

(الذي كان يؤمن الأمة بهذه الطاقة ، هو شخص القائد -  
عليه أفضل الصلاة والسلام - وكان من بطبيعة الحال أن

١ - نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام) ، شرح الإمام محمد عبده، طبعة دمشق الأولى . ص: ٩٣.

يكون حال الامة بعده في تناقضٍ مستمر ، حال الشخص الذي يتزود من الطاقة الحرارية للشمس أو النار ثم يبتعد عن الشمس أو النار فان هذه الحالة تتناقض عنده باستمرار ، وهكذا كان ، تأريخ الاسلام أن الامة الاسلامية كانت في حالة تناقضٍ مستمر لهذه الطاقة الحرارية التي خلفها رسول الله - صلى الله عليه وآله - في أنته حين وفاته ، بخلاف الوعي<sup>١</sup> .

وهكذا يتضح أن المطلوب الحقيقي ، والذى تكمن فيه قيمة الأمة هو الوعي وليس مجرد الطاقة ، من هنا لم يهتم الإمام (عليه السلام) لهذا المستوى المتدني من التناقض والصراع على الخلافة وقيادة الجماعة الاسلامية في المدينة ، وذلك بالنظر لما فيه من قصور في الوعي عن ادراك المخاطر الكبرى التي تترتب عليه في هذه البيئة المحدودة والضيقة بالنسبة إلى عموم البلاد من حولها ، والتي ينبغي لها أن تكون طرفاً واعياً ومهتماً بمستقبل الإنسانية جموع ، حتى لو أدى ذلك بأن يتحول الوضع من هذا التناقض الجزئي البسيط علىصالح الفردية والانهمام بها ، إلى صراع واسع النطاق بين الجماعات الكبيرة والكتل الواسعة أو الوطنية من خارج الجزيرة العربية على خلافة النبي ( صلى الله عليه وآله ) ، فصراع الحق والباطل جدير بهذا الاتساع .

---

١ - السيد الشهيد الصدر ، ائمة اهل البيت ، دورهم في تحصين الرسالة الاسلامية ، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، قم ، ط ٢ ، ١٤٣٤ ، ص : ١٥٧ .

المجتمع المحدود آنذاك ، لم تتأسس فيه بعد الضوابط والمعايير في تحديد قوى الحق والعدالة ومن ثم فرزها عن قوى الباطل والظلم في هذا المجال الخاص بالسياسة والسلطة ، وبما يعني القضاء النهائي على بذرة الدين الجديد والقيم العديدة التي جاء بها لكل شؤون الحياة ، والحياة السياسية هي جزء من هذا الكل ، فلا ينبغي للعجز الموجود في جماعة المسلمين آنذاك عن فهم القيم الإسلامية في هذا الجزء ، وصراعاتهم على الفتات ، أن تؤدي أو تعمل على تخريب قيمة وضياع الكل ، الذي هو الأساس في رفع قيمة الأفراد والجماعات والأمة المؤسسة للحضارة الإنسانية في المستقبل القريب ، فعمل الإمام (عليه السلام) على تجاوز هذه المخنة من خلال الصبر ، والثاني ، والتوعية المستمرة وبث الآداب ، ومنها الآداب السياسية ، حتى تتأسس في حدود هذه الجماعة البسيطة هذه المعارف الكبرى ، ولكي يدخل في وعيها تلك القيم التي تساعد على تفهم الأنموذج الصالح في مجال السلطة والعمل السياسي بشكل حسي يقودها بالتدرج إلى الوعي الدقيق بحركة التاريخ القائمة على صناعة الفعل الوعي والمخطط والمدبر :

( فَلِمَّا مَضِيَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوْعَى، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تَرْزَعُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنْحُوْهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ!، فَمَا رَأَيْتِ إِلَّا اثْيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةً النَّاسِ قَدْ رَجَعْتُ عَنِ الإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ

مُحَمَّد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ  
أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْمًا أَوْ هَدْمًا، تَكُونُ الْمُصْبِيَّةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمُ مِنْ  
فَوْتٍ وَلَا يَتَكَبَّمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعٌ أَيَّامٌ قَلَائلٌ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ،  
كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ  
الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَأَطْمَأَنَّ الدِّينَ وَتَنْهَيْهُ، إِنِّي  
وَاللَّهِ لَوْلَقِيْتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طَلَاعُ الْأَرْضِ كُلُّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا  
اسْتَوْحِشْتُ، وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا  
عَلَيْهِ لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي).<sup>١</sup>

من هنا عمل الإمام بهدوء وحذر على دفع الوعي عند الأفراد ، والجماعات ، في المدينة وخارجها على تفهم القيم الإسلامية المؤسسة في هذا الحقل الحيوي والخطير ، وذلك من أجل المزيد من التتحقق من اختيار القيادة ، والحذر من الاختراق المنافقين والوصوليين إلى الواقع الرفيع في الحكومة الإسلامية ، وهذا ما صار واضحاً في النص الإرشادي الذي كتبه إلى مالك الأشتر كأنموذج في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقضائي من أجل بناء منظمات من الدوائر التي يمكن أن تعمل على النهوض بمجتمع المسلمين في

مصر :

(أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقدٍ، وَاقْطِعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ  
وَتْرٍ، وَتَعَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضْحِي لَكَ، وَلَا تَعْجَلْنَ إِلَى

تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ، وَلَا تُدْخِلَنَ فِي مَسْوِرَتِكَ بِخِيالٍ يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرُ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يَزِينُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجُوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحَرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمِعُهَا سُوءُ الْفَلْنِ بِاللَّهِ. شَرُّ وُزْرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأشْرَارِ قَبْلَكَ وزِيرًا، وَمَنْ شَرِكُوهُمْ فِي الْآثَامِ، فَلَا يَكُونُنَّ لَكَ بَطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَعَاوِنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثَمًا عَلَى إِثْمِهِ، أَوْلَئِكَ أَخْفُ عَلَيْكَ مَؤْنَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعْوِنَةً<sup>١</sup>.

وهكذا أسس الإمام علي عليه السلام لدرجات ومستويات من الوعي الأصيل في استيعاب القيم الإسلامية العالية والرائدة في فهم وتوجيه الصراعات بين قوى الحق والباطل ، والخير والشر ، داخل المجتمع الإسلامي ، تمنع الشرفاء والخبيثين من الاصطفاف مع قوى الشر والمستكبرين ، أو خدلان الضعفاء والفقراء والمقهورين والمشرددين في مجتمعاتهم ، الأمر الذي يبقى الباب مفتوحاً في جدليات الصراع والتناقض وعلى جميع المستويات : الفردية والاجتماعية والحضارية .

كما يتضح أن ما قام به الإمام (عليه السلام) من نقل قيم الصراعات والتنافس من المجالين : الفردي والأسري ، المحدودين في ترسيخ الوعي القادر على التأثير في الجدليات الحضارية المؤسسة للارتقاء ، إلى حقل التنافس والصراعات الكتلوية العابرة للأفراد والمدن والجماعات المحدود ، كما هو الحال في تنافس وصراع العراق والشام ، هو عمل تاريخي وحضاري ذو قيمة عظيمة في ارتقاء الأسرة البشرية عامة ، وانضاج وعيها بقدرات الذات البشرية أولاً ، وامكانيات الجماعات المنظمة على التغيير واحداث الانقلابات الكبرى ثانياً ، ونقلها من ظلمات القرون الوسطى بشكل متسارع ووضعها على اعتاب الوعي العظيم الذي تفجر افتتاح الغرب على الحضارة الاسلامية ومنجزها العلمي والادبي ، ومع الصراع الاسلامي \_ الاوربي الذي أشتد بعد تغلل الدولة العثمانية في الداخل الاوربي ، الأمر الذي كشف عن القيمة الحقيقية لجهود العرب الاولى في ترسيخ القيم الانسانية التي أكدتها الاسلام الحضارة الانسانية عامة .

وفي هذا العصر الذي نعيش ، صار من الضروري الرجوع إلى التراث الفكري لمولانا الإمام علي (عليه السلام) ، وتفعيل اطروحاته في بناء الذات وأسلوبها في الملاحظة والفهم والاختيار الوعي ، وكذلك بناء المجتمع النسجم المستدام في نموه وتطروعه ، وتحقيق الحضور الفاعل والوعي في الميادين بشكل ايجابي ، والإفادة من طريقة عليه السلام في التقويم والنقد ، ولا بد من أجل الوصول إلى هذا المستوى من اعطاء قيمة كبيرة للوقت واستثمار للفراغ في اكتساب المهارات والخبرات ومن ثم الدخول في حقول العمل النافع ، وبما يزيد من قيمة

الذات : ف ( قِيمَةُ كُلِّ امْرِيءٍ مَا يُحْسِنُ )<sup>١</sup> ، وكذلك قيمة المجتمع في قدرته على الإنجاز الحضاري .

ومن ثم في ضوء هذه الرؤية المتردجة في البناء الوعي ، لابد من التصدي للأمراض الفردية والاجتماعية والحضارية ، والعمل على وقف كل هذا التخريب الممنهج في عالمنا ، وما يحصل من التزييف بالطرق البراقة للوعي الفردي ، والصيغة الاجتماعية ، وعملهم المدام على نقل الفاعلية الحضارية من العمل والأفعال الجدية و الواقعية ، إلى مجرد تراشق بالكلمات والصور على موقع التواصل والنشر من قبيل الفيس وتويتر وغيرهما أو توجيه الاهتمام والعناية وبذل الجهد والوقت واهدارهما بما لا قيمة له ولا جدوى<sup>٢</sup> .

---

١ - نهج البلاغة ، الجزء الثالث ، ص : ١٥٤ .

٢ - إلزا غودار ، أنا أو سيلفي ، إذن أنا موجود ، تحولات الأنّا في العصر الافتراضي ، ترجمة : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي للكتاب ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠١٦ ، ص : ٢٠ .

**المصادر:**

- نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام) ، شرح الإمام محمد عبده، طبعة دمشق الأولى ، عام : ١٩٧٧ .
- أرنولد توينبي وأخرون ، الإنسان وهموم الموت ، ترجمة وتقديم : عزت شعلان ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١١ .
- إلزا غودار ، أنا أو سيفي ، إذن أنا موجود ، تحولات الأنّا في العصر الافتراضي ، ترجمة : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي للكتاب ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠١٦ .
- الفريد أدлер ، الطبيعة البشرية ، ترجمة : عادل نجيب بشري ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٩ .
- روبن آيل ، الإنسان هو المقياس ، ترجمة : مصطفى محمود ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١١ .
- رؤوف عبيد ، الإنسان روح لا جسد ، مؤسسة العروة الوثقى ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥ .
- عزت قرني ، الإنسان ، التكوين الأساسي والظواهر الكبرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، ٢٠١٧ .
- علي عباس مراد ، الهندسة الاجتماعية : صناعة الإنسان والمواطن ، دار ابن النديم ، ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٦ .
- فيصل عباس ، الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدية ، دار المنهل اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ .

- كمال عمران ، الإنسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي الحديث ، كلية الآداب ، منوبة ، تونس ، ط١ ، ٢٠٠١ .
- كولن ولسون ، الإنسان وقواه الخفية ، ترجمة : سامي خشبة ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩ .
- لؤي صافي ، الإنسان وجدلية الوجود والوجودان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٦ .
- السيد الشهيد الصدر ، ائمة اهل البيت ، دورهم في تحصين الرسالة الإسلامية ، مركز الابحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، قم ، ط٢ ، ١٤٣٤ هـ.
- يونج ، ولاثام ، وسيرجنت ، الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٦ .



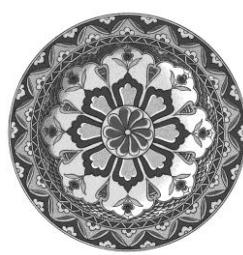
## **الدراسة الثالثة :**

### **الحوزات العلمية**

**(النسق الاجتماعي ، والأنموذج الفكري ، الوظائف**

**الإصلاحية)**

- مجتمع الفاعلون الدينيون والحوزات العلمية .
- تشكل الحقب العلمية والأنماط الفكرية .
- من فضاء التربية والتعليم إلى فضاء المجتمع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

( مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ  
وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ  
دُونِ اللَّهِ وَلَكُنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ) . صدق الله  
العلي العظيم .

آل عمران / ٧٩

### مقدمة :

جاء اعداد هذه الورقة البحثية للمشاركة في ورشة العمل التي تقيمها جامعة وسط أوربا ومركز ( كارنيجي - الشرق الأوسط ، في بيروت للفترة ٢١ / ٢٢ / ٢٠١٩ . والموسومة : ( الفاعلون الدينيون والتحولات الاجتماعية والسياسية في العراق ) ، سوف يجري الحديث في هذه الورقة بشكل موجز عن بعض الجوانب من المسيرة العلمية والاجتماعية للحو زات العلمية في الفترات المختلفة <sup>١</sup> ، وكيف تطور منهاجها الباحثي ونمط الدراسة والتفكير بفعل التطورات الاجتماعية على الارض ، مما أثر في مواقف هذه المدارس من قضايا المجتمع الكبيرة وفي حدود التدخل فيها ، مثل : قضايا الدولة والسلطة ، و الدعوات إلى الاصلاح والتجديد وبث روح النهوض

١ - عنوان الورقة البحثية : الحوزات العلمية : ( السوق الاجتماعي ، والأنموذج الفكري والوظائف الاصلاحية ) .

بالجوانب التربوية والعلمية والمجتمعية والسياسية والاقتصادية ، وقدرة هذه المدارس المستدامة على النمو والتوسع في المناطق النائية ، واداء الخدمات الاجتماعية في الظروف المختلفة ، وسعيها الدؤوب للتقرير والجمع ونشر ثقافة التصالح والتسامح ، والابتعاد عما يفرق ويخرّب في العلاقات الاجتماعية والدينية .

لقد كتب الكثير عن الحوزات العلمية <sup>١</sup> ودور المراجعات الدينية في العراق وايران وكذلك في غيرهما من البلدات والمدن الشيعية ، وعن القواعد الاجتماعية لهذه الحوزات وعن أنموذجها الفكري ، وأثرها في الاحداث المحلية ولإقليمية والدولية ، حاولنا الإفاده من هذه البحوث والشروحات في هذه الورقة البحثية ، وليس هنا مجال لمناقشة ما جاء في هذه الاطروحات وما فيها أيضاً في الكثير من الاحيان من تجاهل كبير للبعد التربوي والتعليمي للحوظات العلمية وأثر هذا بعد المهني في افراز المجتهدين الكبار ومن ثم أثر ذلك على عمل الفاعلين الاجتماعيين من يتسبون في الاصل إلى هذه المدارس والحوظات كمدرسین واساتذة في اصل عملهم المهني والاجتماعي ومعرفتهم في المجتمع ، ومن المؤكد أن المؤلفات التي تم التحضير لها من قبل المستشرقين لا يمكن الاعتماد عليها في فهم هذا الموضوع وامتداداته وارتباطاته واثاره بقدر ما يجب أن يدرس وتلاحظ بحذر لكثرة ما يرد في الكثير منها من التشويهات في المعلومات ولاسيما عندما يتعلق الأمر بموقع القيادة في المجتمع الشيعي أو

---

١ - الحوزة العلمية في الاصطلاح ، هي كيان علمي وبشرى يؤهل للاجتهد في علوم الشريعة الإسلامية ويتحمل مسؤولية تبلغ الأمة وقيادتها .

البحث في موقع ولاية الفقيه ، المجتهد والجامع للشراط في المجتمع والحو زات<sup>١</sup> .

من يطلع على ارشيف الحكومة العراقية والجهات الأمنية عن الحوزات ابان العهد الصدامي سيجد أنها كانت تولي أهمية خاصة في تقاريرها الأمنية ودراستها الميدانية عن المدارس باعتبارها مؤسسات قائمة على الارض ومعبر واقعي عن مفهوم الحوزات :

( الدراسة التي أنجزها مزيان خضر هادي ، أو الذين كلفهم في كانون الثاني ١٩٨٥ ، أرسلت اللجنة تقريراً في أربعين صفحة إلى صدام حسين في ٦ شباط ، .... تتضمن قسمين : أحدهما هو عرض عام للحوزة وتاريخها ومناهجها الدراسية وتحصيات بشأن احتواء الحوزة والمدارس الدينية )<sup>٢</sup> .

تفكيرنا بالحو زات العلمية وقياداتها لابد أن يستحضر بعضاً من جوانبها الأساسية وهي ١ - الجانب الاجتماعي ونمط الشريحة المعرفية التي تشكل هذا المجتمع ، و ٢ - الأنماذج الفكري الارشادي الملهم للأفكار والتطورات والطموحات ، و ٣ - الوظائف والأدوار التي يضطلع بها هذا المجتمع ومن يسير على خطاه ، وكيف تطورت هذه الجوانب .

١ - لندا . اس . والبرج ، الاعلم عند الشيعة ، ترجمة : هناء خليف غني ، مكتبة عدنان ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٣ . ص : ٣١١ .

٢ - عباس كاظم ، الحوزة تحت الحصار ، مطبوعات جامعة الكوفة ، العراق ، ط١ ، ٢٠١٨ ، ص : ٣٠ .

وأما المنهج المتبع في هذه الورقة فهو النظر إلى فضاء لحوظات ككيان تارينخي واجتماعي وثقافي متواصل ، ومتجدد ، ومميز في الواقع ، يتالف من المؤسسات التربوية والتعليمية على الأرض ، والذي يحتفي بعديد العادات والتقاليد والتوجيهات والاعراف التي توجه مسيرته إلى جانب مدخلات المناهج والكتب والتعليمات اليومية ، وهي تشكل مدخلات حقيقة في هذا النظام المفتوح إلى جانب الفاعلين الاجتماعيين ، فيما تمثل المخرجات بالطلبة والخريجين وكلك بالمدونات التي تكتب والنشرات والكثير من المستفيدين والنتفعين من جراء وجود هذه المؤسسات العاملة ، ومن ملاحظة هذا الكيان الاجتماعي وطريقته في الاداء والعمل والنمو يمكن الخلوص إلى تفسيرات وصياغات تحاول أن تقارب وضعه كنسق اجتماعي يمكن تميزه عما سواه من الأساق المحطة به ، وبذلك يمكن أن نكتشف أنموذجه الفكري عما سواه من المؤسسات الأخرى ، والوظائف التي مكتته من التأثير والاستمرارية في الوجود :

( كل نسق بناء على منطق ذاتي مستقل عن منطق الأساق الأخرى ، ... كل منها يتفرد بوظيفة اجتماعية مهمة ، فنسق القضاء يصوغ المعايير القانونية العامة ويدفع لتنفيذها ، أما نسق العلوم فينبع معارف خاصة بالحقيقة ، ونسق السياسة يتخذ قرارات ملزمة للجميع ، ... كل نسق منها لا يمكنه القيام الا بوظيفته وهو مستقل

معنى إنتاجه الذاتي للقواعد التي يعمل على أساسها ،  
 تماماً مثل إنتاجه للعناصر التي تشكله )١( .

### **أولاً : مجتمع الفاعلون الدينيون والحوزات العلمية :**

من الظواهر التاريخية والاجتماعية القديمة يقدم الإنسانية هي ظاهرة التربية والتعليم في مختلف المجتمعات البشرية ، ومن الواضح أنها ظاهرة ارتبطت بالطبيعة الإنسانية الأولى ، ولا بست مطالب النفس في الرغبة بالاطلاع ، وداعية الفضول ، وحب الحكمة ، والتي مرجعها - في الحقيقة - الرغبة الإنسانية في الكمال والارتقاء وامتلاك القوة والميمنة على المحيط من خلال التربية والتعليم والافادة من جميع المصادر والروافد العقلية والدينية في تحقيق هذا الكمال ، هذه الصيرورة نحو الكمال هي من شكلت تاريخ الفلسفة ، والتفكير البشري ، ونشأة المناهج العلمية ، وكانت الاديان أو رسالات السماء ووجود الانبياء ، باستمرار ، راقد كبير من روافد التربية والتعليم ومن المهمات في مجال تأسيس مجالس الدراسة والبحث العلمي والتفكير في المشكلات والظواهر والعمل على الانتاج والنقد في المجالات الادبية والعلمية ، عبر التاريخ ، ومن ثم كانت تمتد لتحقيق هذا الكمال المنشود والارتقاء في المحيط والبيئة الطبيعية من حول الانسان وذلك من خلال التفكير بالسيطرة على

---

١ - نيكلاس لومان ، مدخل إلى نظرية الأنساق ، ترجمة : يوسف فهمي حجازي ،  
مشورات الجمل ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص : ٦ .

هذه البيئة أو طلب المساعدة من القوة العلوية في هذا المجال الحيوي والخطير على الوجود الإنساني.

من هذه المقدمة الوجيزة ، يتضح كيف أن الحوزات العلمية والفاعلون الاجتماعيون فيها من العلماء والباحثين والكتاب والأساتذة المدرسين ، وكذلك الطلبة المتلقين ، والخطباء ، والبلغين ، والادباء ، والحرفين والكسبة من يقدمون الخدمات في المعاهد والمدارس والمساجد المعدة للدراسة ، ويستفيدون منها في عيشهم ، فجميع أفراد هذا المجتمع الواسع ، أنما هم في صلب هذه الظاهرة التربوية والتعليمية العريقة والضاربة في عمق التاريخ والمجتمع ، لأنها بكل بساطة هي واحدة من مطالب الطبيعة الإنسانية في الارتفاع والتكامل إلى جانب المطالب الأخرى مثل الحرية والمساواة ومطلب الخلود .

لا يوجد اتفاق على خطاطة واحدة فيما يتعلق بهذه المطالب ، فرانسيس فوكويا م صاحب كتاب : (نهاية التاريخ وخاتم البشر ) كان قد أغفل الكثير من مطالب الروح الإنسانية مثل الرغبة في التربية السليمة والتعليم الصحيح المستمر ، وكذلك مطلب الخلود في عالم آخر يساوق هذه التربية والتعليم ويمثل الجزء لعناء الإنسان في تطبيق هذه الأخلاقيات التي افادها من التربية الأخلاقية ، ومن ثم بني فرانسيس فوكويا م نموذجه الفكري على مطلبين فقط ، هما العدالة والحرية ، ونبي مطلب الخلود ومقدمات هذا المطلب ، واسهب في شرح فلسفة مادية قائمة على سعي الإنسان للحصول على التقدير والاعتراف ، المعنوي والمادي ، في محيط يعج بالتنافس والاحترب من أجل

المنافع المترتبة على الاعتراف ، وذلك للحصول على نتائج محددة سلفاً ، كأيديولوجيا تخدم النزعة الليبرالية ، مما يفرغ البحث العلمي في غالب الأحيان من محتواه الرصين<sup>١</sup> .

اما ميشيل فوكو (ت ١٩٨٤) فقد وضع قضية التربية والتعليم والمناهج وتختلف انماط التفكير التي توجه السلوكيات اليومية ، في صلب أنموذجه الفكري ، ومن ثم أرجع جميع مظاهر الانحطاط في العصور الاوربية السابقة ، سواء في السجون ، أم في تاريخ المستشفيات ، وتاريخ الجنون والمصحات العقلية ، أم في تاريخ المعرفة والسلطة ، أرجع جميع مظاهر التخلف في الغرب إلى انحطاط التربية والتعليم والمناهج وانماط التفكير في الموضوعات<sup>٢</sup> ، وهو الأمر الذي يؤكده اجماع المؤرخين على أن عصر النهضة الذي بدأ مع القرن السادس عشر أنها هو في الواقع كان عبارة عن نهضة فكرية وبدوية وحركة اجتماعية في الحواضن المدرسية المنشرة آنذاك في عموم البلاد الاوربية ، وتسابق على تأسيس الكليات لأغراض التعليم الجديد<sup>٣</sup> .

١ - فرانسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة : حسين أمين ، مركز الاهرام ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣ ، ص ١٢ .

٢ - جيجيكا ابراهيم ، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو ، دار الامان ، الرباط ، ومنتشرات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠١١ ، ص ٢١ .

٣ - عبد الله عبد الدائم ، التربية عبر التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٣ ، ص ٢٦٥ .

وعندما حلل أليكسيس دو توكتيل ( ت ١٨٥٩ ) ، جذور الثورة الفرنسية في كتابه : ( النظام القديم والثورة الفرنسية ) ، أشار إلى دور الجامعات الأجنبية كما يسميها في تغيير التشريعات والتي أدت بمرور الزمن إلى تكرис روح الرفض والممانعة لمصادر الحريات السائدة في الغرب :

( ومنذ ١٤٩٥ ، تغير طابع التشريع ، أخذ القانون الروماني في الانتشار ودخل الدكاكنة كما كانوا يسمونهم - أي أولئك الذين درسوا القانون في الكليات الأجنبية - الحكومة وسيطروا على إدارة المحاكم العليا ... والحقيقة أن القانون الروماني .... صقل المجتمع المدني في كل مكان ) <sup>١</sup> .

وقد جعلت المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه ( ت ١٩٩٩ ) ، من المؤسسات التربوية والتعليمية وطرائق البحث وأنمط التفكير العلمي وانتشار المكتبات ، هي السمة البارزة والمميزة في تقويم الحضارات :

( أن المعاينة السريرية والتجربة العملية كانتا معدومتين أو شبه معدومتين وذلك راجع إلى فوضى التعليم هناك ، وفوضى النقل عن العلوم الدخيلة فكان الطالب يستمد معارفه من الكتب

---

١ - أليكسيس دو توكتيل ، النظام القديم والثورة الفرنسية ، ترجمة : خليل كلفت ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ ، ص : ٣٩١ .

القديمة جداً ويدعمها بعض من الرسومات القديمة التي تبعث على السخرية بشكلها الخيالي )<sup>١</sup>.

فيما كانت النهضة التربوية والتعليمية وقيام المدارس المنتظمة والمعاهد العلمية في بغداد والكثير من المدن الإسلامية ، وراء التقدم الكبير الذي أحرز في العالم الإسلامي ، حيث تشكل المدارس الرافد الكبير لبناء الكفاءات الضرورية للعمل ، وقيام مؤسسات الدولة المختلفة ، وعلى بناء البلاد والاعمار واثراء المجتمع بالثقافة والآداب ، وبالتالي فهي مدعاومة من قبل السلطات الحاكمة والمرجعيات الاجتماعية الكبيرة والمؤثرة آنذاك ، خصوصاً في العصر العباسي الثاني .

في ضوء هذه الفرضيات ، التي ترى أن التربية والتعليم ، هي ظاهرة واقعية : اجتماعية وتاريخية في الأصل ، قبل أن تكون ذات ارتباط جذري بتعليم المسائل الدينية في العقائد والأخلاق والشائع ، مما يكتنا من الانطلاق نحو إثبات الأمور التالية : ١ - امكانية تقديم تحقيب زمني واضح للتطور الفكري الحاصل في الحوزات الشيعية في ضوء تقدم ظاهرة التربية والتعليم وتوسيعها المنهجي وليس في ضوء ملاحة الانتقال الجغرافي للعلماء والطلبة من مدينة إلى أخرى كما يفعل كثيرون عند كتابة تاريخ الحوزات ، ومن ثم يتضمن أيضاً في اطروحته امكانية ٢ - تقديم لتفسير حالة الانقسامات الاجتماعية التي حصلت

---

١ - زيفريد هونكه ، شمس العرب ، ترجمة : فاروق بيضون ، وكمال الدسوقي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ص : ٣١١ .

في هذا المجتمع المعرفي ، من اخباريين واصوليين ، أو محافظين واصلاحيين ، وكذلك تقديم ٣ - تفسير لظاهرة التوسع في ريادة الفعال الاجتماعية الأخرى كالدخول في السلطة والمشاركة في الحكومات ، لأداء الأدوار الاصلاحية ، و هكذا تتسع تدخلات الفاعلين الدينيين في قضايا خارج نطاق البحث الديني التقليدي في المدارس كما يفترض ، والتي لم تفهم في كثير من الأحوال من قبل المنافسين أو من هم خارج هذه المؤسسات التربوية والتعليمية .

وهنا لابد أن نؤكد على واحدة من أهم سمات هذا المجتمع المعرفي في الاوساط الشيعية ، وخصائص هذه المراكز البحثية هو فضاء الحرية في الحركة التي توفرها للطلبة والاساتذة في التدريس وفي الحضور وفي الغياب ، وفي اختيار المواد الدراسية ، والاساتذة، وفي تحديد مواعيد الابتداء و الانتهاء من البرنامج العلمي في مدارسة المادة ، وكيف يتولى الطلبة بأنفسهم تدريس المواد التي تعلموها من سباقهم سواء من الطلبة أم الاساتذة ، حيث يسود في هذه المدارس ما يعرف بالنظام المشوش أو ما يعرف بالمدرسة المفتوحة ، أو مدرسة الحياة الواسعة والإفادة من التناقضات والجدل والمناقشات والمحوار :

( الحركة التكاملية والمناهج التربوية المقررة للإنسان ، تختلف في نظرية الانظام المنظم عن التخطيطات والنماذج الآلية الخطية )<sup>١</sup> .

في هذا النظام المشوش تمتد الدراسة من داخل الحوزات إلى الجماع ، وإلى المدن البعيدة في فترات الاستراحة عند الطلبة والعودة إلى الأهل ، وفي مجالس الوعظ والارشاد والخطابة الحسينية وغيرها من الندوات والجلسات النقاشية وهي أساليب تفتقر إليها الجامعات الأكاديمية ذات الشروط الرسمية المشددة والقائمة على الحسابات المادية العتيدة في احتساب مخصصات المحاضرات وسلام الرواتب ، وتحقق هذه الطرائق في التدريس تغلغل كبير في المجتمع وينتفع منها القريب والبعيد ، ويقاتل فيها الأساتذة والخطباء من أجل التغيير وهذا بالطبع على العكس مما هو سائد في الجامعات ذات الأبواب المغلقة في وجوه المواطنين من غير الطلبة المتسبين إليها ، ولا تحفل بما يحصل في المجتمع من الفساد والفقر والامراض بسبب الجهل عادة .

اما من حيث تكوين الفاعلين الاجتماعيين على مستوى القيادات والمراجع لهذه المؤسسات التربوية والتعليمية ، فهذا الموضوع ترتبط كما هو متعارف بشكل عام في المعاهد العلمية والجامعات بالاجتهاد في الفتوى بمعنى بقدرة المجتهد الباحث على بناء نموذجه الاصولي في استنباط الاحكام الفقهية ومن ثم

---

١ - عبد العظيم كريبي ، النظام المشوش ، تحليل جدلی في مجال التربية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٣ ، ص : ٢٨٧ .

موقعه الاجتماعي عبر السنوات العلمية الطويلة من العطاء العلمي في الدرس والتأليف بين العلماء والأساتذة المتفذين في ادارة هذه المؤسسات العلمية وفي هذا المجتمع المعرفي ، وهذا يفسر جانباً من عجز القوى الخارجية عن اختراق هذا المجتمع المعرفي بقيادات أو مرجعيات علمية من خارج الوسط التدريسي والاكاديمي الحوزوي :

( يرتبط مفهوم المرجعية بالدرس والبحث ، فلا يمكن للمرجع أن يتزعم مرجعية فارغة ما لم تكن ممتلة بالدارسين والباحثين والعلماء والأفضل وهذه المرجعية تنشأ وتتبع من داخل الحوزة العلمية )<sup>١</sup> .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الحاضنة الاجتماعية والمعرفية ففي داخل هذا الوعاء الاجتماعي والعلمي والجسد التربوي والمدرسي ، تتولد الفتاوي والاحكام الشرعية والتوجيهات العامة ، والتي تمثل راقد كبير من روافد التوجيه والسيطرة في المجتمع عبر تاريخ المجتمعات الشيعية ، وهذا بالطبع هو من يمد المجتمع الشيعي بالقدرة المتواصلة على تمثيل الفعل التاريخي ، وهو فعل يستحضر نقاط القوة في البيئة الشيعية ، من أجل الإفادة من الفرص المتاحة في نمو وتطور هذا المجتمع وتحصيل المزيد من عوامل التحصين والردع ، ومن ثم

---

١ - صلاح مهدي علي الفضلي ، الدور الوطني للمرجعية الدينية ، مؤسسة مصر مرتضى ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ ، ص ٣١ .

بناء قدرة واقعية لهذه البيئة على مواجهة التحديات وتجاوز المشكلات والتعايش عبر العصور المختلفة .

### **ثانياً: تشكل الحقب العلمية والأنموذج الفكري :**

يشكل التفكير بمراحل تطور الفقه الإمامي راقد كبير من رواد فهم التحولات في المؤسسات التربوية والتعليمية عند الشيعة ومن ثم فهم التوسع في المجتمع الشيعي في ضوء التوسع في الأنماذج الفكرية ، وهنالك مقاربة زمانية في ضوء فرضيتنا التربوية والتعليمية ، تؤكد أن هذا الفقه قد ارتبط بأهل البيت عليهم السلام في المرحلة الأولى والممتدة من الإمام الأول ، وحتى غيبة الإمام الثاني عشر ، والمدارس التي كانت تعلم المواد العقائدية والأخلاقية والتشريعية قد انطلقت من الكوفة في فترة حكومة الإمام علي بن أبي طالب ( عليه السلام ) ، وهو مصدر معرفتها بالإضافة إلى ما هو متعارف من الكتاب والسنة :

( إن الإمام كان على اطلاع ولاريب على أعمال أصحابه وبعضهم على الأقل كانوا من المقربين منه والعاملين في ادارته ، بل ويؤخذ مما قالته المصادر على بعض تلك التصانيف ، أنها كانت من أملائه هو ، فهذا دليل ساطع

على أنه رعى تداول العلم وتدوينه بنفسه ، بالقدر المتأتى له  
أثناء الفترة القصيرة المضطربة لحكمه )<sup>١</sup> .

الأنموذج الفكري للتشيع في هذه المرحلة كان يقتصر على دراسة القرآن و الروايات التي تقدم أوجوبة جاهزة عن الأحكام الشرعية والمعارف الإسلامية ، والتي يتم أخذها بالسؤال المباشر أو غير المباشر من الإمام ، يبدو أن هذا الحال فيما يتعلق بالروافد المعرفية لهذه المؤسسات التعليمية لم يتغير أو يتبدل بنسبة كبيرة أو مما يمكن ملاحظتها ، فالقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، و المعارف أهل البيت هي المواد الأساسية والمناهج المعتمدة في التربية والتعليم في المؤسسة التربوية والعلمية الشيعة دون سواها ، وهذا الحال استمر حتى عام ٢٥٥ للهجرة تماماً .

وفي مقابل هذا الوضع المحدود والانطواء الاجتماعي والمرتبط بشكل كبير بحدودية المدارس الشيعية التي تستفيد من روايات الأئمة فقط ، في هذه الفترة نلاحظ أن المدارس ومراكز التعليم في المذاهب الأخرى قد حققت افتتاحاً كبيراً على أنماط من التفكير في الأصول والمعارف الفلسفية والترجمات من الأمم الأخرى لم تعرف في المدارس الشيعية بعد ، وصار أنموذجها الفكري متضخماً بالمعارف والإنجازات العلمية ، مما جعل من هذه المدارس تبدو في الظاهر منقبضة ومحدودة في تطلعاتها المعرفية والعلمية ومحصورة في نقل

---

١ - جعفر المهاجر ، نشأة الفقه الإمامي ، مركز الحضارة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧ ، ص : ٤٣

الحديث عن الأئمة فقط ، الأمر الذي أنعكس على المحدودية النسبية للقاعدة الجماهيرية في هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : مع نهاية عصر الأئمة ببدأ العصر الثاني من الفقه الشيعي وهو عصر الافتتاح على المعارف الواسعة التي تأسست من قبل وصار بالإمكان محاكاة المدارس والمذاهب الأخرى ذات الانتشار الواسع ، وطراحتها في الكتابة والتأليف وبناء المدارس والمكتبات الفخمة ، والإفادة من اتجاهات التفكير غير الفقهي والذي ينحصر في طلب الأدلة الشرعية للمسائل الفرعية من القرآن والسنة ، ففي غياب الأئمة كان لابد من التصدي من قبل العلماء لسد هذه الثغرة الكبيرة ، وذلك من خلال الاجتهاد وانماء الملكة في التفكير والاستنباط واللحظة والفهم وصولاً إلى اصدار الاحكام وبناء النماذج الارشادية في الاعتقاد والسلوك .

وهنا تتطابق الفرضية التاريخية والاجتماعية لفهم دور المؤسسات التربوية والتعليمية مع هذا الافتتاح ، القائم على أساس الرغبة في الاطلاع ، وانباع الفضول ، وحب الحكمة ، والتوسيع في اتجاهات التفكير لمسايرة المجتمع وتحقيق التفوق وتسهيل وحل مشكلات الحياة ، ولماذا انتعشت الحوزات الشيعية والمدارس والمكتبات التي تهتم بالفكر الامامي أكثر من الأماكن الأخرى ، وبان دورها الحقيق انطلاقاً من مدينة بغداد ؟ بمعنى ارادة القرب من المصادر المعرفية وملاحة التقدم الذي يتحقق في هذه الحاضرة وعدم التخلف عن الركب ، بالاقتصار عما هو موجود من المنجز السابق ، الأمر الذي يستدعي

الذبول والانحسار ، وهذا ما تداركه العلمان الكبيران : محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩) و محمد بن علي الصدوق (ت ٣٨١) ، أي ي عندما رفدا بغداد مدارس و مراكز البحوث ، فيها بالمادة الاولية للفكر الشيعي والمتمثلة بالروايات الأساسية الصادرة عن أهل البيت .

ومن الواضح أن هذا الانفتاح على التوسع العلمي لم يكن ليرضي الجميع ، فقد تصدى الاخباريون فيما بعد ، وهم شريحة اجتماعية واسعة ، لم يكن ليرضيها هذا التقارب في الاتجاج والنقد والمحاكاة للفكر في المذاهب الأخرى ، وصارت هذه الجماعة من يزاود على الدين والمذهب في تكريس الاختلاف ، من دون الالتفات إلى طبيعة التغيرات الزمانية ومتطلبات الحياة والرغبة الإنسانية في تطوير التربية والتعليم ومناهج الابتكار الفكري والعمل ، وأن هذا التوسع في روافد الأنماذج الفكرية ومصادره البحثية ، هو مما يولد العلماء المجددين ويتوسّع القاعدة الجماهيرية للتشييع نفسه ، ويجذب العلماء من الاتجاهات الأخرى ، ولعل اختفاء شريحة المعتزلة ، كفئة اجتماعية يجمها التفكير العلمي والبحث الجاد هو نتيجة الانحراف العلمي في المؤسسات والمدارس الشيعية التي كانت تصرف الرواتب بسخاء ، إلى جانب افتتاحها العلمي على المجالات العلمية كافة .

وكان من ثراث هذه الفترة ، وهذا الانفتاح العلمي على المعارف السائدة ، أن تطورت نظرية المعرفة الشيعية ، وذلك بدخول العديد من العلوم في اطارها ، وانماط التفكير مثل : دخول المنطق ، والأخذ بنظرية المقاصد الشرعية ، والدفاع

عن التفكير الفلسفى والعلقى ، وتأسيس القواعد الفقهية ، وتطوير البحث المقارن ، وكذلك تطوير علم الاصول ، والإفادة من النماذج الارشادية في مجالات البلاغية والنحو وفنون كتابة التاريخ الاسلامي ، والسيرة النبوية ، واعداد الدراسات الاجتماعية والجغرافية ومعرفة الشعوب والامم والبحث في القضايا المالية والارضي .

وفي هذه الفترة التي كانت تشهد الازدهار العلمي في مذهب التشيع ومزيد من الابداع كانت المذاهب والمدارس الأخرى تعيش حالة الانكفاء والانفكاك بين التفكير العقلي المستند إلى الفلسفة والمنطق ، وبين التفكير الفقهي القائم على التمسك بما ورد عن السف فقط ، وتکفير أهل الفلسفة والعرفان ، حتى يکاد أن يشمل التکفير جميع أنماط التفكير الحر في القضايا المجتمعية والسياسية والاقتصادية بما لا يوافق توجهات السلطة الزمانية كما حصل من قتل العشرات من المفكرين ، أو هدم المرصد الفلكي التاريخي في مدينة إسطنبول بناء على هذه التصورات السلفية والتکفيرية <sup>١</sup> .

المراحلة الثالثة (ال الحديثة والمعاصرة ) : وهي مرحلة ظهور المعارف الحديثة وتقدم البحث العلمي في زمن الحداثة وانتقال العالم ومؤسساته التربوية والتعليمية من مرحلة الكتاتيب والمدارس القديمة والمحاضرات في الكنائس والمساجد ، إلى عصر التخطيط التروي وبناء المدارس الحديثة المتسلسلة في

---

١ - سامر عكاش ، مرصد إسطنبول ، هدم الرصد ورصد الهدم ، المركز العربي للأبحاث ، دولة قطر ، طبع بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧ . ص: ١٦ .

برامجها العلمية وحتى التحصيل المنتظم في الجامعات والحصول على الشهادات العالية من خلال الرسائل والأطارات ، ومن الواضح أن هذه مرحلة هي من اصابت المجتمع الإسلامي بالصدمة والذهول عندما اكتشف حجم التطور والتقدم الذي حصل في العالم ولاسيما في البلاد الغربية .

وهنا ايضاً حصل الانقسام في الحواضن الاجتماعية المعرفية ومراجها الفكرية و القائمة على ادارة المدارس الدينية ، وتمويلها المالي ، إلى جهتين ، واحدة تؤيد الافتتاح على المعارف الحديثة والمعاصرة والأخذ بهذا التعدد انطلاقاً من باب الاجتهاد المفتوح أصلاً في الفكر الامامي على من التاريخ ، وأخرى تريد البقاء على ما تحقق في العهد القديم ، وتخشى من دخول الأفكار غير الواضحة النتائج ، ومن ثم فهي ترفض التجديد في امماط التفكير ، أو التعددية في الحقول وال المجالات ، وتعد ذلك من الترويج للفكر القادر من بلاد الكفر أو غير المسلمين.

كانت ثلاثة من العلماء المجددين تتجه نحو بناء فقه اجتماعي حديث ومعاصر ينطلق من القرآن والسنة وينهل من فهم عميق للواقع الجديد ، ومن ثم الافادة من المناهج الحديثة والخصائص الفكرية وذلك من خلال نقدتها او محاكاتها في بناء النماذج الارشادية للفكر والعمل ، كما في تجارب الفكر الدستوري ، والقانوني ، أو تجربة بناء انموذج في المجالات المصرفية والاقتصادية ، أو في تقديم انموذج لدراسة بناء الشخصية يجمع بين حصائر علم النفس ونظرياته

والنظريات الاسلامية في بناء السلوك من خلال الأنماذج الأمثل في الواقع الاجتماعي أو ما يعرف بالقدوة الحسنة .

وهنا نرجع إلى فرضية البحث الأولى ، وهي الرغبة الإنسانية في طلب الكمال والارتقاء من خلال التربية والتعليم والافادة من جميع المصادر والروادف العقلية والدينية في تحقيق هذا الكمال ، ومن ثم فهو يبني وينفق كل غال ونفيس من أجل اقامة هذه المدارس والمعاهد والجامعات منذ فجر التاريخ ، ومنها يتسع للارتفاع بالمحيط والبيئة والسيطرة على المشكلات والتحديات ومن ثم تفكيرها وحلها واصلاح الاوضاع .

### **ثالثاً : من فضاء التربية والتعليم إلى فضاء المجتمع :**

يذكر هنري كوربان ، خلافاً لغيره من المستشرقين ، أن القرآن الكريم وخطب الامام علي عليه السلام وكلمات الائمة هي الملهم الاول للتفكير الفلسفى ، والبحث في الموضوعات غير الدينية في المجتمع الاسلامي ، أما الاطلاع على الغرب من خلال الترجمات التي حصلت في بداية القرن الثالث الهجري فهو في سبب يأتي في المرتبة الثانية<sup>١</sup> ، الأمر الذي يؤكّد القابلية الكامنة في المؤسسة الشيعية المدرسية ومعاهدها العلمية ومراكز التفكير وادوار العلماء فيها على الانفتاح على المعارف في الموضوعات جمِيعاً في المراحل الحقة بسبب الانتماء المباشر لمدرسة أهل البيت ، وكذلك قدرتها الانفتاح على عطاءات الآخرين

---

<sup>١</sup> - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، راجعه وقدم له : الامام موسى الصدر ، دار عويدات ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ ، ص : ٧٨ .

والإفادة منها من ناحية طالما أن الحكمة الموصولة إلى الكمال هي ضالة المؤمن ، وكذلك على قابليتها على الريادة والدخول في الحقول الواقعية والتطبيقية في الفضاء الاجتماعي من ناحية أخرى ، من أجل تحويل هذه التصورات العلمية إلى واقع أو في خدمة الواقع ، والنهوض به في ذات الاتجاه من الارتفاع والكمال المنشود للنفس الإنسانية ورغبتها في السيطرة على المحيط او التخلص من اكرهات الواقع الغاشم .

وهذا ما يفسر لنا أولاً : التعددية في الحقول المعرفية التي تفكير بها الحوزات العلمية ، كسبب من أسباب التكامل ، ومن ثم الاعتماد على انماط التفكير المقارنة والمتحدة واعتماد المناهج بلا قيود ، أو عدم انحصار هذه المدرسة في الفقه الفردي الذي ساد في الفترات السابقة رغم أن هذا الفقه هو من يشكل رافعة حقيقة في التمهيد لهذا التعدد الجديد ، والذي يمتد للحقول السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

كما يفسر ثانياً : الدور الاصلاحي والتغييري الذي لا ينفك عن طموحات المدارس والمعاهد والجامعات وربط العلم بالعمل ، فهي رغبة مرتبطة بال التربية والتعليم منذ اليوم الأول ، وكذلك الأمر في الوسط الشيعي حيث تأخذ هذه الطموحات مسارها الطبيعي نحو الكمال في ظل الظروف القائمة على الحرية الديمقراطية وفسح المجال أمام المشاركة المجتمعية العامة في التصدي لمشكلات المجتمع ، والتخليص من الهموم والمعضلات ، حيث تطالب الناس هذه المؤسسة دوماً بالتدخل من أجل النهوض بالواقع ، وأخذ دورها الاصلاحي كما هو

الحال المعروف عنها كظاهرة اجتماعية وتاريخية لم تتخلى عن هذا الدور في جميع المراحل السابقة من عصرها الفقهي الأول ، أي عصر الأئمة وسعدهم الدؤوب للتواصل مع شيعتهم المخلصين ، وكذلك في عصرها الفقهي الثاني ، أي عصر بقاء باب الاجتهد مفتوحاً ، والاندماج مع التوسيع الفكري ولاسيما في بغداد ، حيث كانت انطلاقة المرحلة الثانية ، التي افتتح فيها الدرس الشيعي على إنجازات المذاهب الأخرى ، والعلوم كما ذكرنا ثم وظفها في مزيد من الاستقطاب الاجتماعي في الواقع ،

أما بعد ظهور الحداثة ، وبروز النهضة العربية والاسلامية الثانية ، فقد شهدت المدارس الشيعية مواكبة مستمرة لهذا التجديد في الحياة ، وبروز مصلحين كبار أمثال السيد جمال الدين الأفغاني (ت ١٨٩٧) ، وهو مرجعية فكرية كبيرة في العالم الإسلامي ، والذي كان يتنتقل من حوزة إلى أخرى ، وصولاً إلى التأثير في جامعة الأزهر ، وبروز تلميذه المصلح محمد عبده ، وهذا يؤكد أن القوى الفاعلة أنها كانت تبرز من داخل المدارس والحوظات دون غيرها من المحاضن الاجتماعية ، ولعل في كواذر الثورة الإيرانية وتصنيف قياداتها على أساس الانتقام لهذه الحوزات ، شاهد كبير على هذا الأمر .

ومن يلقي نظرة اليوم على الإنجازات الهندسية والعمرانية لهذه المدارس التي بنيت في النصف الأول من القرن العشرين ، يلاحظ حجم الاستيعاب الثقافي والحضاري عند مؤسسي هذه البناءات تحتوى التجديد وضرورات التحديث وهي لا تقل عن الشرائح الاجتماعية ولاسيما الحكومية والتي قدمت بعض

الإنجازات في المجالات الأخرى ، الأمر الذي جعل من بعض الحاقدين أمثال فاضل البراك ( اعدمه صدام ١٩٩٣ ) ، الذي جعل من الحوزات الدينية كشبكات تجسس لصالح شاه ايران أولاً ثم الخميني ثانياً :

( كانت المهام الموكولة الى ملاكات المدارس الإيرانية في العراق تتركز في خدمة النظام الإيراني ، سواء في عهد الشاه أو في عهد خميني وتمثل في تأجيج نيران الطائفية وزرع الاحقاد الفارسية في نفوس الطلبة ) <sup>١</sup> .

لقد تنكر هذا المجرم ، و الذي أعدمه صدام فيما بعد بتهمة الخيانة العظمى للنظام ، تنكر لن تاريخ طويل من التسامح والافتتاح في المدارس الإسلامية سواء في بغداد ، أم في الازهر أم في الزيتونة أم في القิروان ، والتي كانت قائمة في الحقب السابقة ولو بشكل نسبي ، على أساس الافتتاح العلمي وال الحوار وقبول الآخر ، حتى ظهرت الاحزاب السياسية العلمانية في الزمن الحديث والمعاصر ، ومعها حركة الوهابية وخبثها المتصل في مجال الفكر ، ضد جميع أشكال التسامح ، فأغرت العالم الإسلامي بالأحقاد الطائفية ، وكانت هذه المظاهر السوداء قد انتشرت في الاوساط الاجتماعية قبل ظهور الثورة الإسلامية ، وليس بعد هذا الانتصار كما يحلو للبعض تصوير الوضع ، وبذلك توجد وثائق دامجة إذ تؤكد الكثير من الوثائق على تصاعد الطائفية بفعل الاحزاب

١ - فاضل البراك ، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق ، دار الرشيد ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص : ١٨٠ .

العلمانية وانتشار الوهابيين في العالم العربي ، ومنها رسالة الشيخ محمد رضا الشبيبي ( ت ١٩٦٥ ) إلى رئيس الوزراء العراقي عبد الرحمن الباز ( ت ١٩٧٣ ) في نهاية العهد العارفي ، والتي بعثها في ٢٨ / ١٠ / عام ١٩٦٥ ، أي قبل وفاة الشيخ بأيام ، وطالبه فيها بوضع حد لهذه الممارسات الطائفية التي ستأخذ العباد والبلاد نحو الخراب :

(لم تكن الطائفية مشكلة سافرة من مشاكل الحكم كما هي اليوم ، ولم تكن مصدراً باعثاً على القلق المستحوذ على الشعب العراقي كما نراه الان ، وفي العراق - كما لا يخفى - مراجع روحية ومحافل شعبية استنكرت التفرقة وكافحتها وطالبت بالإقلاع عن هذا الاسلوب المقوت ، وطالما تناول المخلصون باتباع نهج اخر تراعى فيه المساواة المطلقة التي أكدها عليها الشرائع السماوية والقوانين الوضعية ) <sup>١</sup> .

ومع سقوط الاتحاد السوفيتي وانحسار المد الاشتراكي ، وحصول الصدمة التاريخية للهوية عند الكثيرين ، لاحظنا كيف شكلت الكثير من العناصر ذات الثقافات اليسارية وكذلك المتفقين الثوريين ، أو الاصلاحيين بشكل عام ، شكلت هذه الشرائح موارد بشرية جديدة انضمت للحوزات ، وكان يهمها أن تتتحقق بالمدارس الدينية ومراکز البحث أو كانوا يشجعون أبنائهم على ذلك ، ومن ثم الإفاده العملية من فرص التدريس في الجامعات والمعاهد

---

١ - محمد رضا الشبيبي ، الصفحة الاولى من الوثيقة ، نسخة اصلية نادرة ، عام ١٩٦٥ ، من مكتبة الباحث : غالب الناصر .

الشيعية مما عز من الانفتاح في البحث وانماط التفكير بشكل غير مسبوق ، بسبب هذه الشرائح الفاعلة والمؤثرة في المجتمع.

أما بعد سقوط النظام العراقي عام ٢٠٠٣ ، فقد شكلت المدارس الدينية أو الحوزات ممول كبير للقادة والفاعليين الاجتماعيين ، فأسهموا في قيادة المؤسسات الثقافية ومراكيز البحوث ، والتدريس في الجامعات التي تأسست في ضوء الحرية الجديدة ، كما كان للطلبة والاساتذة الدور الكبير في الالتحاق بمؤسسات الحشد الشعبي والتصدي لظاهرة الارهاب ، وتشجيع الشباب على الانخراط في القتال ضد داعش .

وفي فترات مقاومة الاستعمار الذي بدأ يستمر تطوره الاقتصادي وثرائه المالي في استعمار بلدان العالم الإسلامي ، كان لهذه المدارس والطلبة والاساتذة الدور الكبير في التصدي للحركة الاستعمارية كما هو معروف ، وكان من أهم أدوار العلماء الوعيين وعلى امتداد الخط الجهادي للحوزة العلمية هو بناء جسور الثقة بين الحوزة والمجتمع عن طريق الابتعاد عن الاهداف التفعية للسياسيين في السلطات الزمنية وما يصاحبها من الدسائس والمؤامرات والصفقات السياسية المشبوهة، أو الدخول في المصالح الاقتصادية والتجارية القائمة على المنافسة والغبن والتي تتنافى مع قدسيّة العلم والعلماء الربانيين،

وكذلك المنافع المشبوهة للبنوك والاستثمارات وغير ذلك من مواطن الشبهات التي تجنبها العلماء الاعلام<sup>١</sup>.

كان بناء عنصر الثقة، يجري من خلال الالتزام الصادق وال حقيقي والواعي بالشرع والاحكام الاسلامية، والاعراف الاجتماعية المعتبرة في المرؤه والمحافظة على العدالة كجزء اساس من فكر العلماء، ومن عمل العلماء والطلبة في الحوزات التي تثقف على حب الله تعالى وليس حب الدنيا . وفي البحث الذي كتبه السيد الشهيد في اخر محاضرات السنن وعناصر المجتمع شاهد على هذا السعي الحيث على بناء الثقة بين عالم الدين الرشيد وفضاء المجتمع الذي يتطلع دوما للعلماء كأسوة حسنة، وكقدوة تمثل دور الائمه في المجتمع ويعمل الأفراد على تقليدهم والعمل بمقتضى آرائهم وسلوكهم لما يرونـه من سلوك يحاكي سلوك الانبياء والآولـياء .

وهنا كلمة أخيرة لابد منها بحق المؤسسات الاكاديمية والتربية والتعليمية والتي تأسست في الاطار العلماني بشكل عام ، في الحقب السابقة وحتى الان ، فرغـم أن هذه المؤسسات قد ابلت بلاء حسـنا في تقديم الخدمة التـربوية والـتعليمية في الواقع ، الا أنها لم تكن بمستوى التـحدـيات ولم تستطـع أن تخرجـ البلاد من براثـن التـخلف والفسـاد الذي هو الانـ الحـالة شـبهـ السـائـدةـ فيـ عـالـمـناـ اـلـاسـلامـيـ .

---

١ - عباس جعفر الامامي ، الرقابة العامة للمرجعية الدينية في العراق الحديث ، العارف للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٤ ، ص : ٦٧ .

كانت باستمرار شروط المدارس الرسمية ، ومحدوديتها في استقبال التلاميذ واعداد الطلبة ورعايتهم ، لا تلبي حاجات الواقع الكبيرة ، لا من حيث الاعمار أو من حيث شمول جميع المدن والارياف والمتطلبات الدراسة والنفقات ، وكانت هذه المؤسسات ضيقة من حيث الموضوعات والمناهج ، ولا توافق حركة المجتمع ومتطلبات التطور واللحاق بالركب العالمي في اعداد الكوادر العلمية ، من حيث القبول في الدراسات العليا ، أو مواصلة البحث العلمي لمن يرغب في التوسيع والبقاء في مقاعد البحث ، بل وكانت في احيان كثيرة تسير الكثير من هذه السياسات الرسمية في تلبية احتياجات السلطة أو ارتباطات البلد الخارجية بالاقتصاد العالمي ، أو في خدمة مؤسساتها العسكرية والخدمية الخاصة بها فقط ، من دون الاهتمام الجدي بأصل تربية الانسان والاهتمام بالمجتمع .

وهذا قد أعطى دوراً واسعاً ومتزايداً للمدارس الدينية والمعاهد العلمية ومراكز البحوث المرتبطة بها ، وأدى إلى تكوين طبقة اجتماعية فاعلة لا تعرف إلا هذه المؤسسات من التربية ، ولا تعرق الا هذا الصنف من التعليم ونمادجه الارشادية في حياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن ثم فهو مصدر رزقها الوحيد في الكثير من الاحيان ، ومن هنا تسعى إلى تطوير هذه الاكاديميات ، والدفاع عنه في جميع الاحوال ، مما يسهم في استمرار هذه المؤسسات التربوية والتعليمية كظاهرة تاريخية واجتماعية، كنسق اجتماعي ووظيفي ، ذات ارتباطات واسعة بالشارائح الاجتماعية المختلفة ، والظواهر وال العلاقات في زمن العولمة ، ولاسيما مع انتشار ظاهرة التدين عند المتلقى

للتغافف ، ودخول الاحزاب الاسلامية في قيادة العمل السياسي الحكومي ، و الحاجة المستمرة إلى الكوادر القتالية في مواجهة الارهاب ، وعدم حصر العلاقات الدولية بيد الجهات الرسمية ، وبذلك فنحن في مرحلة خاصة وحاسمة من تاريخ العالم ، تتطلب الدقة في التشخيص والتقدير وحسن الاختيار ، في التعامل مع الحوزات العلمية تجنبًا لسوء التشخيص وعدم دقة التقدير، ومن ثم الوقوع في الخيارات الخاطئة .

**المصادر:**

- أليكسيس دو توكتيل ، النظام القديم والثورة الفرنسية ، ترجمة : خليل كلفت ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ .
- جعفر المهاجر ، نشأة الفقه الامامي ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧ .
- جيجيكه ابراهيم ، حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو ، دار الامان ، الرباط ، ونشرات الاختلاف ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠١١ .
- زيفريد هونكه ، شمس العرب ، ترجمة : فاروق بيضون ، وكمال الدسوقي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
- سامر عكاش ، مرصد إسطنبول ، هدم الرصد ورصد الهدم ، المركز العربي للأبحاث ، دولة قطر ، طبع بيروت ، ط١ ، ٢٠١٧ .
- صلاح مهدي علي الفضلي ، الدور الوطني للمرجعية الدينية ، مؤسسة مصر مرتضى ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١١ .
- عباس كاظم ، الحوزة تحت الحصار ، مطبوعات جامعة الكوفة ، ط١ ، ٢٠١٨ .
- عباس جعفر الامامي ، الرقابة العامة للمرجعية الدينية في العراق الحديث ، العارف للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٤ .
- عبد العظيم كريبي ، النظام المشوش ، تحليل جدلي في مجال التربية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٣ .

- عبد الله عبد الدائم ، التراثية عبر التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٣ .
- فاضل البراك ، المدارس اليهودية والآيرانية في العراق ، دار الرشيد ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٤ .
- فرانسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة : حسين أمين ، مركز الاهرام ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٣ .
- لندا . اس . والبرج ، الاعلم عند الشيعة ، ترجمة : هناء خليف غني ، مكتبة عدنان ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٣ .
- محمد رضا الشبيبي ، الصفحة الأولى من الوثيقة ، نسخة أصلية نادرة ، عام ١٩٦٥ ، من مكتبة الباحث : غالب الناصر .
- نيكلاس لومان ، مدخل إلى نظرية الأنساق ، ترجمة : يوسف فهمي حجازي ، منشورات الجمل ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٠ .
- هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، راجعه وقدم له : الإمام موسى الصدر ، دار عويدات ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ .



## **الدراسة الرابعة:**

### **الأنموذج المقاصدي واستنباط الأحكام**

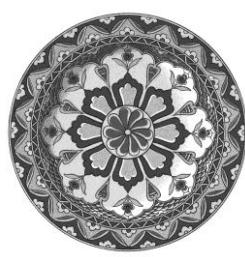
**( الوعي بالمقاصد الشرعية عند الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ( ١٨٧٧ م - ١٩٥٤ م )**

**تمهيد : التفكير بالمقاصد الشرعية والمصالح .**

**المبحث الأول : نظرية المقاصد الشرعية ووظائفها .**

**المبحث الثاني : المقاصد الشرعية ووجوب الإشهاد في الرجعة .**

**المبحث الثاني : المقاصد الشرعية ووجوب الإشهاد في الرجعة .**



(إن الثورة الكبيرة التي أخذت مجرها في حركة  
الاجتهاد لتوسيع هدفها وتعميق رسالتها وافتتاحها  
على كل مجالات حياة الأمة وأملاها وألامها ، إن هذه  
الثورة في جانب الهدف سوف تؤدي حينما يستكمل  
الهدف كل أبعاده الحقيقة إلى تغير عظيم في كثير من  
المناهج والتصورات والمواضيع )<sup>١</sup>

### التمهيد:

التفكير بالمقاصد الشرعية هو تفكير قديم يقدم الأحكام الشرعية ذاتها ، والتي ورد الكثير منها وهو معلم بالحكمة وذكر المصلحة من وراء هذه التشريعات ، حتى أن العالم الجليل أبن بابويه القمي ( ت ٣٨١ هجري ) كتب كتاباً في علل الشرائع ، وجرد في هذا الكتاب الكثير مما ورد عن أئمة أهل البيت ( عليهم السلام ) ، من الأحاديث التي تقدم تفسيراً عقلياً للأيمان بالله تعالى ، وبالرسول والغيب كما يذكر الكتاب المقاصد والمبررات الأخلاقية للصلوة والصيام والحج والزكاة وبر الوالدين وغير ذلك من الواجبات والفرائض الإسلامية كما وردت في كلمات العترة الهادية .

١ - الاجتهاد والحياة ، حوار على الورق ، اعداد : محمد الحسيني ، دائرة معارف الفقه ، بيروت ، ط ٣ ، ٢٠٠٥ ، ص : ١٥٩

لكن المقاصد الشرعية قد تم اعتمادها في المراحل اللاحقة كأنموذج جامع أرتبط بالأهداف التي تكمن وراء وضع الأحكام في الشريعة السمحاء ، وذلك من أجل بناء تصور أصولي متكامل وجامع في مجال أصول الفقه التي تمكن من استنباط الأحكام الشرعية والوجهات السلوكية في المجالات الفردية والاجتماعية معاً ، وجاء هذا التقدم في اصول الفقه خاصة عند فقهاء السلطة من كانوا على تماس بالمشكلات العامة والاجتماعية ، والتي تتخطى طرائق الاستنباط التقليدية في المجالات الفردية .

وهكذا صار التفكير الجدي بالمقاصد ، و مع التراكم العلمي له ، والبحث المستدام عن العلل الكامنة وراء الأحكام والمصالح والمقاصد ، سواء أكانت منصوصة أم غير منصوصة ، قد أفضى إلى ما يعرف بنظرية المقاصد الشرعية وإلى إمكانية الإفادة من هذه النظرية في إعادة فتح باب الاجتهاد في المذهب السنوي ومن ثم إمكانية استنباط الأحكام في المجالات التي تخدم عصر النهضة والحداثة والتقدم .

لقد أصبحت نظرية المقاصد الشرعية من طرائق التفكير أو البحث ، أو المنهجيات الملهمة في فهم الأحكام الشرعية والأطر الأخلاقية في الإسلام والاستدلال عليها بغية تنظيم المجتمع والنهوض به ، وهي أيضاً من المساحات المشتركة في التقريب بين العديد من المذاهب الإسلامية أيضاً ، وموضع اهتمام مشترك بين السنة والشيعة منذ ظهور هذه النظرية والتي أسهم في تطويرها كل من علماء المذهبين .

يذكر أنَّ العلامة الشيخ احمد محمد شاكر<sup>١</sup> وهو من علماء مصر المبحرين في علوم الشريعة واستنباط الأحكام ، ومن أجلاء مفكريها في القرن العشرين، ألف كتاباً تحت عنوان: (نظام الطلاق في الإسلام)، وأرسل نسخة من هذا الكتاب الاجتهادي والتجديدي ، إلى الإمام محمد حسين آل كاشف الغطاء في حدود عام ١٣٥٥ هـ ، والذي يراعي فيه علم المقاصد الشرعية في الوصول إلى الأحكام التي تسهم في بناء المجتمع الإسلامي كما هو مطلوب في هذه المرحلة من تاريخ البشرية ، وبيدو أنَّ العلامة أحمد محمد شاكر المصري قد خالف المذاهب السنية الأربعية التي ينتهي إليها فقهياً ، مجتهداً في أكثر من مسألة من مسائل هذا الكتاب، وقد تطابقت بالنتيجة آراؤه مع مذهب أهل البيت عليهما السلام الفقهية، في أغلب المسائل ، عدا مسألة واحدة هي:

( مسألة اشتراط الشهود في صحة مراجعة الرجل مطلقاً ، وهل يجب الإشهاد على الرجعة أم لا يجب ذلك؟<sup>٢</sup> .

١ - العلامة احمد محمد شاكر (١٨٩٢-١٩٥٨م) ، من شيوخ الأزهر الشريف ومن أئمة الحديث في مطلع القرن العشرين ، درس العلوم الإسلامية وبرع في كثير منها ، فهو فقيه ومحقق وناقد ، لكنه برع في علم الحديث الشريف حتى انتهت إليه في مصر رئاسة أهل الحديث في عصره ، كما اشتغل بالقضاء الشرعي حتى نال عضوية المحكمة العليا في مصر . وأما كتابه : نظام الطلاق في الإسلام فقد اجتهد فيه اجتهاداً حراً ، ولم يتعصب لمذهب من المذاهب الإسلامية .

٢ - مجلة أفق نجفية- العدد الثاني - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م - النجف الاشرف- ص : ٣٦٥ .

الإمام كاشف الغطاء، بعث برسالة إلى العلامة المصري، أشاد فيها بموافقه الفكرية التجددية الشجاعة تجاه المسائل الخلافية في باب الطلاق التي اتفقت كلمات المذاهب الأربع على العمل بها، قال:

( فمثـل – طلاقـ الثلاـث، وـ طلاقـ الـحائـضـ، وـ الـحـلـفـ بـ الـطـلاقـ  
وـ الـعـتـاقـ وـ أـمـاثـلـهـ مـنـ القـضـاـيـاـ التـيـ لـمـ تـزـلـ مـنـ عـهـدـ قـدـيمـ مـنـ  
الـمـسـلـمـاتـ الرـائـجـةـ عـنـ جـمـهـرـةـ الـمـسـلـمـينـ، وـ يـدـعـىـ اـتـفـاقـ  
المـذاـهـبـ الـأـرـبـعـةـ عـلـيـهـاـ، إـذـاـ نـهـضـ رـجـلـ فـيـ هـذـاـ الـعـصـرـ يـهـدـمـ  
تـلـكـ الـمـبـانـيـ الرـائـجـةـ بـعـولـ الـحـجـةـ الـبـالـغـةـ، وـ الـبـرـهـانـ الـقـاطـعـ،  
أـفـلاـ يـكـونـ شـجـاعـاـ، وـ عـالـماـ نـحـرـيرـاـ )<sup>(١)</sup>.

هـكـذـاـ جـاءـتـ أـبـحـاثـ هـذـاـ عـالـمـ الـمـصـرـيـ وـ تـحـقـيقـاتـهـ بـنـتـائـجـ تـطـابـقـ مـعـ أـرـاءـ  
وـ أـحـكـامـ مـذـهـبـ الـإـمـامـيـةـ، وـ بـقـيـ مـصـرـاـ عـلـىـ الـخـلـافـ فـيـ مـسـأـلـةـ الـإـشـهـادـ عـلـىـ  
الـرـجـعـةـ، فـذـهـبـ إـلـىـ وـجـوبـ الـإـشـهـادـ، خـلـافـاـ لـمـذـهـبـ الـإـمـامـيـةـ وـ حـكـمـهـمـ بـعـدـ  
وـجـوبـ الـإـشـهـادـ وـمـنـ هـنـاـ قـالـ كـاـشـفـ الـغـطـاءـ مـخـاطـبـاـ الـعـلـامـةـ الـمـصـرـيـ:

( وـقـدـ وـافـقـتـ آـرـاؤـكـ السـدـيـدـةـ فـيـ تـلـكـ الـمـسـائـلـ مـاـ اـتـفـقـتـ عـلـيـهـ  
الـإـمـامـيـةـ مـنـ صـدـرـ الـإـسـلـامـ إـلـىـ الـيـوـمـ، لـمـ يـخـتـلـفـ فـيـهـاـ مـنـهـمـ  
اثـنـانـ، حـتـىـ أـصـبـحـتـ عـنـهـمـ مـنـ الـضـرـورـيـاتـ، كـمـ اـتـفـقـواـ )

على عدم وجوب الإشهاد في الرجعة، مع اتفاقهم على  
لزومه في الطلاق، بل الطلاق باطل بدونه<sup>(١)</sup>

يعنى أن تحدد الخلاف بين العالمة احمد محمد شاكر والإمام كاشف الغطاء  
بشأن مسألة وجوب الإشهاد على الرجعة وعدم الوجوب ، إذ ذهب العالمة  
إلى وجوب الإشهاد فيها ، بوحدة المناط وعدم الفرق بين الطلاق والرجعة  
الواردين معاً في الآية الشريفة الواردة في سورة (الطلاق)<sup>(٢)</sup> والتي ذكرت  
الطلاق ثم ذكرت الرجعة ثم ذكرت : وأشهدوا ذي عدل ، فقال أحمد محمد  
شاكر:

(ذهب الشيعة إلى وجوب الإشهاد في الطلاق ، وأنه ركن من  
أركانه ، كما في كتاب شرائع الإسلام... ولم يُوجّبوا في  
الرجعة ، والتفريق بينهما غريب ولا دليل عليه)<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت نظرية المقاصد الشرعية، نظرية مقبولة في الجملة ومحبطة عند  
المذاهب الإسلامية عامة ، ولاسيما في المذهب الإمامي الذي ينظر إليها باعتبار

١- المصدر نفسه - ص ٣٥١

٢ الآية : (إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لَعَذْتَهُنَّ وَأَحْصُوْا العَدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا  
تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ وَتَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ  
حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لِعَلَّ اللَّهَ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (♦) (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ  
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ) . سورة الطلاق.

٣- الشيخ احمد محمد شاكر- نظام الطلاق في الإسلام- ص ١٢٠

أنها من المشتركات بين المذاهب ، فقد احتمكم كل من الأستاذ شاكر المصري والإمام كاشف الغطاء إلى نظرية المقاصد الشرعية.

وسنرى في هذا البحث كيف أن كاشف الغطاء قد التزم حرفيًّا بحتوى هذه النظرية، بما يدل على وعيه العميق بمقاصد الشريعة الإسلامية السمحاء ، وأطلاعه وهضمه واستيعابه ، ودقة تطبيقه لها في الموارد الاستنباطية ، كما في هذا المورد وهو عدم وجوب الإشهاد على الرجعة، فيما سنلاحظ أن الأستاذ المصري لم يتلزم بنظرية مقاصد الشريعة وقدم فيها قراءة تأوليه تتضارب فيها مستويات الفهم ، بين مقاصد الشريعة الجزئية ومقاصدها المجالية والكلية العامة القائمة على التسهيل والتسامح في تمثيلية أمور العباد وقضاء حوائجهم ، وسنحاول في بداية هذا البحث التعرف على نظرية المقاصد الشرعية ووظائفها كمدخل لابد منه لفهم كيفية استفادة الإمام كاشف الغطاء من هذه النظرية وتوظيفها في رفع الخلاف وتعضيد الأدلة للمناهج التقليدية في علم الأصول وطرائقه في التوصل للأحكام الشرعية في كل واقعة .

لقد جاء الاهتمام بنظرية المقاصد الشرعية في إطار الدعوات المتصاعدة في العالم الإسلامي من أجل تجديد الفقه والأصول والارتقاء بهما إلى مستوى الإصلاح والنهوض والتغيير في العالم الإسلامي الذي تفاقمت مشكلاته في المجالات كافة بفعل سيادة الروح التقليدية واستصحاب الوسائل السابقة والأدوات العتيدة في حل هذه المشكلات العامة .

في هذا البحث سنتقف عن تصورات الشيخ كاشف الغطاء المقصادية ووعيه بالعمل في ضوء هذه القواعد ، وذلك بعد أن نستعرض أصل الفكرة والنظرية ، وهذا هو مقتضى الدرس الاصولي المعاصر الذي يقوم على أساس بيان القاعدة الاصولية وبياناتها الأساسية التي يمكن أن تقدم فيها واستعراض أدلةها القطعية ، ومن ثم كيفية تطبيقها بدقة على مواردها المختلفة في الحقول الفقهية :

## المبحث الأول :

### نظريّة المقاصد الشرعية ووظائفها.

المقصد في التعاريف اللغوية ، هو الغرض والهدف والنية والغاية والمآل ، ومن هنا تم تعريف المقاصد الشرعية عند محمد الطاهر بن عاشور بأنها هي : الغايات والأهداف والأغراض من وراء الأحكام الإسلامية<sup>١</sup> ، وجدورها ترجع إلى استعمال كلمة المقاصد عند ذكر الفقهاء لبعض العبادات والغرض من تشريعها وما تستهدفه من البناء الأخلاقي للإنسان ، ومن ثم صارت فيما بعد ، هي الأساس الأصولي في بناء النظم والسياسات التي تخدم المصالح العامة ، وأخيراً تم توظيفها في بناء النماذج الفقية المعاصرة ، كما في تجربة اكتشاف أسس الاقتصاد الإسلامي ، ولذا جاء في تعريفها في بعض البحوث المعاصرة بأنها :

(هي المبادئ والقيم التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية : كالعدل والكرامة الإنسانية وحرية الاختيار والسماحة والتسهيل والتكافل الاجتماعي ، وهذا يعني أن مقاصد الشريعة تمثل صلة

---

١ - محمد الطاهر ابن عاشور ، بحث في مقاصد الشريعة ، ترجمة : محمد الطاهر الميساري ، ج١ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن ، ٢٠٠٦ ، ص : ١٨٣ .

## بين التشريع الإسلامي وبين المفاهيم المعاصرة كحقوق الإنسان والتنمية والمدنية ١.

ونتيجة أهمية هذه الموضوعات بالنسبة للمجتمع ، توجهت الأنظار إلى المقاصد الشرعية كجزء حيوي من تطور البحث الاصولي يستهدف النهوض بالتعريف بالتكاليف العامة ، والمهام أو الوظائف الخاصة بالمجتمع ، وتكوين الضامن الشرعي والأخلاقي للنهضة والتقدم في عصر التطور والإبداع والصراع على الهيمنة على قدرات العالم من موقع التفوق والغلبة في السياسة والاقتصاد والتنظيم والتقنية وغير ذلك .

من هنا صار الكلام عن المقاصد الشرعية يقع تارة في بيان أصل النظرية ومفادها ، من حيث الأجزاء والمكونات وشروط الاستعمال ، وتارة أخرى في بيان ما يتوقع من فوائدها ووظائفها في الحقول وال المجالات الفقهية ، ولغرض توضيح ذلك يتنظم هذا البحث في مطلبين الاول : في النظرية المقاصدية ، والثاني في وظائفها ، وكما يأتي :

---

١ - جاسر عودة ، مقاصد الشريعة ، تعریب : عبد اللطیف الخیاط ، المعهد العالمي للفکر الاسلامی ، فرجینیا ، طبع مكتب بيروت ، ٢٠١٢ ، ص : ٢٩ .

## **المطلب الأول: النظرية المقصادية**

تم تقديم هذه النظرية من قبل الفقهاء في إطار صنفين من البيانات:

### **الصنف الأول:**

قدم هذه النظرية على أنها آليات للوصول للمعاني والأحكام الجامعة ، فهي تقدم كخطابات جامعة ، خفية ، أو مضمرة ومن ثم فهي مستتبطة من مجموعة من النصوص الشرعية الدالة عليها بالدلالة الواضحة التي لا ريب فيها ، أما **الصنف الثاني**: حيث تقدم المقصاد على أنها احكام يمكن أن تستخرج من مجموعة من الأحكام الأخرى في مجال فقهي معين ، بمعنى أنها مجموعة من الأحكام الكلية التي تحكم ذلك الحقل الفقهي ، وسنحاول التعرض لهذه البيانات في إطار هذه الدراسة.

### **الصنف الأول:**

وهو: البيانات التي قدمت نظرية المقصاد الشرعية على أنها آليات استنباطية ، أي لا تعدو أن تكون قواعد تقع في طريق الوصول للحكم الشرعي ، وهي بهذا المعنى لا تتجاوز مسالك الاصوليين في التعرف على الأحكام من خلال الأمارات الظنية المتعارفة في الاستنباط الفقهي ، كحجج في حدود التعذير أو التجيز الممكن في حق المتلقي ، أو باعتبار أنها تمثل أنماطاً من الحجج الطريقة و الكاشفية المؤدية بالظن المعتبر إلى هذه الأحكام الشرعية ، وهي مبنياً مذكور في كلمات الاصوليين أمثال الشيخ الآخوند قدس في الكفاية ، وكتابات

الشيخ النائيني قدس سره ويمكن رصد بيانين في هذا الصنف ورداً في كلمات العالمة الشيخ علي حب الله في كتابه دراسات في فلسفة أصول الفقه والشريعة ونظرية المقاصد :

### **البيان الأول : الخطاب الجامع للنصوص :**

ويقدم هذا البيان المقاصد الشرعية، باعتبارها خطابات كلية، و يعرف الخطاب بأنّه:

( جملة من المطوقات الأدائية التي تتنظم في سلسلة معينة لتبني  
على نحو تأريخي ، دلالة ما ، وتحقق أثراً معيناً ) ١ .

يعنى أنَّ تجميع شبكة من النصوص الشرعية ولاسيما في مجال معين من المجالات الفقهية مثل النصوص الشرعية في مجال الأسرة ، ومن هذه النصوص يؤلف خطاباً كلياً جاماً، ومؤدى هذا الخطاب لابد أنَّ يكون معنى كلياً جاماً، هو بثابة مقصد عام وكلّي من مقاصد الشريعة ، جاء في عرض هذا البيان :

(أنَّ الكليات المستنبطة من شبكة النصوص تجمعها مبادئ  
كلية واحدة ومشتركة والتي تعبر عن تطور واسع ومهم في  
مجال قراءة النصوص الدينية من خلال علاقتها التركيبية

---

١ - النص القراني - ص ١٧ - نقلًا عن د. ليث شبر - استنباط المعنى / رسالة دكتوراه -  
بغداد ٢٠٠٣

بعضها البعض، تحدث جدلية حادة بين الكليات وبين الجزئيات المستخرجة منها حين معاودة تنزيل هذه الكليات عليها، وهذه الجدلية تودي إلى المراكبة مع تجذر الوعي وتطور المعرفة، ومناهج البحث، وتاليًا التحكم بحركة التفكير في النص، مؤسساً بذلك مرجعية ترفع فوضى الاجتهد القائمة على تأويل النصوص بما لا يتناسب مع طرق الدلالة والبيان، وحينئذ تصير ثنائية تناهي النصوص ، و لا تناهي الحوادث غير ذي بال، بعدما فرضنا خصوبة الكليات وقدرتها على الإنجاب<sup>١</sup>)

وهكذا تم تقديم نظرية المقاصد الشرعية كنص جامع وخطاب كلي وأالية من آليات اكتشاف المعنى وبالتالي فهي مشمولة بمحجية الظواهر، كما هو عليه الحال في الجمع بين العام والخاص سواء المتصل أو المنفصل، وذهب بعض الباحثين إلى شرعية واعتبار الأحكام المستفادة من هذه الآلية المقاصدية ، وأنها حجة قال:

( الحكم المستبطن اعتماداً على نظرية المقاصد ورعاية المصالح، يجوز التبعد به شرعاً، لأنَّه اعتماداً على النصوص الكلية المستخرجة بالاستقراء من النصوص الحفيدة، وهي

---

١ - الشيخ علي حب الله- دراسات في فلسفة أصول الفقه والشريعة ونظرية المقاصد- ط دار الهادي. ٢٠٠٥- ص ١١٧ .

متيقنة الاعتبار أو مظنونة على أقل تقدير، تشمله الأدلة الدالة على لزوم إتباع هذا الفتن، لأنّه ليس غير مجموع النصوص)<sup>١</sup>.

هكذا اعتمد هذا البيان على فرضية تجميع النصوص للخروج منها بخطاب جامع، كلي و يؤيد هذا البيان تعريف الأحكام بالخطابات الشرعية المتعلقة بأفعال المكلفين ، كما هو مشهور عند الأصوليين في تعريف الحكم ، أما إذا أشكلنا على هذا التعريف بالإشكال الذي ذكره السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رحمه الله ) من أنَّ الخطاب إنما هو كاشف عن الاعتبار وهو الحكم، بمعنى أنَّ الحكم هو مدلول الخطاب وليس نفس الخطاب ، ومع كون جملة من الأحكام ليست مستفادة من النصوص الشرعية مباشرة ، أي تمت استفادتها من الدليل الليبي، فلا بد من إيجاد بيان آخر يستخرج المقاصد من نفس الأحكام.

## البيان الثاني : الجامع الأعم من النصوص والأحكام.

وهذا البيان كالسابق يأتي في إطار تحديد آلية من آليات الوصول إلى المقاصد الكلية فهو يستفيد من الأدلة النصية كما يستفيد من الأدلة الليبية كإجماع ، فهو بيان يجمع بين النقل والعقل ، أي بيان جامع يمكن أن يستوفى فيه جامع

النصوص وجامع الأحكام، أي لخاطر أدراك العقل المستقل وغير المستقل  
فالآن عن هذا الجامع الأعم :

( روئيتنا للنظرية من اعتبارها البنية الأساسية للإحکام الشرعية، وأنها النص الخفي الجامع لشباتها والنظام لمترقباتها، والاهم من كل ذلك : كون العقل العملي هو مدرك للحسن والقبح في الأحكام، إلى القول بـالملازمة العقلية بين ما يدرك حسنة العقل وحكم الشرع على طبقه، والقول بأنَّ الأحكام تابعة للمصالح والمقاصد في متعلقاتها، فإذا أصابها المجتهد المزاول للاجتهاد المطلق فهو، وإنما فاجتهاده خاطئ) <sup>(١)</sup>.

ولعل هذا البيان الجامع هو الذي قصده السيد الشهيد الصدر في بحثه عن النظرية في الاقتصاد الإسلامي ، وإمكانية اكتشاف النظرية من خلال

( فمن الممكن اكتشاف المذهب عن طريق القانون اذا كنا على علم بالقانون الذي يرتکز على ذلك المذهب المجهول، وهكذا يصبح من الواجب على عملية الاكتشاف ان تقتنص عن اشعاعات المذهب في المجال الخارجي، اي ابنيته العلوية واثاره التي ينعكس ضمنها في مختلف الحقول، لتصل عن طريق هذه

---

١ - الشيخ علي حب الله ، مقاصد الشريعة ، ص ١٠٣ .

الاشعارات والآثار الى تقدير محمد لنوعية الافكار والنظريات  
في المذهب الاقتصادي الذي يختفي وراء تلك المظاهر )<sup>١</sup>.

ومن الواضح أن مثل هذه العروض للمقاصد الشرعية هي مقبولة في الجملة  
ولاسيما في مجال المعاملات ومحاولات اكتشاف أو محاولات بناء المنظومات  
الكبرى لخدمة المجتمع في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية  
وغيرها ، وي يكن تأكيد حجية مثل هذه الخطابات كما في هذا البيان بلاحظة  
الأمور الآتية:

الأمر الأول: أنَّ ما كان من مقاصد الشريعة متزع من النصوص فهو مشمول  
بأدلة حجية الظواهر في نصوص الكتاب والسنة .

الأمر الثاني: أنَّ ما كان من مقاصد الشريعة متزع وملازم للأحكام فهو  
مشمول بأدلة حجية الملزمات العقلية.

وهكذا يستفاد من هذين البيانيين تقديم نظرية المقاصد الشرعية باعتبار أنَّها آية  
وطريق كاشف للأحكام الظاهرة.

الأمر الثالث : أنَّ ما كان من مقاصد الشريعة قد استقل العقل بإدراكه كأمر  
حسن لابد منه في حفظ : الدين والنفس والعقل والعرض والمال، فهو مشمول  
بأدلة حجية الدليل العقلي.

---

١ - الصدر، اقتصادنا، مركز الابحاث والدراسات التخصصية في فكر السيد الصدر، طهران، ط١ . عام ١٩٧٩ م ص ٤٣٣ .

## **الصنف الثاني : نظرية المقاصد الشرعية / أحكام كلية :**

يمكن اعتبار هذا التقديم بياناً ثالثاً للمقاصد الشرعية باعتبار أنها أحكام كلية أو قواعد تشريعية على غرار القواعد الفقهية الموجودة في الفقه الإسلامي ، وهذا البيان هو الذي ذكره الشاطبي في كتابه المواقفات ، فقال :

( الأحكام الجزئية يقصد بها أن تدعم القواعد الكلية ، والتي هي مقاصد الفقه التي يجب الحفاظ عليها )<sup>١</sup>

إذ اعتمد الشاطبي نفس الأحكام التفصيلية في الفروع الفقهية والفتاوي كمصدر للخروج بالغايات والمقاصد الشرعية ، وذلك في إطار من المنهج الاستقرائي حيث يعمد الشاطبي إلى استقراء أحكام الشريعة ومن ثم الخروج منها بمعنى جامع كلي يمثل حكماً شرعاً كلياً ، مثل حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ العقل ، وحفظ العرض وحفظ المال .

وعلى هذا الأساس قدمها أيضاً الباحث عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه وقال:

( هذه القواعد التشريعية استمدتها علماء أصول الفقه الإسلامي من استقراء الأحكام الشرعية ، ومن استقراء عللها وحكمها التشريعية ، ومن النصوص التي قررت مبادئ تشريعية عامة وأصولاً تشريعية كليلة . وكما تجب مراعاتها في

---

١ - الشاطبي ، المواقفات ، جزء ٢ ، ص ٦١ .

استنباط الأحكام من النصوص تجب مراعاتها في استنباط  
الأحكام في ما لا نص فيه )<sup>١</sup>

و هذا البيان هو المقصود في جميع الكلمات التي قدمت المقاصد الشرعية وبطليها الشاطبي ، يقول الأستاذ حسن محمد جابر :

( استند الشاطبي في محاولاته في ضبط المقاصد وحصرها إلى تصور يفترض فيه قدرة الأحكام التفصيلية والفتاوي وغيرها مما استتبّه المسلمون في حقل الفقه على التعبير عن غaiات الشرع، ومقاصده، وهذا ما دفعه إلى الحكم بيقينية التائج التي ستؤدي إليها المتابعة الاستقرائية للإحکام )<sup>(٢)</sup>.

وفي المواقف يؤكّد الشاطبي بأنَّ ما ذهب إليه من استقراء للإحکام ومن ثم الخروج منها بأحكام كلية أنَّما هو ليس من باب تحكيم العقل في الشريعة ، وإنما العقل ينظر من وراء إحكام الشرع، وإذا تعاضد العقل والنقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أنْ يتقدم النقل فيكون متبعاً ويتأخر العقل فيكون تابعاً ومن هنا قال الشاطبي عن مقاصد الشريعة واصفاً إياها بالوضعية:

( إنْ كانت وضعية لا عقلية فالوضعيات قد تجاري العقليات في إفاده العلم القطعي، وعلم الشريعة من جملتها إذ العلم بها مستفاد من الاستقراء العام الناظم لأنشطات إفرادها، حتى

١ - عبد الوهاب خلاف ، علم أصول الفقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ١٥٧.

٢ - حسن محمد جابر ، المقاصد الكلية والاجتهاد المعاصر ، دار الحوار - ٢٠٠١ ، ص ١٩٠.

تصير في العقل مجموعة في كليات مطردة، عامة ثابتة غير زائلة ولا متبدلة وحاكمة غير محكوم عليها، وهذه خواص الكليات العقلية، وأيضاً فأنَّ الكليات العقلية مقتبسة من الوجود وهو أمر وضعى لا عقلى، فاستوت مع الكليات الشرعية بهذا الاعتبار وارتفع الفرق بينهما<sup>(١)</sup>

بدأ بهذه المقاصد العلامة الجويني وحددها بالأمور الآتية فقال :

( ونحن نقسمها إلى خمسة أقسام احدها ما يعقل معناه وهو أصل ويقول المعنى المعقول منه إلى أمر ضروري )<sup>(٢)</sup>.

وتمام هذه الأقسام هو :

- ١- الضروريات : وهي الأحكام التي من شأنها الحفاظ على ضروريات الحياة ، مثل القصاص.
- ٢- الحاجيات : وهي الأحكام التي توفر المستلزمات العامة لحياة الإنسان.
- ٣- الأحكام التي تحقق للإنسان التحلية بالكرامة والابتعاد عن النواص والخبائث ، مثل أحكام الطهارة .
- ٤- الأحكام المستحبة غير الدخلة في المجتمع السابقة .
- ٥- الأحكام التي لا تكون فلسفتها ومبرراتها واضحة بالنسبة لنا .

---

١- أبي إسحاق الشاطبي ، المواقف في أصول الشريعة ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٣ ، ج١ ، ص٥٤.

٢- الجويني ، البرهان في أصول الفقه ، ج٢ ، ص٦٢.

ثم عرفت الضروريات من هذه المقاصد بالضروريات الخمسة وهي: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ العرض والمال وسار على ذلك كل من جاء بعده أمثال الشاطبي والطوفي وابن عاشور وغيرهم. قال الأستاذ عبد الكريم زيدان :

(الضروريات ويقصد بها : المصالح التي تتوقف عليها حياة الناس وقيام المجتمع واستقراره، بحيث إذا فاتت اختل نظام الحياة وساد الناس هرج ومرج، وعمت أمرهم الفوضى والاضطراب ولحقهم الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة)<sup>١</sup>

ويبدو أنَّ هذه النظرية معترف بها في الفقه الإمامي، يقول الشيخ جعفر سبحاني :

(أنَّ الشيعة الإمامية عن بكرة أبيهم أكدوا على أنَّ الأحكام الشرعية تابعة للمقاصد والأغراض، فلا واجب إلا لصلحة في فعله ولا حرام إلا لمفسدة في اقترافه وقد تحقق عندهم أنَّ للتشريع الإسلامي نظاماً لا تعترىه الفوضى).<sup>٢</sup>.

١- د- عبد الكريم زيدان ، الوجيز في أصول الفقه - الدار الإسلامي - الأردن ١٩٩٦ - ص ٣٧٩

٢- جعفر السبحاني - أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه - مؤسسة الإمام الصادق - قم - ص ٣٣٥

أخذ بهذه المقاصد كل من الشهيد الأول ، و كذلك المقداد السيوري (قدس سرهما ) ، فعندما تحدث الشهيد الأول عن الوسائل التي يتوصل بها الشرع إلى أغراضه قال:

(الوسيلة الرابعة: ما هو وصلة إلى حفظ المقاصد الخمسة وهي:  
 النفس، والدين ، والعقل، والنسب، والمال، التي لم يأتِ  
 تشريع إلا بحفظها، وهي الضروريات الخمس، فحفظ النفس  
 بالقصاص، أو الديمة أو الدفع ، وحفظ الدين بالجهاد وقتل  
 المرتد ، وحفظ العقل بتحريم المسكرات والخد علية ، وحفظ  
 النسب بتحريم الزنا وإتیان الذكران والبهائم وتحريم القذف  
 والخد على ذلك ، وحفظ المال بتحريم الغصب والسرقة والخيانة  
 وقطع الطريق والخد والتعزير عليها. الوسيلة الخامسة: ما كان  
 مقوماً جلباً المصلحة ودفع المفسدة وهو القضاء والدعوى  
 والبيانات ، وذلك لأنَّ الاجتماع من ضروريات المكلفين وهو  
 مظنة للنزاع، فلا بد من حسم لذلك وهو الشريعة ولا بد لها من  
 سائس وهو الإمام ونوابه، والسياسة بالقضاء وما يتعلق به  
 وبهذه المقاصد والوسائل تننظم كتب الفقه) .

ونلاحظ أنَّ نفس هذا الكلام موجود عند المقداد السيوري اذ قال:

(الرابعة) : ما هو وسيلة لحفظ المقاصد الخمسة وهي ، النفس ، والدين ، والعقل ، والنسب ، والمال ، التي لم تأت شريعة ألا بحفظها )<sup>١</sup>

وقد قدم الشيخ مالك مصطفى العاملبي في كتابه : (مقاصد الشرع بين الإفراط والتفريط ) عرضاً رائعاً لجهود الإمامية في بحث المقاصد الشرعية اثبت فيه عناية علماء الإمامية بهذا المجال من البحث وعرض لنماذج مهمة ثم قال :

( هذه نماذج قليلة ذكرناها في التمهيد لمجرد الإشارة السريعة إلى أنَّ مصطلح المقاصد لم يكن مغفولاً عنه في الفقه الإمامي ، وسيتبين عند البحث في التفاصيل الآتية أنَّ علماءنا اعتنوا بشكل كبير بهذا الأمر وجعلوا له ضوابط وشروطًا كانت في حد نفسها من بدائع الفكر الإمامي تميز به بشكل واضح عن سائر المذاهب الأخرى )<sup>٢</sup>.

وفي ضوء هذا الكلام يتبين أنَّ نظرية المقاصد الشرعية ما هي ألا تجسيد أو هي المعادل الموضوعي للمصالح والمقاصد والأغراض في نفس المأمور به أو المنهي عنه من الأعمال ، وقد ذكر الشيخ الأعظم الخراساني هذا المطلب في مبحث دوران الأمر بين الأقل والأكثر الارتباطيين ، وذلك عند الشك في المكلف به

١- المقداد السيوري- نظم القواعد الفقهية - ص ٦٢

٢- الشيخ مالك مصطفى وهبي العاملبي - مقاصد الشرع بين الإفراط والتفريط - دار الهادي - بيروت - ٢٠٠٧ - ص ٢٩

فذهب إلى وجوب الاحتياط ، ومن ثم الإتيان بما هو أكثر مصلحة في بعض الموارد قال:

(أنَّ الغرض الداعي إلى الأمر لا يكاد يحرز ألا بالأكثر ، بناءً على ما ذهب إليه المشهور من العدلية من تبعية الأوامر والنواهي للمصالح والمفاسد في المأمور بها والمنهي عنها ، وكون الواجبات الشرعية ألطافاً في الواجبات العقلية ، وقد مر اعتبار موافقة الغرض وحصوله عقلاً في اطاعة الأمر وسقوطه ، فلا بد من إحرازه في إحرازها – بالأكثر – كما لا يخفى<sup>١</sup>).

وهكذا يتضح من خلال البيانات السابقة ، جميعاً ، يتضح أنَّ موارد العمل بنظرية المقاصد الشرعية ، تارة ترد في إطار صغريات الظواهر النصية وحجيتها ، وأخرى في إطار صغريات الدليل العقلي ، أي ترد كقاعدة صغيرة ، وبضمها إلى قاعدة كبرى كحجية الظواهر مثلاً تنتج حكماً ما ، وأخرى ترد مقاصد الشريعة كقواعد كلية يمكن الاستفادة منها في التطبيق واستنتاج الأحكام الجزئية كما يمكن الاستفادة منها في الاستنباط واستنتاج الأحكام الكلية ، أي على غرار القواعد الفقهية الموجودة في الفقه الإسلامي وخاصة القواعد الفقهية العقلية التي تعرف بالاستقراء وملاحظة الأشباه والنظائر

---

<sup>١</sup> الشيخ محمد كاظم الخراساني - كفاية الأصول - مؤسسة النشر الإسلامي - قم - ص ٤١٤

والخروج منها بقاعدة كلية جامعة ، كما هو الحال في القاعدة المعروفة بوجوب الوفاء بكل دين ثابت على الميت ، ومن ثم فتشمل هذه القاعدة وجوب الوفاء بما على الميت من العبادات الفائتة مثل الحج الواجب وغيره أيضاً ، فيكون قضاها من نظائر القضاء للديون .

## **المطلب الثاني : في وظيفة المقاصد الشرعية**

من الوظائف الأساسية للمقاصد الشرعية ما يأتي:

**أولاً:** التحفظ على الواقع من خلال التحفظ على المقاصد الشرعية الكلية الكبرى، ولا سيما عند طائفة الفقهاء المصوبة الذين هم بحاجة إلى موجهات تكون بديلاً عن الواقع المراد إدراكه أو التحفظ عليه من خلال الأحكام الظاهرية .

**ثانياً:** ترجيح أحد الحكمين المتعارضين أو المتزاحمين في باب التعادل والترجح من علم الأصول. من خلال مطابقة الحكم الراجح لمقاصد الشرعية الكلية، وهذه الوظيفة هي المقصودة بالبحث عند الإمام كاشف الغطاء في هذه الدراسة.

**ثالثاً:** كون التعرف على المقاصد من مصادر التشريع، بحيث يكتشف الحكم الشرعي من العلم بالغرض. وقد ذكرنا سابقاً أنه من الصعب تصور موقع نظرية المقاصد الشرعية كمصدر من مصادر التشريع كما هو عليه الحال في الخبر الواحد والظواهر والإجماع، فمقاصد الشرعية إما أنْ تصنف كقواعد فقهية أو صغيريات في داخل الدليل العقلي أو الظواهر، ولذا قال الشيخ علي حب الله تلخيصاً لكلام الشاطبي:

(أنَّ نظرية المقاصد لا تملك أي قيمة تعويضية للطرق القطعية الآيلة إلى ثبت ما هو ظني في نفسه، ولا تعدو - والحال

كذلك - أن تكون إضافة أو تجميعاً كمياً يرفع قيمة اعتبار الطرق والمصادر ، وبعبارة أخرى : أن لكل مصدر دليل حججية القطعي ، ونظرية المقاصد لو أخذت مستقلة، لا تملك أن تكون بديلاً عن هذه الأدلة، فهي إذن إضافة كمية على أدلة حججية الطرق أي المصدر<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ الاهتمام المتزايد بنظرية المقاصد الشرعية في كثير من كتابات علماء الإمامية كما هو عليه الحال عند الشيخ النائيني والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ عبد الكريم الزنجاني ، والشيخ محمد مهدي شمس الدين والعلامة السيد محمد حسين فضل الله ، (قدست أسرارهم جميعاً) كما تزايد الاهتمام بهذه النظرية في الآونة الأخيرة في أوساط فقهاء الشريعة والقانون لما تمتلكه من طاقة في رفد الحركة التجددية والنهضوية في الفكر الإسلامي المعاصر وقدرة على تحرير عوامل النهوض الحضاري والتغيير من خلال تقديم اطار جديد للفكر الاصولي يمتد نحو معالجة القضايا الكبيرة والمشكلات بناء النماذج الإسلامية في مجالات : الاقتصاد والمجتمع والسياسة والإدارة وغير ذلك :

( لقد بدأ الاتجاه المقاصدي يتبلور بوضوح في آثار جماعة من الدارسين في الحوزة العلمية أخيراً ، وهذا ما نلاحظه في الكتابات

---

١ - الشيخ علي حب الله ، دراسات في فلسفة أصول الفقه ، دار الهادي بيروت ،

المتنوعة حول (المصلحة) وإثرها في التشريع الإسلامي ، ودراسة  
اثر الزمان والمكان في الاجتهاد ، والاهتمام بالأبعاد الاجتماعية  
للفقه ، ومراقبة الضرورات والأولويات في تطبيق الشريعة<sup>١</sup> .

وبعد هذا المدخل التعريفية بفكرة المقاصد الشرعية ، وما يتوقع من وظائفها في  
مجال اكتشاف الأحكام الشرعية وضبط الراجح منها ، نصل إلى صلب البحث  
وهو في الوعي المقاصدي عند الشيخ كاشف الغطاء .

---

١- عبد الجبار الرفاعي ، المشهد الثقافي في إيران فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة – دار  
الهادي ٢٠٠١ - ص ٣١

## المبحث الثاني :

### المقاصد الشرعية ومنظومة الأحكام الشخصية (وجوب الإشهاد في رجعة المطلقة)

منظومة الأسرة هي الأصل الأصيل في بناء المجتمع الإسلامي ، وهي وحدة بناء المجتمعات جمِيعاً ، والأسرة هي المولد الحقيقى للشخصية، ومن ثم المساهمة المبكرة في بناء الأفراد قبل التدخل الجتماعي ، ومن ثم لا معنى عن البحث والجدل فيما إذا كانت الأصلالة هي للفرد أم للمجتمع ، طالما أن الأسرة من الأب والأم ، هي حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع ، ومن هنا تعد التشريعات والتعليمات والارشادات والقوانين في مجال تكوين وبناء وترتيب وتنظيم عمل هذه المنظومة هي الأخطر في مجال التشريع والحفاظ على المقاصد التي ينبغي أن تنطلق من الحفاظ على مصالح هذه المنظومة ودعمها ، وكذلك الوقوف بوجه المقاصد التي تهددها بالزوال والتشتت والاضمحلال ، وهي بهذا الموقع من الأهمية في الوجود البشري :

(الأسرة هي الخلية التي تتربي فيها أنواع النزوع الاجتماعي في الإنسان عند أول استقباله للدنيا ، ففيها يعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات وفيها تكون مشاعر الألفة والأخوة الإنسانية وتبذر بذرة الإيثار ، فتنتموا أو تخبو بما يصادفها من

أجواء في الحياة العامة وفي الجملة إن المجتمع القوي يتكون من أسر قوية لأنها وحدة البناء فيه<sup>١</sup>.

ولقد ذكرنا في مقدمة البحث أنَّ الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر كتب كتاباً في أحكام الطلاق في الإسلام ، وكان يأمل من تنقيح هذه الأحكام الحفاظ على مقاصد الشرع الحنيف في الحفاظ على البناء الأسري في المجتمع الإسلامي من التفكك والضياع ، ومن ذلك الكشف عن الكثير من حالات الطلاق غير الصحيح والتي لا يترتب عليها طلاقاً ، نهائياً ، كما هو الصحيح في مثل الطلاق بتكرار الصيغة ثلاثة ، وقد ذهب فيما ذهب إليه في هذا الكتاب إلى شرطية الإشهاد في صحة مراجعة المطلق لطلاقته، وقد استدل لهذا الحكم الوجوبي ، بأدلة كثيرة من القرآن والسنة المباركة وأورد أحاديث من فقهاء المذاهب الإسلامية تؤكد بشكل مباشر أو غير مباشر على وجوب الإشهاد في الرجعة.

الشيخ المرحوم محمد حسين كاشف الغطاء، ناقش في ما استدل به صاحبُ كتاب : (نظام الطلاق في الإسلام)، سواء في الآيات الشريفة أو الأحاديث ، فأنها معارضة بروايات أخرى غيرها صادرة عن أهل البيت (عليهم السلام) تؤكِّد على عدم وجوب الإشهاد في الرجعة.

---

١ - محمد أبو زهرة ، الأحوال الشخصية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٥٠ ، ص : ٢١ .

وبعد أنْ أتمَ استدلاله بالكتاب والسنّة راح الأستاذ شاكر يدعى أنَّ هذا الحكم راجح ومقدم في ضوء مقاصد الشريعة السامية فقال:

( هذا التفسير لمعنى الطلاق ولمعنى الرجعة هو المطابق كل المطابقة لنصوص القرآن الكريم ومقاصد الشارع الحكيم، ولقواعد العقل السليم، وللفقه الصحيح في الدين، وليس من المعقول أنَّ نترك هذه الشريعة الدقيقة – شريعة الطلاق والرجعة – لأهواء الناس وأرائهم وألاعيبهم في الألفاظ، إنما هي مقاصد سامية ، تتعلق بالشؤون الاجتماعية وأشدتها خطراً في حياة الإنسان وشرف الروابط بين الناس وأعلاها وأنفعها للنوع الإنساني )<sup>(١)</sup>

ويفهم من كلام العلامة الشيخ شاكر أنَّه عمِّم التشدد في الطلاق إلى الرجعة، باعتبار أنَّ التشدد في الطلاق يخفي إرادة الشارع بمنع الرجل بالعبث بالحياة الزوجية أو الإضرار بالمرأة أو التلاعب بمصيرها ، فكما أنَّ الأمر في الطلاق قائم على هذه المقاصد، وهذه المقاصد موجودة في الرجعة ولا ينبغي استغلال الرجعة للعبث والتلاعب والإضرار ومن هنا وجوب الإشهاد، قال:

( وما اشترط في صحة الرجعة إنما اشترط ضماناً لبقاء الحياة الزوجية صحيحة سالمَة من إرادة العبث بها ، وبعداً بها عن مواطن الشبهات ، وعن الإضرار بالمرأة عند إرادة النكول

والجحود لإضاعة حقها، ولست أظن أنني بحاجة إلى وجه  
الحكمة الشرعية والفلسفة الإسلامية في اشتراط إرادة الإصلاح  
في صحتها، إذ هو واضح بالبداهة وصحيح بنص الكتاب  
الكريم<sup>(١)</sup>

وبدلاً من أن يدعم الأستاذ شاكر ترجيحه لشرطية الإشهاد في الرجعة بنسبق  
من الأحكام المماثلة الموجبة لترابط الظنون في مجال منع التلاعب بالحياة  
الأسرية والزوجية وأنها مبنية على التشدد وعدم التلاعب وعدم الإضرار  
بالمرأة، بدلاً من ذلك قدم قراءة تأوليه أو نسقاً من المشاهدات الاثباتية للخروج  
منها بحكم شرعي ، مقاصدي ، وهذا غريب منه لأنَّ الحكم أنَّما يستخرج في  
المقصود الشرعية في ضوء نسق من النصوص الشريفة والأحكام الثابتة لا أنه  
يستخلص من الشواهد الحياتية الموجبة للحذر والحيطة، لكثرة انهماك الناس  
بارتكاب المحرمات والتحايل جلب المنافع غير المشروعة فقال مخاطبا الإمام  
كاشف الغطاء:

( ولو رأى الأستاذ - حفظه الله - ما نرى في مجالس القضاء  
من الاعيب الناس وحياتهم وإندامهم على إضاعة الحقوق ،  
وحرصهم على أكل أموالهم بينهم بالباطل ، وجرأتهم على  
تعدى حدود الله ، لعلم أنَّ هذه الشروط ليست قيوداً يعز معها

وجود الرجعة أو يقل ولا يستيقن أنها تطابق الحكمة الشرعية

والفلسفة الإسلامية<sup>(١)</sup>

إن احتمام الأستاذ شاكر لمقاصد الشريعة لا يمكن المساعدة عليه للداعي

الآتية:

١- إنَّ ما قام به الأستاذ ليس استناداً إلى المقاصد الشرعية، التي عرفنا كيفية تحصيلها في البيانات السابقة في البحث الأول. إنما هو عملية قياس حكم الإشهاد في الرجعة على حكم الإشهاد في الطلاق. مع وجود الفارق. في القياس وليس استناداً إلى المقاصد الشرعية لأنَّ الطلاق إيقاع من الإيقاعات الشرعية ، والرجعة لا تمثل إيقاعا ولا يشترط فيها صيغة ، بل هي استصحاب للحالة السابقة وهي العلقة الزوجية.

٢- ذكرنا في البيانات السابقة لنظرية المقاصد الشرعية بأنها إما أن تحصل من نص جامع أو حكم جامع أو من كلامها مع استحضار أحكام العقل في المستقلات أو الملازمات. وهنا نلاحظ أنَّ الأستاذ شاكر لم يعمل بأي من هذه البيانات وإنما عمد إلى مشاهدات من مخالفة الناس للإحكام، فدعاه التشدد معهم إلى التشدد مع الزوج المراجع لطلقته، وهذه الطريقة لتحصيل المقاصد الشرعية لا يوجد قائل بها عند الباحثين في المقاصد، ولو أننا فرضنا في هذه الحال تغير الزمان والمكان كما لو تعاملنا مع مدينة إسلامية في أوروبا ولا يوجد فيها ما نشاهد في المدن المصرية والعربية ، من كثرة اللاعب الناس وتحايل

بعضهم على بعض، فهل يسقط في المدينة الأوربة ملاك التشدد والخطة والخذر المعمول به في مدن مصر، وتقول حينئذ بعدم وجوب الإشهاد لانتفاء العلة؟

ومن هنا لا يمكن فرض أي نوع من الجامع الانتزاعي بين ما يشاهد من كثرة تحايل والأعيب الناس وما يقوم به المطلق من مراجعة مطلقته بدون إشهاد. كما لا يمكن فرض أي جامع انتزاعي بين التشدد في الطلاق وعميمه إلى الرجعة، إلا اللهم القول بالقياس مع وجود الفارق فالطلاق إيقاع والرجعة استصحاب وإعادة لعلة العقد السابق بين الزوجين كما ذكرنا سابقاً.

٣- أنَّ محل الكلام في مقاصد الشريعة هو عالم الثبوت واستقراء الأحكام للخروج بحكم كلي جامع يسري في الدواعي والأنحاء المتعددة من الأحكام الفرعية، وليس محل الكلام في مقاصد الشريعة متابعة الإحداث اليومية وتصرفات الناس في عالم الإثبات والمشاهدة ومن ثم اعتمادها في ضبط أحكام الشريعة كما لا يخفى.

### المبحث الثالث :

## توظيف المقاصد في نفي الإشهاد على رجعة المطلقة

توطئة:

الإمام كاشف الغطاء، باعتباره من تلامذة مدرسة الآخوند الأصولية القائمة على أساس وحدة المعنى وتعدد الأئمّة أو الدواعي، استفاد من نظرية مقاصد الشرعية في ضوء معادلة: وحدة المعنى وتعدد الأئمّة، أي أنَّ مقصد الشريعة الغراء ، هو : ذلك المعنى الواحد الكلّي الجامع، في طرف المعادلة الأول ، فيما تقع الأئمّة أو الدواعي في حد المعادلة وطرفها الثاني ، فالمعنى الواحد في حد التصور الأولي ، ينحل إلى أشكال من المعاني المتكررة في حد التصديق وإعمال العقل .

ومهما اختلفت هذه الأئمّة أو الدواعي وتنوعت ، فهي راجعة إلى ذاك المعنى الواحد الجامع. وفي المقام قدم سماحته أكثر من تقرير مقاصد الشريعة أو مستوى من الفهم ، في مسألة نفي الإشهاد عند مراجعة المطلق لطلاقته وهي تقريرات متدرجة ومتسلسلة من أعلى مستوى في الشريعة أي الكليات الكبرى ونزولاً إلى إحكام العقود والإيقاعات ثم إلى إحكام الأسرة وضبط الحياة الزوجية.

وهذا التدرج في قراءة وفهم المقاصد الشرعية ومستوياتها بات معروفاً عن المختصين بالوعي المقاصدي ، فقد ذكر الدكتور محمد الحبيب التجكاني وهو من مفكري المغرب العربي هذا التدرج في المقاصد الشرعية في بحثه الممتاز ( فقه

المقاصد واستيعاب آفاق المستقبل) فذكرها من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى وقال ما ملخصه :

الشريعة لها مقاصد بمستويات ثلاثة، يؤدي أدناها إلى الذي يليه ويؤدي هذا إلى الذي فوقه :

أ- المستوى الأول : المقاصد الجزئية : وهي التي تتصل بحكم معين ، فالصيام مثلاً ، من مقصد الشارع فيه أن ينمي في الإنسان الإرادة والانضباط ، فيصير مطمئناً في سلوكه ، لا تستخفه الشهوات والغرائز من الأكل والشرب وغيرهما وهذا يفتح أمام الإنسان باب الاستقامة الشاملة.

ب- المستوى الثاني: المقاصد المجالية : وتعني هذه المقاصد الجزئية عندما تجمع في مجال معين ، كالعبادات أو المعاملات أو الجنایات أو العلاقات الدولية التي يسميها الفقه الإسلامي (السير)، توجد مقاصد مجالية للشريعة تعبر عن رؤية الإسلام لأهدافه في هذا المجال.

ج- المستوى الثالث : المقاصد العامة .<sup>(١)</sup>

و سنلاحظ كيف التزم الإمام كاشف الغطاء بهذا التدرج المقاصدي وعلى جميع المستويات المطروحة في النظرية المقاصدية.

## التقريب الأول: في المستوى العام للمقاصد : وفيه التزم الشيخ بوحدة المعنى وتعدد الأنحاء على مستوى الشريعة:

ذكر الإمام كاشف الغطاء أنَّ الشريعة الإسلامية قائمة على أساس الرفق والتسهيل، وهذا هو المعنى العام، الواحد الكلي في حد المعادلة وطرفها الأول، إما فيما يقابلها من الدواعي والأنحاء أو المصاديق فقد، عدد سماته جملة من الآيات الدالة على هذا المعنى الكلي الجامع. ثم ذكر أنَّه في مقام الترجيح يمكن تقديم الاحتمال القائم على أساس التسهيل والرفق بعد فقدان المرجحات الداخلية أو الخارجية. فقال :

(إذا قام في الدليل الشرعي من الكتاب أو السنة احتمالان متكافئان لا يترجح أحدهما على الآخر برجح داخلي أو خارجي، هنالك ينظر الفقيه ، أي الاحتمالين أسهل على العباد وأيسر في مقام العمل فلizم الأخذ به والفتوى على طبقه، لما ورد في الأدلة العامة من أنَّ الشريعة الإسلامية مبنية على الرفق والتسهيل، مثل قوله تعالى: (بِرِيدُ اللَّهِ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) قوله عز شأنه ( وَمَا جعلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حِرْجٍ ) وقول صاحب الشريعة عليه السلام : (جئتم بالشريعة السمحاء) قوله عليه السلام : ( يسروا ولا تعسروا ) وكثير من أمثال ذلك)<sup>(١)</sup>

ويلاحظ من كلمات الإمام كاشف الغطاء في هذا التقرير ما يأتي:

**أولاً:**

أنَّ ما ذكره من التسهيل والرفق في الشريعة الإسلامية، كمعنى كلي جامع متحصل من مجموعة من النصوص. يعتبر مطابقاً تماماً لنظرية مقاصد الشريعة في بيانها الأول، ومن المفيد أن نذكر هنا نصاً للشيخ علي حب الله للتذكير بهذا البيان إذ قال:

( نحن أمام نوعين من النصوص : النص الظاهر والنص الباطن، الأول يعرف معناه من ظواهر الألفاظ ، والثاني يعرف معناه من الظواهر أيضاً، لكن ينكشف معناه بعد عقد القرآن بينها ، وتأمل العقل في تتبعها وتتسللها بين مجموعها )<sup>(١)</sup>

**ثانياً:**

إن الإمام كاشف الغطاء نجح في تطبيق مقاصد الشريعة باعتبار أنَّ من وظائف هذه النظرية حل النزاعات في الأحكام، فلو سلمنا بأنَّ المستفاد من الآيات والروايات، احتمالان متكافئان فيما يتعلق بوجوب الإشهاد وعدمه ، إلا أنَّ مقاصد الشريعة العامة هي مع مبدأ التسهيل والرفق وبالتالي إلغاء قيد الإشهاد، ولا يمكن للطرف الآخر الاعتراض طالما أنَّ نظرية مقاصد الشريعة، قد حسمت الموقف لصالح الحكم التسهيلي ، إذ يقول المقاصديون :

---

١ - الشيخ علي حب الله- دراسات في فلسفة أصول الدين- ص ١٣٣

(لم يعد الأصولي المجتهد المزاول لعملية الاستنباط، يسير إلى حيث تذهب به الأدلة التقليدية ، فقد صار بإمكانه بفضل نظرية المقاصد أنْ يعرف سلفاً أنَّ نتيجة الاجتهاد يجب أنَّ تتوافق، وتتلاءم مع القواعد العامة لعلم المقاصد ، فيكون الوصول إلى المقاصد هو الغاية، ومارسة عملية الاستنباط بوسائله مجرد طريق إليها، أي أنَّ المقاصد حاكمة على الوسائل).<sup>(١)</sup>

## التقريب الثاني: وحدة المعنى وتعدد الأنحاء في المستوى الثاني أو المحتالي ، وهو هنا : العقود والإيقاعات.

فعلى مستوى العقود والإيقاعات ومقومات صحتها الشرعية، أيضاً قدم الإمام كاشف الغطاء تصوراً كلياً جاماً ، وذلك يأتي في إطار وحدة المعنى وتعدد الأنحاء أو الدواعي، فقد ذهب إلى وحدة نفي شرطية الإشهاد فيسائر العقود والإيقاعات، إلا ما خرج بدليل قطعي، وإنما خرج الطلاق بدليل خاص وقطعي، أما في مسألة الرجعة فإنَّ أردنا الاحتكام إلى نظرية المقاصد الشرعية بعد الفراغ من إعمال الصناعة الأصولية التقليدية، فلا بد من الرجوع إلى ذلك المعنى الواحد الكلي الساري في كل العقود والإيقاعات، إذ لا يوجد دليل قطعي يخرج الرجعة عن سائر العقود والإيقاعات فهي دواع وأنحاء مختلفة إلا أنها جمياً ترجع إلى ذاك المعنى الواحد وهو وحدة نفي شرطية

الإشهاد في تمام العقود والإيقاعات وسائر إجراء الفسخ في الخيارات، ومنها مسألة الرجعة قال:

(والإشهاد في الطلاق ليس لهذه الغاية فقط ، وإنما كان حاله كحال سائر العقود والإيقاعات كالبيع والإجارة والصلح والعتق والوقف، فلا شيء من هذه وغيرها يجب فيه الإشهاد سوى الطلاق لحكمة أدق وأعمق...وكذا النكاح لا يجب الإشهاد فيه عندنا بحيث لا يصح بدونه ، ولكن النفوس منساقه ومحبولة على الإشهاد فيه للضبط والاستعداد للطوارئ من ميراث وغيره).<sup>(١)</sup>

إن هذا التقريب يأتي مطابقاً للبيان الثاني لنظرية مقاصد الشريعة أي الحكم الجامع الذي تم استقراره من مجموعة من الأحكام في مختلف الأبواب والواقع، وصف ذلك الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه وقال:

(فاستقراء الأحكام الشرعية والعلل والحكم التشريعية في مختلف الأبواب والواقع يتتج أنَّ الشارع الإسلامي ما قصد من تشريعه

الأحكام إلا حفظ ضروريات الناس وتحسيناتهم وهذه هي مصالحهم<sup>(١)</sup>.

وفي المقام نلاحظ أنَّ الإمام كاشف الغطاء قدم استقراءً في باب العقود والإيقاعات واعتبرها جميعاً أنساء وداعي مختلفة من المعاملات إلا أنها تصب في النهاية في معنى واحد وهو عدم الإشهاد في العقود والإيقاعات إلا إذا وجد الداعي الاستثنائي لذلك كرغبة أحد الطرفين في الإشهاد لأسباب ظرفية لا علاقة لها بأصل التشريع في مقام ثبوته وملاكه من المصلحة والمفسدة في الواقع وقد قام الداعي الشرعي الشباعي على وجوب الإشهاد مثلاً، في الطلاق وبالتالي لا يمكن قياس أي من العقود والإيقاعات عليه وهذا الكلام يصدق على الرجعة فهي باقية على ذلك المعنى الواحد الكلي الجامع للإحكام في عالم الثبوت والملك والمصلحة، إما في عالم الإثبات والواقع والامتثال فيمكن أن يكون الإشهاد بطلب من الزوج أو الزوجة أو كلاهما وهذا يحصل في البيع والإجارة والبهبة والنكاح وغير ذلك من سائر العقود والإيقاعات.

**التقريب الثالث : وحدة المعنى وتعدد الأناء في احكام الأسرة ( المقاصد الجزئية ).**

هذا هو التقريب الثالث من التقريريات التي قدمها الإمام كاشف الغطاء في الاستفادة من مقاصد الشريعة العامة واعتمادها في تهذيب الاستنباط وترجيح

١- الأستاذ عبد الوهاب إخلاف - علم أصول الفقه - ط دار الكتب العلمية بيروت

٢٠٠٦ - ص ١٦٤

الأدلة المتكافئة ومن ثم الوصول أو التحفظ على الأحكام الواقعية وملاكاتها المطلوبة في نظر الشارع وسنلاحظ كيف أنَّ هذا التقريب مطابق للبيان الثالث من بيانات نظرية مقاصد الشريعة .

يقوم البيان الثالث على أنَّ مقاصد الشريعة هي تلك الأحكام الكلية والتي تم استنباطها من جملة من الأحكام وفي مختلف الأبواب فهي تارة خمسة مقاصد كما حددها الإمام الجويني قدِّمَا وتارة ثلاثة مقاصد كما حددها الباحث طاهر جابر العلواني حديثاً في بحثه (المقاصد الشرعية العليا الحاكمة: التوحيد، التزكية، العمran)<sup>١</sup> ، فهي قواعد وموجهات عامة يمكن الاستفادة منها في تهذيب الأحكام والتحفظ على الواقع المطلوب.

الشيخ كاشف الغطاء يؤسس في مجال الأسرة قاعدة عامة مفادها: وجوب حفظ الأسرة ، وضرورة استمراريتها وإدامتها وجودها وهذا هو المعنى الواحد المطلوب في حد المعادلة وطرفها الأول أي معادلة وحدة المعنى وتعدد الأئمَّاء، إما في حدَّها وطرفها الثاني فتأتي الأئمَّاء المتعددة والداعي المختلفة ، مثل وجوب الإشهاد في الطلاق فهو داع مهم في طريق تحقيق الغرض أي حفظ الأسرة وإدامتها الحياة الزوجية فالإشهاد يعني إلى جانب الشروط الأخرى المطلوبة في الطلاق كعدم المواقعة في الطهر والخلو من الحيض واستعمال الصيغة ، مزيداً من إيجاد ووضع العرائقيل في وجه تحقق الطلاق وتعقيد حل رباط الزوجية .

ومن هنا يأتي عدم الإشهاد في الرجعة معاكساً للطلاق في الوصول إلى الغرض وهو الحفاظة على الأسرة وإدامة وجودها فتشريع الرجعة أساساً نحو من أنحاء الإبقاء على الحياة الزوجية والمحافظة عليها وبذلك تتحقق المعادلة في وحدة المعنى وتعدد الأنظمة فالطلاق بالإشهاد والرجعة بلا إشهاد تعبيران مختلفان عن معنى واحد وهو حفظ الأسرة مهمة الأول وضع العراقيل إمام هدم بناء الأسرة ومهمة الثاني وضع التسهيلات إمام إعادة لحتمتها.

هذا هو التصور المنطقي والعقلائي الذي تكمن فيه الفلسفة الأخلاقية للفقه وصناعة المقاصد الشرعية، يقول الإمام كاشف الغطاء:

(أَنَّهُ مَا مِنْ حَلَالٍ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الطَّلاقِ، وَدِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا تَعْلَمُونَ، جَمِيعِ اِجْتِمَاعِيِّ، لَا يَرْغُبُ فِي أَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَرَقَةِ سِيمَا فِي الْعَائِلَةِ وَالْأَسْرَةِ وَعَلَى الْأَخْصِ فِي الْزِيَاجَةِ بَعْدَمَا أَفْضَى كُلُّ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ بِمَا أَفْضَى، فَالشَّارِعُ بِحِكْمَتِهِ الْعَالِيَّةِ يُرِيدُ تَقْلِيلَ وَقْوَعِ الطَّلاقِ وَالْفَرَقَةِ فَكَثُرَ قِيَودُ وَشُرُوطِهِ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمُعْرُوفَةِ مِنْ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَثُرَتْ قِيَودُ عَزِّ أَوْ قُلَّ وَجُودُهِ فَاعْتَبِرُ الشَّاهِدَيْنِ الْعَدْلَيْنِ لِلضَّبْطِ أَوْ لِلْحُصُولِ الْأَنَّاَةِ وَالتَّأْخِيرِ ثَانِيَاً إِلَى أَنَّ يَحْضُرَ الشَّاهِدَيْنِ أَوْ الزَّوْجَيْنِ أَوْ أَحَدَهُمَا عِنْدَهَا يَحْصُلُ النَّدْمُ وَيَعُودُانِ إِلَى الْأَلْفَةِ كَمَا أَشِيرُ إِلَيْهِ بِقُولِهِ تَعَالَى: (لَا تَدْرِي لِعَلِ اللَّهِ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) وَهَذِهِ حِكْمَةٌ عَمِيقَةٌ فِي اِعْتِبَارِ الشَّاهِدَيْنِ لَا شَكَّ أَنَّهَا مَلْحوِظَةٌ

للشارع الحكيم مضافاً إلى الفوائد الأخرى. وهذا كله يعكس قضية الرجوع فأنَّ الشارع يريد التurgيل به ولعل للتأخير آفات، فلم يوجب بالرجعة أي شرط من الشروط وتصح عندنا عشر الإمامية بكل ما دل عليها من قول أو فعل أو إشارة ولا يشترط فيها صيغة خاصة كما يشترط في الطلاق كل ذلك تسهيلاً لوقوع هذا الأمر المحبوب للشارع الرحيم بعباده ، والرغبة الأكيدة في الفتنم وعدم تفرقهم<sup>(١)</sup>

### **الخاتمة :**

والحديث فيها تارة عن تقدير الجهد الاستنباطي للإمام كاشف الغطاء وأخرى عن محاولة تشخيص الإشكالات التي وقع فيها الأستاذ المصري احمد محمد شاكر .

### **القسم الأول:**

إذا أمعنا النظر في تقريرات الإمام كاشف الغطاء من أجل تقويمها في ضوء فلسفة الفقه وهو اتجاه معاصر في دراسة النظام الفقهي وخلفيته المعرفية يمكن أن نسجل الملاحظات الآتية:

### الملاحظة الأولى:

اعتماد الإمام كاشف الغطاء منهج التدرج في التقريرات والاحتکام إلى المقاصد الشرعية في عدة مستويات متدرجة من أعلى مستوى في الشريعة وصولاً إلى مجموعة من الأحكام الخاصة، ففي البداية اعتمد مستوى شاملاً لكل أنحاء الشريعة وهو قيام الشريعة السمحاء على التسهيل والرفق والتيسير وهذا يعد من المقاصد الشرعية الشاملة والحاكمة لكل أنحاء الشريعة ، كما اعتمد مستوى وسطاً من مستويات المقاصد الشرعية ومجاله العقود والإيقاعات التي تشكل نصف الأحكام الشرعية تقريباً وفي هذا المجال نبه الإمام كاشف الغطاء إلى وحدة عدم شرطية الإشهاد في عموم العقود والإيقاعات فلا يدخل الإشهاد كمقدمة من مقومات صحتها ، ثم تدرج إلى مستوى أدنى في النظام التشريعي وأقل من المستويين السابقين وهو خصوص أحکام الأسرة والزوجية كأحکام النكاح والطلاق والرجعة وهنا ارشد إلى مقصد شرعي من المقاصد الشرعية في هذا المجال الجزئي وهو ضرورة وجوب حفظ بناء الأسرة وإدامتها ووضع التسهيلات إمام ذلك سواء برفع شرطية الإشهاد في النكاح والرجعة أو إثبات هذا الشرط في الطلاق لمنع فك رباط الزوجية وهدم بناء الأسرة .

### الملاحظة الثانية:

أنَّ جميع هذه التقريرات قد توصلت إلى نفس النتيجة وبدون أدنى تفاوت فما تم التوصل إليه على وفق آليات الاستنباط الأصولية التقليدية قد تم تأكيده في

جميع هذه التقريريات أي عدم وجوب الإشهاد في الرجعة. وهذا يؤكّد أنَّ الشريعة يصدق بعضها بعضاً وليس فيها للتناقض مجال.

### **اللّاحظة الثالثة:**

وحدة المنهج والملامك في التقريريات جمِيعاً فأنها كلها استندت إلى معادلة واحدة وهي معادلة وحدة المعنى وتعدد الأنحاء وهو مبدأ فلسفياً معروفاً، يدرس في الفلسفة تحت عنوان الوحدة والكثرة، وأنَّ الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة وعلى هذا المبدأ قامت فلسفة الحكمة المتعالية والتي استفاد منها الشيخ الأخوند الخراساني في بحوثه الأصولية كما استفاد منها العلامة الطباطبائي في بحوثه القرآنية.

### **القسم الثاني:**

وهنا نحاول أن نشخص مواطن الخلل في الجهد الاستدلالي للأستاذ احمد محمد شاكر والذي دفعه للإصرار على وجوب الإشهاد في الرجعة وهي:

١- قصور المنهج الاستدلالي : إذ يلاحظ أنَّ رجع إلى القرآن الكريم وتفسير آية الطلاق بدون الاستنارة بكلمات أهل البيت ومنهجهم الأصولي في الاستبطاط، فذهب إلى أنَّ الإشهاد المذكور في الآية الشريفة:

( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لَعَدَّتْهُنَّ وَأَحْصُوا الْعُدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوَتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ❖ فَإِذَا  
بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ  
وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ! .

فذكر الإشهاد بعد ذكر الطلاق والرجعة يعود إلى كليهما، مع أنَّ ذكر الإشهاد بعد ذكر الطلاق والرجعة لا يعني بالضرورة أنَّ الإشهاد يعود إلى كليهما جزماً ، وألا فهل يلتزم الأستاذ المصري في غير هذه الآية الشريفة مثل إيه :

( وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ ، .... وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ  
بِرَدْهَنِ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ) .

هل يلتزم أحدُ هنَا بِأَنَّ حَقَ الرُّجُوعِ لِلزَّوْجِ شَامِلٌ لِكُلِّ الْمُطَلَّقَاتِ ، بما في ذَلِكَ الْبَيْانِ إِذْ أَنَّ الْبَيْانَ هُنَا دَاخِلُهُ فِي عُمُومِ الْمُطَلَّقَاتِ ، كَمَا هُوَ مُقْتَضَى ظَاهِرِ الْلُّفْظِ ، فَلَا بدَّ مِنِ القُولِ بِأَنَّ أَحْقِيَةَ الرُّجُوعِ هِيَ لِبَعْضِ الْمُطَلَّقَاتِ وَهُنَّ الرُّجُعِيَّاتُ دُونَ الْبَيْانِاتِ مَعَ أَنَّ ظَهُورَ الْآيَةِ لَا يَفْهَمُ مِنْهُ هَذَا التَّفْسِيرُ وَالتَّفْصِيلُ ، وَإِنَّمَا عُرِفَ بِالْقَرَائِنِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي تَخْرُجُ الْبَيْانَ مِنْ حَقِّ الْعُودَةِ . وَفِي مَقَامِنَا يَكُونُ مِنْهُجُ التَّفْسِيرِ كَذَلِكَ ، فَلَا يَمْكُنُ إِرْجَاعُ الإِشَاهَدِ إِلَى الطلاقِ وَالرجعةِ معاً إِلَّا بِالْقَرَائِنِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَهِيَ مُتَعَارِضَةٌ فِي الْمَقَامِ كَمَا أَعْتَرَفَ الأَسْتَاذُ ، وَمَعَ تَعَارُضِ الْقَرَائِنِ الْخَارِجِيَّةِ كَمَا ادْعَى ذَلِكَ الأَسْتَاذُ شَاكِرُ بِأَنَّ رَوَايَاتِ أَهْلِ

١ - سورة الطلاق / الآية ١ .

٢ - سورة البقرة : الآية : ٢٢٨ .

البيت عليه السلام ، المفسرة للأية دلت تارة على وجوب الإشهاد ، وأخرى على عدم وجوبه ، فأن الآية الكريمة تصبح مجملة ولا يمكن الاستدلال بها بسبب تعدد الاحتمالات في التفسير، إما الروايات فلو سلمنا تعارضها فإنها ستسقط عن الحجة ، وبعد عدم إمكان الاستدلال بالأيات أو الروايات فلا بد من إعمال الأصول العملية وهي تحكم إما بالبراءة من وجوب الإشهاد أو التخيير إذ لا يوجد قائل بوجوب الاحتياط في مثل هذا المورد غير العبادي ، وأن الاحتياط أن قيل به فهو مخصوص بالشبهات التحريرية ولا يشمل الشبهات الوجوبية ، لقد غاب هذا التسلسل الاستنباطي وهذا المنهج الأصولي تماما عن فكر صاحب كتاب نظام الطلاق في الإسلام وأصر على قياس وجوب الإشهاد في الرجعة على وجوب الإشهاد في الطلاق.

-٢- عدم اعتماد عمومات نظرية العقود والإيقاعات في التشريع الإسلامي وتقوم هذه النظرية على أساس وجود مجموعة من المقومات للعقد الصحيح كوجوب التلفظ بالصيغة من الإيجاب والقبول ولم يعرف فقهيا أن الإشهاد شرط في صحة العقد أو من مقوماته .

-٣- غياب المنهج المقاصدي : إذ نلاحظ أن الأستاذ المصري قد احتمم إلى المنهج المقاصدي باعتبار أنه رافع للخلاف إلا أنه لم يتلزم بأي بيان من بيانات المقاصد الشرعية السابقة التي التزم بها الإمام كاشف الغطاء حرفيا.

المصادر:

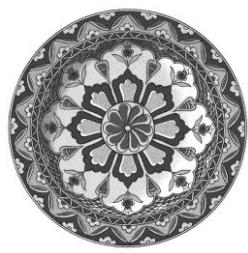
- القرآن الكريم.
- أفاق نجفية - مجلة العدد ٢٠٠٦ - ٢٠٠٦.
- استنباط المعنى - د. ليث شبر.
- أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه - الشيخ جعفر سبحاني
- البرهان في أصول الفقه - الأمام الجويني.
- دراسات في فلسفة أصول الدين - الشيخ علي حب الله.
- علم أصول الفقه - عبد الوهاب خلاف.
- كفاية الأصول - الشيخ محمد كاظم الخراساني
- نظام الطلاق في الإسلام - احمد محمد شاكر.
- المقاصد الكلية والاجتهاد المعاصر - حسن محمد جابر.
- المواقفات في أصول الشريعة - أبي إسحاق الشاطبي.
- المشهد الثقافي في إيران فلسفة الفقه ومقاصد الشريعة.
- مقاصد الشرع بين الإفراط والتغريب - مالك مصطفى العاملي.
- القواعد والفوائد - الشهيد الأول.
- الوجيز في أصول الفقه - عبد الكريم زيدان.



**الدراسة الخامسة :**

**الوعي السياسي عند الشيخ محمد حسين كاشف**

**( ١٨٧٧-١٩٥٤ م )**



## الوعي السياسي عند الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء

(١٩٥٤ م - ١٨٧٧ م)

### تمهيد :

ينعكس التفكير بالقضايا السياسية من قبيل التفكير بمؤسسات الدولة والحكومة والنخب المسكونة بناصية السلطة وتسويير الأمور العامة على التفكير بالمجتمع وأحوال الفقراء المالية ومستوى التربية والتعليم وعموم الأوضاع الاقتصادية من قبيل مشكلات التنمية والتقدم والخدمات والتشغيل وغيرها ، ومن هنا شهدت الأعوام الأخيرة من القرن العشرين وكذلك العقد الأول من هذا القرن الحادي والعشرين، اهتماماً متزايداً من قبل الكتاب والباحثين في العالم الإسلامي بقضايا ترتبط بالفكر السياسي قبل كل شيء ، وكذلك فكر النهضة ومسائل التقدم ومشكلات التنمية وأسباب التخلف ، وقد جاء هذا الاهتمام نتيجة الشكوك المبكرة والمتزايدة بنجاح التبني الخزبي والحكومي للنموذجين الرأسمالي والاشتراكي في إعادة البناء في العالم الإسلامي ، ولاسيما مع تصاعد الصحوة الإسلامية عند الطبقات المهمشة ، والبحث الجاد عن المسوية الحقيقة لهذه البلاد والتساؤل عن النموذج السياسي القادر على تحقيق النهضة من خلال السلطة والقوة التي يحتركها .

من هنا جاء البحث الجدي في عوامل البناء الحضاري وشروط التغيير الجذري ، وكذلك البحث في التحديات ولاسيما السياسية والتي تواجه سبل قيام

التقدم والحضارة المتكاملة في البلدان الإسلامية ، وطرق التخلص من هذه التحديات ، وذلك لارتباط هذه المسائل بالواقع السياسي المتردي في البلاد الإسلامية ، ومتبنياتها غير المتوازنة من مسيرة الحداثة الغربية ولاسيما في المجال السياسي ، في مقابل نبذ التراث الديني .

ومن مظاهر البحث عن الخلاص تلك المحاولات في مجال الفكر السياسي التي كانت تتلمس طريقها نحو اعطاء تصور عن النموذج الإسلامي في الحل السياسي ، حيث يتجلّى في خصوص هذا الحقل بعد الحقيقى لموضوع التجديد في الفكر الإسلامي ، ولكي يكون الرافعة الأساسية في نهضة المسلمين وهو الموضوع الأبرز من بين الموضوعات المطروقة في الفكر الإسلامي المعاصر بعد فشل الاتروحات الأخرى، كالليبرالية والاشراكية وغيرهما في تحقيق النهضة والتقدم .

ومن الواضح أن التفكير بالحل الإسلامي للقضايا السياسية أو تقديم الأنماذج كان لابد أن يصطدم بتلك الأفكار الهدامة والتي تم تطويرها في الفترات السابقة عن النموذج الفكري لأبن ميمون اليهودي ، وكذلك عن فكر أبن تيمية السلفي - ومن ثم تم أطلاقها تحت عنوان الاصلاح ، وذلك في المراحل السابقة من القرن الثامن عشر - ، وهي مصاديق أو مصادر حقيقة لسياسات فرق تسد البريطانية الاستعمارية ، وما زاد في رواج هذه الأفكار الإجرامية اكتشاف النفط في الجزيرة والخليج ، ومن ثم اتفاق الملايين من الدولارات على أئمة المساجد والمفكرين السائرين في ركاب الرجعية السعودية ، ولاسيما الذين عملوا على الترويج للوهابية كمذهب إصلاحي في المجالات كافة ومنها

العقل السياسي ، كما فعل محمد رشيد رضا ، ومن ثم حدد لهم الموقف المفضل لإقامة الخلافة السنوية وهي مدينة الموصل كما ذكر ذلك في كتابه : ( الخلافة ) :

( لكن محمد رشيد رضا ، لم يمكنه أن يدعم الملك السعودي دون أن يدعم العلماء الوهابيين الذين منحوه شرعيته ، ولذلك لم يدخل جهداً في دفع الانتقادات عن فهم الوهابيين للإسلام ، وفي الوقت نفسه عن الحاشية المحيطة بالملك ، فوافق على نشر جميع الكتب ، وأحياناً مع تعليقه عليها ، التي تحتفي بأرثوذوكسية الحركة الوهابية ، سواء أكانت تلك الكتب كتبأ حديثة أم من كتب ما قبل العصر الحديث ، ... كان راضياً بإتاحة الأديب الوهابي لقرائه بغض النظر عن أصل تلك الأديب ومؤلفها أو السبب الذي كتبته لأجله في المقام الأول ).<sup>١</sup>

ومن هنا يتضح حجم الكارثة التي تحيط بالوضع السياسي والحضاري للمسلمين حينما تتفاقم التحديات الداخلية إلى جانب التحديات الخارجية ، ويتبين السبب وراء تنامي هذه الظاهرة الباحثية في فكر النهضة والبحث عن الاصالة ولاسيما في بناء الأنموذج السياسي ، واستعادة التحقيق القراءة في مشاريع حقبة الإصلاح الأولى، هي حالة النكوص والارتداد في الوضع الحضاري العربي وغياب اي ملمح لقيام العوامل السياسية والاجتماعية

١ - محمد رشيد رضا(ت ١٩٣٥) ، الخلافة ، دار الزهراء ، القاهرة ، ص : ٨٦ .

والثقافية لتدشين النهضة والتقدم الحقيقى في الساحة الإسلامية ، مع أن المطلوب في زمن العولمة من العرب والمسلمين هو التقدم والبناء واللحاق بركب الحضارة العالمية، الأمر الذي لم يتحقق بصورة جدية ، كما تحقق ذلك لليابان والصين وبلدان أخرى عديدة .

الذى حصل في العقدين الأخيرين هو: تزايد الهجمة الغربية على العالم الإسلامي بعد انتهاء الغرب الرأسمالي من تصفية ما يسمى بالاتحاد السوفيتى سابقاً وتفرغ الولايات المتحدة وحلفائها للقضاء على أية نهضة أو محاولة للتقدم في العالم الإسلامي ، قد تشكل تهديداً للهيمنة الغربية في المستقبل أو الخروج على مركزيتها الشاملة ، القائمة على أساس الحفاظ أمن إسرائيل ، وضمان تدفق النفط الرخيص ، وتصريف متطلبات شركات السلاح في النزاعات المحلية في العالم الإسلامي ، وذلك عن طريق تنشيط عوامل الصراع والتشدد داخل البلدان الإسلامية وفيما بينها ، ومن أهم أدواتها في هذا المجال : الإسلام السلفي الطائفي وتفعيل دوره السياسي لمواجهة الأنماذج النهضوية العقلاني المصاعد في المنطقة .

من هنا تأتي أهمية البحث في مواقف علماء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) من المسائل السياسية ولاسيما ذات الصلة بقضايا النهضة والتقدم والأثر الحضاري الذي يرسمه العلماء للدور الديني في تجديد وبناء الأمة وتنشيط عوامل البناء الحضاري في مفاصلها الحيوية، وفي مقدمة هذه الأدوار المرتقة من الدين الإسلامي وقياداته المرموقة هو دوره في التصدي إلى قوى الهدم

الحضارى والمتمثلة بالغرب وأمريكا وصنيعهما في المنطقة إسرائيل والسلفية التكفيرية وبعض الأحزاب السائرة في ركب الغرب.

وعلى صعيد البحث والدراسات ولاسيما السياسية ، فقد تم إغفال الدور النهضوى لعلماء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) وجهادهم السياسي ، وفي المراحل السابقة كافة من كتابة تاريخ النهضة الإسلامية في المجال السياسي ، وذلك بسبب الجهل أو الإغفال الطائفي .

لكن من الواضح أن جملة من الكتاب العرب ، كانوا يدركون بشكل جيد الأسباب السياسية والحقيقة التي دفعت بصدام حسين إلى خوض حرب الخليج الأولى مع إيران والدوافع الطائفية وراء ذلك ، وكيف أستغل الغرب ومعهم حكام السعودية وآخرين من الحكام العرب خوف صدام المتجذر ونظامه الباعي من علماء الشيعة في العراق، ولاسيما مراجع الشيعة في النجف الأشرف التي انطلقت منها شرارة الرفض الإسلامي للمعادلة الظالمة التي أسس لها الاستكبار العالمي وعمل على تكريسها وفرضها من خلال عملاه وذريوه الفكرية والتنفيذية في العالم الإسلامي .

هذا الخوف السياسي هو من دفع بصدام وحزبه العقلقي باتجاه شن الحرب ضد الجمهورية الإسلامية في إيران، مما خلق جملة من التداعيات وفي مقدمتها احتلال لبنان وحرب الخليج الثانية التي خاضتها أمريكا والغرب من أجل تحرير الكويت، ثم حرب الخليج الثالثة واحتلال العراق بذرية الحرب على الإرهاب والبحث عن أسلحة الدمار الشامل، وما تبع كل هذا التداعي

السياسي وغياب الرؤية ، من تكشف حقيقة ضعف الحكومات العربية وهشاشتها على جميع الأصعدة والمستويات ، وخضوع أكثر الشعوب الإسلامية لنموذج من الأنظمة الاستبدادية الفاسدة ، بل ومتحالفة مع الغرب والإرهاب الوهابي - الصهيوني ، وعلى كل حال فإن للنجف الأثر المباشر وغير المباشر في إطلاق الشرارة الأولى في النهضة السياسية المعاصرة ، ونموجها القائم على الصحوة الإسلامية الأصيلة .

ولاريب أن شواهد هذا الإغفال كثيرة ، لمن يراجع الادبيات في مجال السياسة والنهضة ، ومن الشواهد على هذا الإغفال لدور علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام وعلمائهم وعلماء مدرستهم العلمية والجهادية وتداعيات حروب الخليج الثلاثة ما نجده في أكثر من كتاب صادر في العالم العربي يؤرخ لتأريخ النهضة وتاريخ الفكر النهضوي ، ومن هذه الكتب : (الخطاب العربي المعاصر عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية)<sup>١</sup> للكاتب الكويتي إبراهيم محمود عبد الباقي ، وهو من الكتب المعاصرة والمهمة في هذا المجال ، فرغم أن الكاتب اعترف بالتداعيات الكبرى لحرب الخليج الثانية وأكّد من خلال كلمات الدكتور طارق البشري على أن هذه المواجهة : عملت على كشف سائر عورات الأمة ، بأنظمتها وشعوبها وأحزابها وهيئاتها ومفكريها وعلماءها واطروحتها ومشاريعها الحضارية ، بل كان من نتيجة هذه الحرب على الصعيد

---

١ - إبراهيم محمود عبد الباقي - الخطاب العربي المعاصر ، عوامل البناء الحضاري في الكتابات العربية ، المعهد العالي للتفكير الإسلامي ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط١ ٢٠٠٨م ، ص ١٢.

السياسي ولادة ما عرف بالنظام الدولي الجديد، وذكر كذلك رأى بعض المفكرين العرب، من أن هذه الحرب بداية لحرب ثقافات وحضارات انطلقت ولن تنتهي ، كما أنها حرب بين فكر التسلط والاستبداد الحضاري وفكرة التعدد والاختلاف، ومع كل ذلك لم يتمكن الباحث من الوقوف على الدور الريادي لعلماء مدرسة أهل البيت عليه السلام والشيعة في العراق وإيران ولبنان وسوريا في تفجير هذه المواجهة التاريخية مع قوى الاستكبار العالم.

في هذا البحث نحاول الوقوف على أمثلة رائعة في هذه المدرسة الرائدة من الوعي الرسالي بحقيقة الإسلام ودوره الحضاري في: التصدي لقوى الاستكبار الخارجي، وفضح ممارسات الحكام الخونة والفاشيين وأساليبهم الإجرامية في إشاعة التخلف والانحطاط والذلة في بلاد المسلمين، وكذلك الوعي بأثر الإسلام في رفع الروح المعنوية للمجتمع المسلم ودفعه باتجاه النهوض والتقدم ووقف نزيف الكرامة والأخلاق والدم الذي يراق يومياً بأيدي الصهاينة.

انه دور الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وفكرة النهضوي والإصلاحي الخلاق المستند إلى الإسلام الحمدي - الحسيني الأصيل، اسلام الثورة والنهضة الذي سطره في رسالته السياسية المعروفة : المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون، فهذه الرسالة تعد وثيقة سياسية وحضارية مهمة في تاريخ المسلمين السياسي والنهضوي.

في نصوص هذه الوثيقة وخطابها السياسي ، صورة واضحة عن الإشكاليات الكبرى إلى تواجه الأمة في مجالات : التراث والواقع والحداثة . صدرت في

متصف القرن الماضي وقد كتبها الشيخ الإمام كاشف الغطاء وهو في سنى عمره الأخيرة من موقع المرجعية العليا للشيعة الامامية في النجف الاشرف أى بعد خمسين عاماً من التجربة القيادية لهذا الإمام العالم، وهو سليل أسرة عراقية لم تفارق هذا المنصب الرفيع في خدمة الإسلام والمسلمين على امتداد ثلاثة قرون ، فهي وثيقة معبرة عن روح الإسلام الخالدة ومنهج العترة الطاهرة، وعن حقيقة تعاليم القرآن الكريم، وكاشفة عن عمق الضمير الإسلامي عند الشيعة وقياداتها في العراق.

من خلال هذه الوثيقة السياسية ، يمكن فهم كل الأحداث التي وقعت في الربع الأخير من القرن العشرين ، مثل الانتفاضة المبكرة للشعب العراقي بوجه النظام البعشي عام ١٩٧٦م ، على طريق كربلاء التي أماتت اللثام عن قبح الحكومات العربية وزييفها في ادعاء القومية منذ ذلك التاريخ، وكذلك ثورة الشعب الإيراني بوجه النظام البهلوi ١٩٧٩م في إيران، وحقيقة أفكار الإمام الخميني ، ولماذا كل هذا العزم الراسخ عنده في التصدي للأنظمة الغربية وأمريكا بالتزامن مع الرغبة الأكيدة في تحديد البلاد والحرص على إدخالها في الحداثة الصناعية والاقتصادية .

من هذه الوثيقة التي تجسد الفهم الإسلامي الناصع والسليم للذات وللآخر وللواقع ، يمكن تفهم صدق حزب الله وجديته في مواجهة الكيان الصهيوني ، وكذلك رفض الشعب العراقي القاطع لتوارد القوات الأمريكية في العراق، ولماذا قال الإمام الخامنئي للرئيس الباكستاني في لقاء شهر توز ٢٠١١م: إن

الغرب وأمريكا هم أعداء الشعب الباكستاني، إذ ورد هذا الفهم للعلاقة بين الغرب وباكستان في هذه الوثيقة حرفيًا قبل ستين عاماً.

يحاول البحث تحقيق القراءة في هذه المدونة من خلال التطرق إلى التحديات الكبرى التي تواجه العالم الإسلامي، والتي وهي :

- الهيمنة السياسية الغربية الاستكبارية. (الوصول مع الحداثة المشوهة).
- الحكومات العميلة والاستبدادية. (مشكلات الواقع المتजذرة).
- التخلف السياسي الداخلي والانحطاط المزمن. (القطيعة مع الإسلام) .

## المبحث الأول :

### **الهيمنة السياسية الغربية الاستكبارية وإشكالية الحداثة المشوهة**

طرح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء جملة من الفظواهر السياسية و التحديات الحضارية ، ومشكلة هيمنة الغربية ومغريات الحداثة المادية المرتبطة بها للمناقشة في رسالته التاريخية : ( المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون ) ، إذ تداخل التحدي العلمي مع الخطاب الفلسفـي المادي مع التحدي الأخلاقي النـفـعي مع التوجهـات العـدوـانـية الـقادـمة منـ الغـرب ما عـقـدـ المشـهـدـ وزـعـزـعـ الـوعـيـ بالـذـاتـ عـنـ الـإـنـسـانـ فـيـ الـعـالـمـ إـلـاسـلامـيـ .

الشيخ الإمام أدرك جانباً من الحياة الأخلاقية والتمسك بالقيم الإسلامية والورع وبساطة العيش والوضع المادي في زمن الحكومة التركية في القرن التاسع عشر ثم شهد التحولات الكبيرة في الحياة المادية والنواحي الترفية التي تسبب بها التطور العلمي ومظاهر النهوض والتقدم في أوروبا، فقال عن هذا التحول والانقلاب في حياة المسلمين والذي تسبب به الاحتکاك القهري مع الغرب مما عرف بصدمة الحداثة:

(الذي أريد أن اقتله بحثاً وعلمـاً واصـلـ إـلـىـ قـعـرـهـ وـغـورـهـ هوـ مـعـرـفـةـ الـعـلـةـ وـالـسـبـبـ فـيـ هـذـاـ الـانـقـلـابـ الـذـيـ يـشـبـهـ أـنـ يـكـونـ انـقـلـابـاـ فـجـائـياـ فـيـ هـذـهـ الـأـمـةـ الـتـيـ تـقـولـ بـلـسـانـهـاـ أـنـهـاـ مـسـلـمـةـ وـلـيـسـ

لها من روحيات الإسلام وحقائقه وخلائقه شيء قل أو كثراً.  
نعم أمعنت انظر وأنعمت الفكر وقايسـت بين هذا العصر  
والعصر الذي أدركـته قبل نصف قرن أيام حـكمة الأتراك  
المسلمة ، والتفاوت الشاسع بين الحالين مع القرب بين الحالين،  
الـذي جعلـه عندي اتقـلابـا فجـائـياً ، فـكـرـت وـتـدـبـرـتـ الأـسـبـابـ  
وـالـمـسـبـيـاتـ وـالـعـلـلـ وـالـمـعـلـوـلـاتـ ، فـلـمـ يـوـصـلـنـيـ السـيـرـ الـحـيـثـ  
وـالـبـحـثـ المـتـواـصـلـ إـلـىـ أـمـرـيـنـ اـحـدـهـماـ يـعـتـقـدـ الـأـخـرـ وـيـلـازـمـهـ،  
الـأـوـلـ: توـغـلـ الاستـعـمـارـ وـتـمـكـنـهـ منـ هـذـهـ الـأـقـطـارـ ، ...ـ الـثـانـيـ :ـ  
عدـمـ وجـودـ مرـشـدـ طـبـيـبـ أوـ وـاعـظـ أوـ خـطـيـبـ يـصـرـخـ فيـ هـذـاـ  
المـجـتمـعـ الـهـالـكـ صـرـخـةـ تـوـقـظـهـ منـ نـوـمـهـ)ـ<sup>١</sup>ـ.

ومن المعروف في أدبيات النهضة الإسلامية في العصر الحديث ارتباط هذه النهضة بالمحفزات القادمة من الغرب وفي مقدمتها صدمة الاستعمار والحداثة ، فالغرب الذي هو مصدر التقدم العلمي الحديث والتطور في الصناعات والفنون المختلفة ، هذا الغرب هو مصدر الهيمنة والإذلال والاستعمار الذي يهدد العالم الإسلامي وعلى المسلمين مواجهته والتخلص من هيمنتـهـ من خـلالـ التـقـدـمـ وـالـتـطـورـ وـالـنـهـوضـ ، وـهـذـهـ هيـ الإـشـكـالـيـةـ الـكـبـرـيـ الـتـيـ مـازـالـتـ قـائـمـةـ وـلـمـ تـسـتـطـعـ أـدـبـيـاتـ النـهـضـةـ الصـادـرـةـ فيـ غـيرـ مـدـرـسـةـ أـهـلـ الـبـيـتـ عـلـيـهـ وـعـلـمـائـهـ منـ حلـهـاـ عـلـىـ الـمـسـتـوـيـنـ الـنـظـريـ وـالـتـطـيـقـيـ.

---

١ - الإمام الأكبر محمد حسين آل كاشف الغطاء- المثل العليا في الإسلام- رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ، إيران ١٩٩٧م ، ص ١٣١- ١٣٤

ومنذ البوادر الأولى لتشكل تيار النهضة في العالم الإسلامي ، وهذا التيار يتوجه صوب التبعية للغرب في المجالات كافة وخاصة المجال السياسي والاستقواء بهم في الهيمنة على الواقع ، وهذه التبعية ، وهذا الاستقواء هو الموجه النظري والعملي للسياسات ، ومن الواضح أن منهجية البناء في الدول الإسلامية المعاصرة كانت تتوجه صوب العناية بقشور الحداثة وتناظراتها الاستهلاكية ووراودها الترفية ، أما البناء التحتي فلا يتعذر الاهتمام بالجيش الخادم للأسر الحاكمة والذي يؤمن الحماية لها ولبقائها في الحكم على حساب توفير مقتضيات التنمية الحقيقة وشروط التقدم المستدام ورفع المowanع من أمام سبل تقدم الشباب وحركتهم العلمية والنهضوية ، والسعى لبناء دولة خادمة لأبناء الشعب وراعية لمصالحة الحقيقة.<sup>١</sup>

لقد أدرك الشيخ الإمام كاشف الغطاء عمق هذه الإشكالية في بناء الدولة العراقية الحديثة عندما قال للسفير البريطاني في العراق:

(إن العراق منذ احتلالكم له حتى الآن يسير من سيء إلى أسوة في جميع نواحيه الاقتصادية والمعمارية وغيرهما ، فقال - السفير البريطاني - ما معناه كلاما ! بل تحسنت الأمور وتقدم العمران فقد كان القصر في بغداد يحيط به الماء كل سنة عند الفيضان ، وقد صار آمناً منذ ذلك فقلت: ليس المهم قصر الملك بل كوخ الفلاح

---

١ - ينظر: د . علي مبروك ، لعنة الحداثة بين الجنرال والبasha ، دار رؤية ، مصر العربية ، ٢٠٠٦م ، ط ١ ، ص : ١٠ .

... الذي يغرق منه كل سنة الألوف ومئات الألوف من الفلاحين المساكين بهيمون على وجوههم ، ومن يسلم من موت الغرق من عيالهم وأطفالهم يصبحون بلا مأوى ويستول التيار على كل ما يملكون من مقومات الحياة... فأين العمران والتعمير يا فخامة السفير) .<sup>١</sup>

الشيخ كاشف الغطاء في هذا النص كشف عن عمق إشكالية اليمنة الغربية التي امتدت إلى الداخل الإسلامي ، فاستقطبت جملة من النخب السياسية التي لا تفك إلا بعذاتها ومكاسبها والمناصب التي تحصل عليها ، وبذلك عملت على تقويض عوامل البناء الحضاري الكامنة عند الأكثريّة من أبناء هذه الأمة ، والمتمثلة في قيمها الروحية والأخلاقية وداعي التعاون والتكافف من الشهامة والشرف والشتم وهي من السمات الأساسية والحيوية في الشخصية الإسلامية ، إذ انهارت هذه الشخصية بانهيار هذه الخصائص ، واستبدلت هذه العوامل بخصائص الركض وراء المنافع المادية القادمة من الغرب ، الذي يعمل على توفير الدعم للنخب المرتبطة بالغرب من الرأسمالية الذليلة البهزلية في العالم الإسلامي ، ومؤسسات الدولة والسلطة التي تعمل في ظل المحتل وبرعايته من أجل توفير الدعم للاقتصاد الغربي ، من قبل مروجي السلع الغربية من التجار الاحتكاريين ، والإقطاعيين من مصدرى المواد الأولية

---

١ - الإمام الأكبر محمد حسين آل كاشف الغطاء- المثل العليا في الإسلام - ص ٦١.

والزراعية إلى الغرب، لقد دعمت هذه الفئات التي شخصها الشيخ كاشف الغطاء عندما وصفهم :

(أولئك الذين يسكنون القصور ويتمتعون بافتراض الحرير والخور، وشرب الخمور، ملائين الدنانير من المعبد الأسود، ومن ضرائب المساكين من الأهلين المستعمر وأولياؤه الحاكمون على مصالحهم وشهواتهم...العراق يبني المدارس المشيدة، ولكن ثكنات عسكرية، ويعمر الجسور المنضدة ولكنها جسور حربية، ويقيم عمارات للسكك الحديدية ولكنها متاريس دفاعية، المهندسون والفنانون كلهم انكليل ويستوفون الرواتب الضخمة من مالية العراق لصالح الأسياد والخلفاء، راتب الواحد منهم شهرياً مائة دينار فأكثر والعامل العراقي يكدر وكدح من الصبح إلى المساء بربع دينار!).

وهكذا تأسس أنموذج غير تنموي لا يعكس مصالح النخب السياسية الفاسدة بقدر ما يعكس متطلبات الهيمنة الغربية ، ويتبين من كلمات الشيخ الإمام كيف ان النخبة السياسية هي عبارة عن أشخاص يعملون على ارتباط الحداة الواردة إلى الأمة الإسلامية من الغرب الرأسمالي بمشروعه الاقتصادي ومصالحه الاستكبارية وحروبه الدائمة من أجل فرض مركزيته على أنحاء المعمورة ، أي محاولة توجيه العالم الإسلامي وقدراته المادية والبشرية باتجاه

تحقيق أهدافه سواء في تسويق منتجاته الصناعية الترفية ، أو من أجل التخلص من منافسة الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية ونفوذها في البناء الاشتراكي آنذاك .

أي أنها الحداثة التي يتم الترويج لها في العالم الإسلامي هي حداثة مشوهة ، استهلاكية ، غير علمية و لا أخلاقية ، وذلك لارتباطها بالخطاب الفلسفى الاستعماري ، المادى ، و عبادة المصلحة ، والقفز على أوجاع الفقراء والمحرومين ، كما عبر عن ذلك سماحته ، ومشروطة بتطوير الجانب العسكرى والاستهلاكى حسراً وتوفير الدعم الميدانى للقوات الاستعمارية المتواجدة في البلاد الإسلامية ، سواء من أجل القضاء على أية حركة نهضوية مستقلة يمكن أن تقوم في داخل العالم الإسلامي أو من أجل ضرب المعسكر الاشتراكي ، فقال في معرض تفسيره لمعنى الغرب إلى إيجاد وتوقيع معاهدات الدفاع المشتركة بين الدول العربية أو الإسلامية:

( لهم بذلك غرضين مهمين: الأول: كبح جماح يقظة الأحرار ونهضة الشعوب العربية بالقوة والسلاح والثكنات والجيوش الأجنبية وبالتالي بقاء سيطرتهم الاقتصادية والمادية بل زيادة منافعهم واستغلالهم . والغرض الثاني: جعل الشباب من الجيوش العراقي دريئه ووقاية للمستعمرین) <sup>١</sup>.

---

١- المصدر السابق ، : المثل العليا في الإسلام : ص ٦٧ .

لا يكرس الشيخ من خلال هذه الكلمات تقدّه الجدي للنموذج السياسي الغربي في الهيمنة على العالم الإسلامي فحسب ، بل يفضح أولئك الذين ساروا في ركاب هذا الأنماذج ، واعادوا تسويقه في مجتمعاتهم على أنه الاطار النظري والفني والأخلاقي للحداثة والمعاصرة .

### - الموازنة السياسية بين الغرب الرأسمالي والشيوعية :

الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء يعد من الإسلاميين الأوائل في طرح شعار: لا شرقية ولا غربية، في كتابه : (المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون ) ، وقد ذكر هذا الشعار في إطار الموازنة بين الغرب الرأسمالي الاستعماري كما يسميه والاتجاه الشيوعي، وفي هذا الإطار شخص حجم العدوانية لدى أمريكا ، وأنه لا توجد نسبة بين حجم الشر الأمريكي المتضاد مع الشر القادم من الشيوعية فقال:

(لو أمعنا النظر وضربنا الرقم القياسي على طاولة الحساب  
ووضعنا أعمال الجهتين في كفتي، هانت علينا الشيوعية  
وثلبت صدورنا منها، فان الشيوعية ما استعمرت من العرب  
دولة واغتصبت منا بلادا ولا ابترت من مالا وعتادا، وهذه  
الحرب الباردة التي تدسها الشيوعية في كل بلاد حتى في  
النجرف إنما هي منك ومن أجلكم، ولا تقصد إلا الانكليز  
المتقمص بشوب الإسلام أو العرب، ولو تخليتم عنا ولم  
 تستمليوا إليكم ضعفاء الأيمان من رجالنا لما كان للشيوعية أي

شأن معنا وكنا في مأمن من شرها فلا تكون لنا ولا علينا،  
وليس لدينا من نظام الدول الشيوعية وأهدافها وأسلوبها في  
العمل أمارات وعلامات تدل أنها تريد حربنا من الخارج كما لا  
نريد حربها) <sup>١</sup>.

لقد أثبتت جملة من معطيات الواقع المعاصر سلامة التصور السياسي والنموذج في العلاقات الدولية و الذي ذكره الإمام كاشف الغطاء عن ما يسمى بالخطر الشيوعي أو خطر الاتحاد السوفيتي السابق ، أو حلف وارشاوا ، أن هذا الخطر الدولي والسياسي في الواقع الحقيقي لم يكن موجودا، بل الموجود على أرض الواقع هو الخطر الأمريكي ، وأن حلف الأطلسي وفي مقدمته أمريكا هو من يقف وراء حتى بعض التخبط والارتباكات وسوء التشخيص الذي وقع فيه أصحاب القرار في موسكو، مثل احتلال أفغانستان . ولا تزال روسيا وهي الوريث الشرعي لموافق الاتحاد السوفيتي السابق لا تزال تتسم بالموضوعية وعدم العدوانية كالتي نراها لدى أمريكا والغرب ومن الشواهد على إرادة الشر الأمريكية الموقف من الصناعة النووية في إيران ، وكيف تعمل ضد العالم الإسلامي من خلال أنصارها الرجعيين في الخليج ، فتنشر الإرهاب والارهابيين بتمويل النفط السعودي والقطري .

وهكذا يتضح أن الحداثة التي ينشدها الشيخ كاشف الغطاء هي الحداثة الإسلامية والقائمة على ثنائية نظرية هي : العلم والأخلاق ، وثنائية عملية هي

الاخلاص والعمل الجدي ، و المستندة بذلك إلى الإسلام وشعاره القديم  
والجديد معاً : نموذج لا شرقية ولا غربية ، بل نموذج الأمة الوسط كما عبر  
الشيخ رضوان الله تعالى عليه .

## المبحث الثاني :

### الحكومات الاستبدادية في العالم الإسلامي.(الواقع)

الجهة الثانية من الجهات الثلاثة التي وجه الشيخ كاشف الغطاء البحث والنقد؛ بعد الغرب وحداثته المشوهة ، هي الحكومات الفاسدة في بلدان العالم الإسلامي وما هي عليه من الإمعان في اضطهاد شعوبها والتآمر عليها إلى جانب قوى الاستكبار الغربية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، فقال :

(ما أدرى أي المصيّتين وأنكَد على الشعوب العربية ، مصيّتها بحكوماتها التي تساوم عليها، ت يريد أن تبيعها بيع الرقيق وتسوقها سوق إلى الجزارين سوق الأغنام إلى الذبح، أم مصيّتها من الدول الغربية التي أصبحت شرًا على العالم كله) .<sup>١</sup>

وراح سماحته يذكر في هذه الرسالة الوجيزة جانباً من خصائص الحكومات في العالم الإسلامي فذكر حكومة تركيا في متتصف القرن الماضي ووصفها بأنها عدوة العرب والإسلام فقال:

(حكومة تركيا الآن عدوة العرب والإسلام وصديقة اليهود، وقد يمْحِلُّوا صديق عدوٍ ليس بصديق. وقد باعت تركيا شرف استقلالها بالدولار وصارت آلة لأمريكا تصرفها كيف تشاء،

---

١ - المثل العليا في الإسلام : ص ٨٦.

ويإشارة منها أصبحت اكبر مساعد لإسرائيل لقيطة أمريكا  
وابتها المدللة )<sup>١</sup>.

وقال عن النموذج السياسي للحكومة العراقية، ومؤسساتها الغارقة في  
الفساد ، و المنصبة من قبل الانكليز:

(ليت شعري ولا ادري هل تجهل الحكومة العراقية حالة الشعب  
العربي وتذمره الشديد والكتب المؤلم من الحرمان وسوء  
الوضع في جميع دوائرها، وقلنا ولا نزال نقول: إن الشعب قد  
تورم وتآلم بأجمعه من سوء أعمال المسؤولين بجميع طبقاتهم  
من رأس الوزارة إلى أدنى الإدارات حتى صار كالجرح الذي  
تقيق ويوشك أن ينفجر) <sup>٢</sup>.

وذكر رحمة الله نموذج بناء مؤسسة الجيش في الأردن وما يراد لهذه المؤسسة  
من الوظائف ، و موقف حكومتها المخزي من القضية الفلسطينية وقمعها  
للشعب الفلسطيني ، فقال:

(أنشأوا في الأردن جيشاً انكليزياً من العرب ليضرب العرب،  
وهكذا كان وهكذا فعل، ويفعل كل يوم هذه البلية العاتية) <sup>٣</sup>.

١ - المثل العليا في الإسلام : ص ٥١.

٢ - م. ن: ص ٤٧.

٣ - م. ن: ص ٨٤.

وذكر حكومات عربية وإسلامية أخرى فقال :

( انظروا إلى ما يجري في مصر من الانقلابات والاضطرابات وإراقة الدماء واعطف نظرك ثانياً إلى سوريا وشكليات الشيشكلي ومشكلاته، والنفوس التي زهقت في تلك الحوادث، وهكذا طهران ولبنان والعراق، الاستعمار يبعث بيد فيشغلها بنفسها وفي داخلها ويدفع اليهود عليها باليد الأخرى ).<sup>١</sup>

كما وجه نقده إلى حكومة باكستان وحذرها من التحالف مع أمريكا وإسرائيل ومظاهرتهم، وأعد هذه المظاهرة مما يحرم شرعاً ، إذ انه من التظاهر والتحالف على إخراج المسلمين من ديارهم، فقال:

( وهل الباكستان إذا دخلت في معاهداتهم - الغرب وأمريكا - لا تكون من ظاهر على إخراج المسلمين من ديارهم وخرج عن حظيرة الإسلام ؟ ، والقرآن الكريم يقول : ( ومن يتولهم منكم فانه منهم )<sup>٢</sup> .

ثم قال في موضع آخر في رسالته:

---

١ - م. ن: ص ٨٤.

٢ - م. ن ص ١٠٨.

(اعتقد اعتقاداً أكيداً أن الشعب الباكستاني المسلم سوف تقوده عقيدته الإسلامية السليمة إلى فسخ المعاهدات العسكرية الاستعمارية في القريب العاجل).<sup>١</sup>

### - الموقف من فلسطين :

كتب الشيخ كاشف الغطاء وقال الكثير عن القضية الفلسطينية<sup>٢</sup>، ومنها ما جاء في رسالته : المثل العليا ، إذ قال مخاطباً المجتمعين في مؤتمر بحمدون من العرب والأمريكيين لبحث المثل العليا والقيم الروحية، مذكراً لهم بالتسليح الأمريكي للصهيونية التي ترتكب المجازر يومياً في فلسطين :

(هل ذكروا أو تذكروا هجوم الصهيونيين قبل بضع سنين على دير ياسين فقتلوا الرجال والأطفال وبقرروا حتى بطون الحوامل، وهل ذكروا مbagتة الصهاينة ليلاً على "قبية" فصبوا صواعق قنابلهم على البيوت وأهاليها نيا ، ونسفوا تلك المساكن على ما فيها من رجال ونساء وأطفال ... وهل ذكروا قتل اليهود رجال - نحاليـن - من غير جنائية، وبلا أي سبب ، وهل ذكروا أن نصف تلك البيوت ما كان إلا بقنابل أمريكية؟

١ - م. ن: ص ٥١.

٢ - ينظر : محمد حسين كاشف الغطاء ، في السياسة والحكمة ، وكتابه : مجموعة الخطب ، وكذلك كتابه : جنة المأوى ،

وما قتل أولئك العرب المساكين من المسلمين إلا بأسلحة أمريكية، وما شجعوا على هذه الوحشية إلا بقوى أمريكية<sup>١</sup>.

وكان سماحته يحمل الحكومات العربية والإسلامية مسؤولية ما حدث في فلسطين ، ويرى أن هذه الحكومات العميلة المرتبطة بالهيمنة الغربية هي من يقف وراء ذبح الشعب الفلسطيني ومن هنا قال مخاطبا القوى الغربية :

(انتم ذبحتم فلسطين ولكن بيد الدول العربية ذبحتموها بيد الدول المسلمة ليكون ذبحها شرعياً ، ذبحاً بيد المسلم حتى تكون ذبيحة يحل أكلها لكم ولصهاينة )<sup>٢</sup>.

لقد كان من اكبر تداعيات وجود نموذج الحكومات المستبدة هو تآمر هذه الحكومات مع الدول الاستعمارية من أجل تسليم فلسطين إلى الصهاينة، وبالطبع فان هذه المسعى لم يتوقف في الخمسين سنة التي أعقبت رحيل الشيخ كاشف الغطاء ، كما هو معلوم ، من كامب ديفيد وحتى أوسلو ، ولا تزال جملة من الأنظمة العربية وفي مقدمتها بعض الأنظمة الخليجية ضالعة في التآمر ضد القوى المقاومة في فلسطين ولبنان وسوريا والعراق والبلدان العربية والإسلامية الأخرى.

---

١- الإمام الأكبر محمد حسين آل كاشف الغطاء- المثل العليا في الإسلام، ص ١١٥  
٢- م. ن : ص ٣٤

## - الموقف من الفساد الإداري:

الإفراز السلبي الثاني لوجود الحكومات المستبدة ، ونموزجها السياسي الفاسد هو انتشار الفساد الإداري والمالي في المؤسسات العامة ، إلى جانب التخلف والجهل الذي يسود البلاد الإسلامية، وقد أخذ الشيخ كاشف الغطاء من الأنموذج العراقي وهو الأنموذج الألمع ، مع كل الأسف ، من بين كل نماذج الفساد الإداري في العالم ، بعد أن تصدر قوائم حالات الفساد الدولية ، أخذته الشيخ رحمة الله تعالى ، موضوعاً للمناقشة والتحليل فقال في حجم المشكلة العراقية :

(يلزمنا أن نخرج إلى المكتبة العربية كتاباً بحجم القاموس ، بل لو أردنا أن نقتصر فقط على قضايا الشرطة ورشواتهم وسوء تصرفاتهم ومقاسمتهم السرقات مع اللصوص وال مجرمين لم يحصل هذا الوضع التعيس قاموس بل ولا قواميس ، وقل مثل هذا في كل دائرة من الدوائر حتى القضاء والمحاكم التي ربما يقال أنها أんژه الإدارات نسبة...أما الاختلاسات والخيانات وفتح باب الرشوّات على مصراعيه في الري والإشغال والأعمار والإعاشرة والبلديات والاستهلاك وغيرها فهو أمر مكشوف لا ستار عليه ولا أغطية وصار حديث المقاھي والأندية).<sup>١</sup>

---

١ - م. ن: ص ٤٨.

### المبحث الثالث :

#### التخلف الداخلي والانحطاط (القطيعة مع الإسلام).

في النصف الأول من القرن العشرين ومع تصاعد المد الاستعماري وما رافقه من ترويج للرأسمالية الغربية وفكرة المادي باعتبار أن هذا الفكر هو مصدر التقدم والتطور وتحقيق نموذج النهضة المنشودة في العالم الإسلامي، على غرار ما حصل في أوروبا من الانتقال من العصور الوسطى إلى عصور النهضة والأئنوار والحداثة التي بلغت ذروتها في مطلع القرن العشرين، وكانت الدعوة في أوساط المثقفين وال منتخب المرتبطة بالغرب صريحة في ضرورة الانخراط في التبعية للغرب من أجل تحقيق النهضة المادية المطابقة لتطور الحياة الترفية في بلدان أوروبا الاستعمارية، ولاشك أن التشريف في هذا الاتجاه المادي كان يجري برعاية غربية ، ومن هنا ذكر الشيخ كيف أن الغرب كان يقف من خلال جلب المغريات إلى العالم الإسلامية فقال:

(كان أكبرهم المستعمر جلب المغريات وأثارت الشهوات فتم له ما أراد ووصل إلى بغيته من اقرب الطرق وأسهلها ، فأستجلب بجيش الشهوة كل ثروة.... وسرت هذه الروح الخبيثة ، روح الفساد ، فساد الأخلاق والاستهتار والخلاعة ، وموت الشعور والوجودان ، وضياع المقاييس وهتك التواميس إلى جميع الطبقات الحاكمين والمتحكمين والرعاة والرعية...بلغ الفسق والفحوج وسكب الخمور في بغداد إلى

حد أن أهالي لندن وباريس وأمريكا يتعجبون من ذلك ولكنهم طبعاً يفرحون ، حقاً أن بغداد قد حققت عليها كلمة العذاب ، وكأنها تمثل أية م الكتاب المجيد حيث يقول : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أتوا خذناهم بعثة فإذا هم مبلسون )<sup>١</sup>.

الشيخ كاشف الغطاء بين في أكثر من مورد و موقف أن الخل الحقيقي لمشاكل المسلمين يكمن في العودة إلى نماذج الإسلام الحمدي الأصيل في تأسيس السياسة والمؤسسات كما هو الحال في العهدين : النبوي وعهد الإمام علي بن أبي طالب في السياسة والإدارة وحفظ مصالح الناس ، وهو إسلام الشرف والشهمة والشهامة وحفظ الكرامة الإنسانية كمقصد أساس في الشرع الحنيف وذلك في قبال شينات أهل السوء من : الشر والشغب.

هذا هو الإسلام الذي يوحد ولا يفرق بين أبناء الشعب الواحد . ويحفز لديهم دواعي الهمة والشهامة والشرف الحقيقي ويرسخ لديهم روح العمل المخلص من أجل التقدم والرقي والمحافظة على الأرض الإسلامية والاستقلال والحياد ، وليس في التبعية إلى الشرق الشيعي أو الغرب الديمقراطي ومن هنا قال :

(إن من يتطلب المثل العليا حقيقة ، ويلتمس العثور على ما يجمع القيم الروحية تماماً وواقعاً ، لا يجد لها مهماً كد وكبح ،

وشرق وغرب لا يجدوها إلا في الإسلام، لا يجدوها إلا في شريعة محمد ﷺ وسيرة محمد ﷺ ولا يجد الديمقراطية الصحيحة والاشتراكية العادلة إلا في حياة محمد ﷺ وعنده خلفاء محمد ﷺ .... لسنا مع اليمين ولا مع اليسار ، بل جعلنا الله تعالى - امة وسطا قال: (شجرة مباركة زيتونة لا شرقيو ولا غربي ) وهذا من أهداف الإسلام ومثله العليا )<sup>١</sup>

ولم يكن الشيخ في دعوته إلى الوصل مع الإسلام والنص القرآني واستحضار قيم التراث ودروسه من أصحاب الخيار الطائفي كما نجده اليوم عند كتاب النهضة ودعاة الحضارة المغشوша من لا يتورعون عن الإقصاء والتهميش بل وكيل التهم والشتائم والتهوين لعلماء ومفكري مدرسة أهل البيت ع .

كاشف الغطاء كان يفكر ويذكر بمناقب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ونحوذجه المعروف في الرزق والترفع عن الأموال إلى جانب مناقب الإمام علي (عليه السلام ) وسيرته في رعاية الأرامل والأيتام، ويشيد بجملة من علماء بغداد من أهل السنة والجماعة ويدركهم بالأسماء الشخصية لهم ، وذلك إلى جانب ذكر علماء الشيعة ويصفهم بالفئة الصالحة من العلماء الأنقياء وأهل الشرف والشهامة والفتوة والزعامة .

الإمام كاشف الغطاء كشف عن أصحاب المصلحة الحقيقة في وقوع الفتنة الطائفية في البلاد الإسلامية من أجل تمهيد الطريق للقضاء على نفس الإسلام والسيطرة على البلاد، وهم الأجانب من الغربيين فقال :

(إن كل ما يقع من هذا القبيل بين المسلمين في الوطن الواحد ، أو في أوطان متباعد هو أعظم سلاح للمستعمرات بل هو فرة عين له وما نشبت مخالب الأجانب في المالك الإسلامية والبلاد العربية إلا بإلقاء الفتنة بينهم وأثارت التعرات الطائفية بينهم... اضرب بطرفك من حيث شئت من شرق الأرض وغرتها ، وشمالها وجنوبها هل ترى بلدا إسلاميا أو امة عربية لم ينشب الاستعمار أنىاب نوائبه ولم يصب عليها صييات مصائبها ، يأتي إلى البلد الواحد والإخوان المواطنين الوادعين ، فيحتلها الاحتلال العلقة في الجسم يتتص دمها ويستلب ثروتها ويفسد أخلاقها ويلقح بذور الفتنة والبغضاء بينها حتى يقتل بعضهم بعضا من غير سبب معقول ولا مبرر مشروع ، يشهد لك بذلك أعماله واحتلاله في الهند وكينيا وإفريقيا وايرلندا ومصر والسودان والعراق وغيرهما من البلدان الإسلامية) <sup>١</sup> .

---

١ - الإمام الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء- بيان فتنة البحرين – سلسلة بحوث ومقالات الإمام كاشف الغطاء، مكتبة الإمام ومدرسته الدينية ، النجف الاشرف ٢٠١١م،

## الموقف من التجديد:

لقد اتسم عصر الشيخ كاشف الغطاء وهو منتصف القرن الماضي بنضج الرؤيتين النهضوية – الإصلاحية، والثورية – الاقلاقية، في العالم الإسلامي وكانت الأفكار القادمة من الغرب هي من يغذي الصراعات الأيديولوجية والتوجهات الفكرية الناشزة داخل العالم الإسلامي ، وفي هذه الحقبة اتسمت العديد من مواقف العلماء بالسلبية واللامبالاة اتجاه الحراك الفكري في الواقع ، واهتمام البحث الواجب عن النموذج الفكري الإسلامي في المجالات السياسية والاقتصادية والبناء الاجتماعي .

ومن هنا جاء صوت الشيخ وطرحه لهذه الأفكار والرؤى النقدية التي تحفز البحث والتفكير ولاسيما في الجوانب السياسية و التي تمس صميم الواقع ، مدوياً ولاسيما انه جاء من موقع المرجعية الدينية العليا فأحدث حراكا فكرياً في الأوساط الدينية وغيرها ، يقول الكاتب شibli الملاط عن تداعيات صدور كتاب المثل العليا في الإسلام، وكتاب محاورات :

(فهم علماء النجف الشبان المتحمسون عند صدور هذين الكتابين ، اللذين أعيد طبعهما مرات عديدة، أن باباً فتح أمام نوع جديد من الأديبيات وتضمن الكتابان كما المع إليه سابقا رسالتين مهمتين من كاشف الغطاء تحددان المسار الواجب إتباعه : أولاً: تجديد الإسلام هو الحل الوحيد، وثانياً: إن أي عمل يقل عن نهضة شاملة لن ينجح في كبح جماح الخطرين

اللذين أغروا بعنف على المجتمع الإسلامي الصهيونية والشيوعية)<sup>١</sup>.

ما ذكره شibli الملاط بشأن التجديد عند الشيخ كاشف الغطاء فهو حقيقي ومتيقن جداً ، أما حصره للخطرين اللذين أغروا على العالم الإسلامي بالشيوعية والصهيونية فهذا الخصر لا يمكن المساعدة عليه ، لأن الشيخ كان يرى إن أمريكا هي من يقف وراء كل الشرور في العالم الإسلامي ، وان نفس الدول الأوربية فقدت استقلالها أمام الهيمنة الأمريكية وخطرها المتزايد، إذ قال :

(إن هذه الدول - الأوربية الداخلة في الحلف الأطلسي- بالحقيقة فقدت استقلالها الكامل في أمورها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وتبعت أمريكا في سبيل مصالحها الاستعمارية والاقتصادية المتبادلة، ومع ذلك نجد في تلك الدول أحزاباً كثيرة تدعوا إلى الانفصال عن السياسة الأمريكية)<sup>٢</sup>.

١ - شibli الملاط ،تجديد الفقه الإسلامي ، ترجمة غسان غصن ، بيروت - دار النهار ١٩٩٨م ، ط١ ، ص ٥٠

٢ - الإمام الأكبر محمد حسين آل كاشف الغطاء- المثل العليا في الإسلام ، ص : ٣٩

## الخاتمة :

الإمام كاشف الغطاء ، يعْدَ اليوم وبالرغم من مرور ما يقرب من ستين عاماً على رحيله راهناً في أفكاره، وحاضرًا في اطروحته في البحث عن النموذج السياسي الأمثل ، الذي يفكر بصالح العالم الإسلامي بطريقة كلية ، ورغم أن المشهد العام في العالم الإسلامي قد تغير كثيراً ببركة جهود العلماء المجددين، والمفكرين المصلحين، وجهود وتضحيات محور المقاومة ، إلا أن التحديات التي طرحتها الشيخ للبحث والتفكير والنقاش لا تزال قائمة ، وتنطلب المزيد من بذل الجهد الثوري والإصلاحي وتوفير مقتضيات البناء النهضوي وشروط التجديد الحضاري والسعى نحو إزالة الموانع بعزם وإصرار، فالهيمنة الغربية الاستكبارية في الحقل السياسي ، هي أولى التحديات وأكبرها ، وهي لا تزال تكافح بضراوة من أجل تكريس المركبة الأمريكية- الغربية في مقابل تبعية العالم الإسلامي وتخلفه وهامشيه،وها هي أمريكا تبذل جهوداً استثنائية من أجل تطبيق محور المقاومة واعادة دولة من خلال الحصارات الاقتصادية والاعلامية ، بإعادتها إلى الحظيرة الغربية مثلما كانت من قبل خمسين عاماً ، وكذلك تستفيد من تعقيدات المشهد في الشرق الأوسط من أجل لضرب هذا المحور المقاوم ، والتخلص من قدراته وهي الاصل في اعاد التوازن في العلاقة مع إسرائيل وأثبات محدودية قدرات هذا المحور في المواجهة الجدية .



## **الدراسة السادسة:**

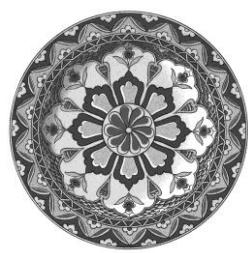
### **الأنموذج في بناء الشخصية الفكر السيكولوجي عند محمد تقي الحكيم**

**المبحث الأول : اعتماد المنهج السيكولوجي .**

**المبحث الثاني : حضور المصطلح السيكولوجي ونقده .**

**المبحث الثالث : توظيف نظريات التحليل النفسي .**

**المبحث الرابع : تطبيقات المنهج السيكولوجي.**



## المبحث الأول:

### اعتماد المنهج السايكولوجي في التحليل والمنهجية في العرض:

#### التمهيد:

هذه هي الدراسة والأخيرة في هذا الكتاب: (دور علماء الشيعة العراقيين في تأسيس العلوم الإسلامية وتطويرها) ، و الموسومة : الفكر (السايكولوجي عند السيد محمد تقى الحكيم) ، والتي سبق أن تم نشرها في سلسة الابحاث عن الفكر الإسلامي المعاصر عند السيد محمد تقى الحكيم ، وذلك في عام ١٩٩٩ م . وقد شملت تلکم الابحاث في حينها : الجوانب اللغوية الحديثة وربطها بعلم الاصول في مدرسة النجف الحديثة وانجازاتها، والفكر الاقتصادي الإسلامي في مواجهة التنظير الفلسفی المارکسی او في مواجهة الفلسفة التفعیة للرأسمالية، والفكر الاجتماعي الإسلامي وقضاياهم المهمة في اطار المواجهة التاريخية والتجاذب المستمر بين مدرسة الامامة، مدرسة أهل البيت ، ومخالفتها من أتباع ما يسمى بمدرسة الخلفاء التي تم التأصیل لها في عهد الامویین كما عرفا.

لقد تضمنت تلکم البحوث أيضاً ، مساهمة مهمة من مساهمات هذا المفكـر الكبير في اطار اغناء الفكر الإسلامي وتحديـه من خلال الافتتاح على المدارس والنظريـات في علم النفس الحديث، ومحاـولة الاستفادة من هذا العلم الحديث و

المعاصر في تعميق البحث العلمي ومناهج التفكير ومن ثم امكانية الوصول الى النتائج غير المتوقعة في مجالات دراسة مجالات مثل : التاريخ ، أو سير الشخصيات ، أو تحليل النصوص المختلفة وكذلك في مجال علم الاصول وروافد الاستباط .

أدخل السيد المنهج السيكولوجي ومصطلحاته وأنمط التفكير فيه بالمواضيعات المختلفة على مجالات التربية والعلوم السائدة في الحوزة ، وهو مبدأ جديد في التفكير التربوي والتعليمي الحديث والمعاصر ، فالتربيـة التقليدية لم تكن تستند إلى علم النفس ، ولكن التطورات الهائلة في هذا العلم قد جعلت منه الأساس الكبير للعمل التربوي والتعليمي ، وذلك بالنظر لما يقدمه من أفكار قادرـه على النهوض بالعمل التربوي ومن ثم رفد المجتمع بالكوادر الجديدة والشباب الوعـي والقادر على الاضطلاع بمواجهة تحديـات الحديثـة :

(قدم ظهور علم نفس .... خدمات جلى للتربية ، حين درس مراحل الطفولة المختلفة ، وأهم الخصائص النفسية التي تتجلـى في كل منها ، فوضع على هذا النحو ، الأساس المـكين لـ التربية ملائمة للنمو النفـسي ) ١.

بالرغم من ان هذا المـفـكر الـقـدـير لم يـترك لنا كتاباً مستقلاً في علم النفس الا انه ترك لنا افـكارـاً كـثـيرـة وـمـنـجزـات ، مـبـثـوـثـة هنا وهـنـاك في مؤـلفـاتـه المـخـلـفة ، تعـكـس

---

١ - التربية عبر التاريخ ، عبد الله عبد الدائم ، دار الفكر ، بيـرـوت ، طـ٤ ، ١٩٧٣ ، صـ ٥٠٩ .

حجم اهتمامه وتضلعه في هذا العلم على المستويات كافة: التنظير الفلسفى والبحث العلمي الصرف والتطبيق العملى ، وذلك من خلال دراسة شخصيات تاريخية كبيرة كأبن عباس ومالك الأشتر والسيد الحميري رحمهم الله تعالى. أو من خلال تحليل النصوص أو دراسة الواقع التاريخية أو في ادلة علم الأصول. ومن أجل اعطاء صورة واضحة عن توظيف سماته لعلم النفس في دراسته لابد من التعرض للأبحاث الآتية:

١. أصل اعتماد المنهج السيكولوجي في التحليل والمنهجية في العرض.
٢. حضور المصطلح السيكولوجي ونقده.
٣. حضور النظريات السيكولوجية.
٤. مجالات تطبيق متنوعة.

## المبحث الأول: اعتماد المنهج السيكولوجي

### في التحليل والمنهجية في العرض:

التفكير في النفس الإنسانية ، وما يتبع ذلك من تشكيل السلوكيات وتكوين الشخصية ، يستدعي من الباحث السيكولوجي أن يجمع بين العديد من المناهج وأنماط التفكير ، ولاسيما النمط التاريخي ، القائم على رصد حركة الشخصية في محيطها الحيوى ، وتداعياتها الحرة ، ومن ثم بعد ذلك اعتماد المنهج البيئي في إعادة تركيب هذه الشخصية ورصد مكوناتها من الأجزاء والشروط والروافد التي أسهمت في تشكيلها ، وهذا ما اعتمدته المفكر السيد محمد تقى الحكيم عند دراسة الشخصيات الإسلامية الكبيرة وذلك لكي يعيد تقديمها كقدوات للشباب الواعي في زمن أصبح فيه علم النفس جزء حيوي في توجيه الفكر التربوى والتعليمي . في هذا المبحث سيتم تناول أمرين، الأول يتعلق باعتماد عمليات التحليل النفسي الحيوية ومن ثم كيف يمكن الخلوص إلى تحديد العناصر المشتركة التي اظهرها التحليل، وهو الامر الثاني ، والذي يتعلق بعرض مفردات البحث طبقاً للمنهجية المتبعة في علم النفس ، وطريقة ترتيب البحث فيه من أول التركيب الجسدي المرتبط بالمكونات النفسية ، وحتى آخر المباحث النفسية المتعلقة برصد الأمراض السيكولوجية والخيل الدفاعية ، وطرائق تصحيح الانحرافات في الشخصية، وسنجد من خلال الدراسة ، كيف التزم الحكيم بهذا البناء المنهجي بشكل دقيق ليؤسس بذلك إلى طرق الجديدة من التفكير العلمي في الحوزات العلمية .

## **المطلب الأول: ضرورة منهج التحليل النفسي :**

يشكل المدخل السيكولوجي نمطاً ملهماً من أنماط التفكير في الحقول المعرفية والعلوم المختلفة ، ولاسيما في صياغة الغرض الكلي من العملية التربوية كما ذكرنا في الدراسات السابقة ، إذ دخل البحث السيكولوجي في مجالات الدوافع وال حاجات والمشيرات وأنماط الاستجابة السلوكية ، وصلة العمليات العقلية بالتطور ، دخلت هذه المعارف في المجال النفسي ومنجزاتها ، كرافد من رواد التفكير في المشكلات التربوية قبل كل شيء ثم في الحقول : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية وفي الخطط الاستراتيجية في اعادة البناء الحضاري ، وبذلك تعمقت أهمية علم النفس وفروعه المختلفة والمناهج التي أسس لها هذا العلم .

من هنا صار التفكير بالإنسان الأنماذج من خلال التفكير العلمي بالنفس والوعي والشخصية ، وذلك من خلال منهج التحليل النفسي الحديث ، هو سمة أساسية في كتابات محمد تقى الحكيم ، ففي كتابه الاول عن الشخصيات التاريخية : (شاعر العقيدة: السيد الحميري) يذكر الحاجة والضرورة التي دعته إلى الاستفادة من العلوم الحديثة والمعاصرة ، ومنها علم النفس في دراسة سيرة السيد الحميري وهو أنموذج للعاطفة والوجدان في نصوصه الشعرية الخالدة ، كما أنه من شعراء المواجهة التاريخية الكبرى بين مدرسة اهل البيت (ع) ومخالفتها من مختلف الاتجاهات لاسيما مدرسة الخلفاء. التي واجهها السيد الحميري في العهددين الاموي والعباسي، والف من أجل ذلك اشعاراً كثيرة،

مدفوعاً بحب العترة الطاهرة ، الامر الذي ادى الى دخوله في مواجهات مع خصومه افضت الىاتهامه والطعن في عقيدته واختلاف الاقاويل من حوله مما ولد غموضاً في تأريخه يقول السيد محمد تقى الحكيم:

(فتاريخه المتداول الان من اکثر التواریخ تناقضًا وغموضًا ومن اشدھا اضطراباً والتواءً وبخاصة فيما يتعلق به من احادیث ربما تمت لعقیدته المذهبية ببعض الصلات) (١).

وقد حاول السيد الحكيم من خلال اضطلاعه والمأمه بالفكر الحديث والمعاصر في مجال علم النفس أن يكشف بعض ما علق في تاريخ السيد الحميري من غموض واضطراب من جهة ، ومن أجل بناء أنموذج فكري للإنسان الملزوم عاطفياً والمنسجم وجداً مع الأنماذج الأكمل في الإسلام وهو شخصية الامام علي ، وذلك من خلال توظيف هذه المعطيات العلمية والمنهجية التي قامت عليها العلوم الحديثة والمعاصرة ، فقال<sup>قدس</sup>:

(ولا نكتمكم اننا استعننا على كشف معنياتها ببعض العلوم المحدثة كعلمي النفس والحياة) (٢).

فتوظيف سماحته للحصائل الفكرية في مجال علم النفس يأتي في اطار حركة الفكر من المعلومات الى الكشف عن المجهولات والتوصل الى الحقائق والواقع كما هي ولو من باب الاطمئنان بالنتائج الذي هو دون القطع

(١) شاعر العقيدة: ص ٦.

٢ - المصدر نفسه : ص ٦.

الوجданى بهذه التائج ، وذلك من أجل بناء أنموذج تربوي وتعليمي يستفيد منه الآخرون في الاستلهام والاسترشاد لمواجهة تعقيدات الحياة وتحدياتها واستثمار فرصها ومكاسبها المشروعة للناس .

وفي كتابه عن (مالك الاشتراط) ، وهو الجزء المكمل لثلاثية الإنسان الأنموذج<sup>١</sup> ، والختص بعنصر القوة والغضب والبطولة ، تحدث سماحته عن الأهمية الوظيفية لعلم النفس في فهم عقليات الشعوب ونفسياتهم ومقدار ما وضع من النظم لكيفية ادارتهم في صدر الدولة الاسلامية وايام خلافة الامام علي عليه السلام عندما كتب عهده المعروف الى الاشتراط يقول سماحته عن اهمية دراسة هذا العهد سيكلولوجياً وتراث ذلك:

(وكم كنت أود لو تساعديني الظروف لأدرس في هذا الكتاب ذلك العهد الكريم من الوجهة النفسية، لنستطيع ان نفهم مقدار ما تلقاه مالك عن الامام في فهم عقليات الشعوب ونفسياتهم ومقدار ما وضع من النظم لكيفية ادارتهم في ذلك العهد)<sup>(٢)</sup>.

---

١ - تتألف هذه الثلاثية من : عبد الله بن عباس رمز العقل والتفكير والوعي العلمي ، ومالك الأشتر ، وهو رمز البطولة والقوة والغضب ، والسيد الحميري ، وهو مثال العاطفة والوجدان الحي ، وجعل من الإمام علي عليه السلام ، هو المرجع لهؤلاء الثلاثة في بناء هذه القوى المكونة للنفس والمحركة للإنسان في المواقف المختلفة : العقل والقدرة والعاطفة .

(٢) مالك الاشتراط: حياته وجهاته: ص ٨٩.

ولاشك ان رغبة سماحته هذه تستطبّن الدعوة للأخرين لإتمام هذا المشروع، لاسيما الاخوة في الجامعات العراقية من خلال رسائل الماجستير واطاريج الدكتوراه. والاستفادة من فكر السيد هنا سواء على مستوى تحديد الموضوع او تحديد المنهج او بناء الأنماذج الفكري الذي يقدم خارطة فكرية وسلوكية للمهتمين ، فسماحته تعرض للعديد من كلمات وخطب الامام علي عليه السلام في كتبه المختلفة واعتبرها دروساً عظيمة وثمينة، وجهها الامام عليه السلام لقادته ورجاله وافراد الامة عامةً، وبالنظر لأهمية البحث في هذه الدروس من خلال المنهج السيكولوجي ، قال:

(وكم كنت اود لو تساعدني هذه الازمة الشديدة لأقف من هذه الدروس ، موقف من يريد أن يدرسها من الوجهة النفسية ليعرف مقدار تأثيرها على النفوس) <sup>(١)</sup>.

وهكذا نلاحظ بوضوح أهمية علم النفس ، والتفكير من خلال منجزات هذا العلم في بناء نماذج الشخصية في الاسلام وتربيتها ، في فكر السيد محمد تقى الحكيم ، ولعله لو كانت الظروف القاسية التي عاشها سماحته لاسيما حملات الابادة الجماعية التي شنتها النظام العفلقي ضد عموم الحوزة واسرتة خاصة ، لم تحصل ، لأنّا تحت لهذا المفكر الكبير و العلم في التأسيس المنهجي ، اكمال مشاريعه الدراسية القائمة على أساس التحليل النفسي ، ولترك لنا بلا شك تراثاً ضخماً من النتائج في مجال علم النفس الاسلامي. فهو لم يستخدم

---

(١)المصدر نفسه: ص ٦٦.

هذا المنهج من باب الوظيفة الجمالية أو التزويقية في البحث والتحديث ، بل جاء بناء على تطور أصيل في البحث العلمي ، وبناء النماذج الفكرية المركبة والتي تسهم في صناعة الأسوة الحسنة وفي حركة الفكر من أجل اكتشاف الظواهر وتفسيرها علمياً في الفكر الإسلامي المعاصر الذي يعيش حالة المواجهة ، ويتحمل المسؤولية في تفسير الانقلابات التاريخية المستمرة يقول سماته في هذا الصدد:

(كان علينا ان نعود الى علمي النفس والمجتمع لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية، والنفسية التي تقف في طريق الباحث عندما يريد ان يصور ذلك الانقلاب) <sup>(١)</sup>.

ومن خلال النصوص السابقة، التي يمكن ملاحظتها او انتزاعها من اكثرا من كتاب من كتبه يتأكد لنا صراحة اصل اعتماده على الفكر السيكولوجي في تحلياته :

أولاً : على مستوى وقائع التاريخ وحوادثه كالسقيفة وغيرها ، و ثانياً على مستوى تحليل الشخصية وعناصرها كشخصية ابن عباس وغيرها و ثالثاً : على مستوى دراسة النصوص والخطابات المهمة خطب الإمام علي عليه السلام وغيرها ، ورابعاً على مستوى نمط التفكير والاستنتاج ، وذلك من اجل الوصول الى نتائج وحصائل فكرية ، إذ لم يكن بالإمكان التوصل اليها وتحقق

---

(١) مع الإمام علي عليه السلام في منهجه ونطقوه: ص ٧٤.

العلم بها بغير المنهج السيكولوجي، وقد أخذ من اطار منهج التحليل النفسي طریقاً أساسياً في الإفادة من المناهج السيكولوجية .

وبعد هذا العرض يمكن ان نستشكل على ما ذكره العديد من الباحثين بشأن تشخيص المنهج العلمي عند محمد تقى الحكيم ، ومنهم ما ذكره الدكتور علاء الجوادى من اعتماد السيد الحكيم المنهجية الاجتماعية والموازنة بين الفرد والمجتمع في دراساته مع اغفال الاشارة الى وجود المنهج السيكولوجي في دراساته المختلفة . ولعل المغفور له عدنان العلي ( رحمه الله ) ، من اوائل الذين شخصوا وجود المنهجية السيكولوجية وبعمق ضارب في كتابات السيد الحكيم اذ قال :

( استخدم السيد محمد تقى الحكيم المنهج العلمي في دراستيه :  
شاعر العقيدة ومشكلة الادب النجفي بيد ان المناهج تعددت  
على يديه في كتابه الأول مستخدما المنهج النفسي مع هذا  
الشاعر ، وهو منهج نادر وقت صدور الكتاب مستبطا  
شخصية الشاعر محاولا الغوص في اللا شعور مستضيئا بنظرية  
التحليل النفسي لفرويد ثم بما قاله ادلر فقد حل حل شخصية  
الشاعر مثلا مستفيدا من خصائصه الجسمية ونشأته في بيت  
خارجي غير متافق مع نفسه فكان لهذا الصراع اثره الواضح  
في شخصيته ثم في فنه الشعري )<sup>١</sup> .

---

١ - في دراسة غير منشورة مع الأسف .

وهكذا أدخل السيد الحكيم التفكير بالنفس وفروع هذا التفكير من الموضوعات الكثيرة كالوعي والشخصية والعمليات العقلية والعاطفة والهيجان في ضوء المناهج العلمية الحديثة والمعاصرة إلى الدرس الحوزوي وهو امتداد لطريقة العلماء الأوائل من مفكري الشيعة في عنايتهم بالتفكير بالنفس وقوتها العديدة من خلال المناهج الفلسفية كجزء حيوي من دراسة الوجود وأقسامه في الفكر الفلسفي التقليدي ، وكان الفلاسفة الأخلاقيون في طليعة هؤلاء المفكرين في النفس الإنسانية من أجل التوافر على السلوك الأخلاقي كما هو مقرر ومراد . ومستهدف من التشريعات الإسلامية والعبادات .

## **المطلب الثاني**

### **منهج البحث السايكولوجي في التحليل والعرض:**

في كتابه الكبير وذى الجزئين : (عبد الله بن عباس) وكما هو عليه الحال من قبل في كتابه (مالك الأشتر) وان كان بدرجة أقل، اعتمد سماحته على طريقة ومنهج البحث السايكولوجي في فهرسة العناوين ، وسواء على مستوى البحث والتحليل أم على مستوى التقسيم والتبويب والتصنيف وعرض المعلومات، وسنعرض لهذين الأمرين ، ونبين أثراهما في صياغة التفكير بالمواضيع النفسية بطريقة علمية ، تقوم على أساس بناء أنموذج علمي ، كوني ، يعتمد التسلسل المنطقي في سرد الواقع وشرح الظواهر وبيان العلاقات وتقديمه للمتلقى بشكل منهجي في الحقل السايكولوجي :

### **الأمر الأول: مرحلة الملاحظة والفهم :**

في مجال التحليل النفسي والبحث والدراسة التي كتبها الحكيم عن شخصية الصحابي : (عبد الله بن عباس) اعتمد أساليب ونمط تفكير مدرسة التحليل النفسي بالشخصيات ، وهي مدرسة عريقة في هذا المجال ورائدة ، وتقوم طريقتها في دراسة الشخصيات على أساس نوعين أو شكلين من الدراسة والتقويم للمعلومات للظواهر النفسية والاجتماعية للشخصية، التي تكون موضوع البحث، وهما:

## الشكل الأول: الاسلوب الحيوي :Vitaiust

يبدأ هذا الأسلوب باللحظ والفهم عند دراسة الشخصيات والواقع على أساس رصدها وملحوظتها والتفكير بها وهي في محياطها الطبيعي والحيوي للحظة بدايات تكونها وأساسياتها ومن ثم نموها عبر المراحل المختلفة ، وذلك بشكل طبيعي ومتسلسل وبالتالي رصد الحالات من الوعي والادراك والمقاصد والاهداف عند الشخصيات في إطار نمو الذات والضمير والد الواقع والتعلمات وال حاجات في ظروفها ومحياطها الطبيعي، وعن ضرورة هذا الاسلوب يقول الدكتور - كلارنس - نبول:

(ان الحياة ظاهرة من نوع خاص لا يمكن ان تدرس بادراك علمي يوجب الاطمئنان الا اذا ما استخدم أساليب ، تدرك الصفات الخاصة للوعي والضمير ولنمو الذات البشرية) <sup>(١)</sup>.

ومن هنا يلاحظ ان الجزء الاول من عملية التحليل النفسي والتفكير ببناء الشخصيات ، رغم تعددية مناهج التحليل النفسي يقوم على أساس رصد الشخصية في واقعها التاريخي والميداني والتداعي الحر لسلوكها القولي التداولي ، وسلوكها الفعلي ، وهذا هو المنهج المتبع عند كبار المحللين النفسيين من أمثال فرويد ويونغ وادرلر وهو رئيسي من السائرين في ركاب هذه المدرسة المهمة في الدراسات السايكولوجية والذين يربطون ولو بدرجات متفاوتة بين الظاهرة

(١) د. كلارنس -أ- نبول - السلوك الانساني في الادارة التربوية-ت- د. طه الحاج .1988

النفسية والشخصية من خلال المدخل الواقعي والتاريخي لدراسة الحالة يقول  
الدكتور محمد زيعور:

(هنا توجد خبرة، وهذه تؤثر في الشخصية والسلوك،  
والناحية التاريخية لا نستطيع عزلها من الإنسان لأنها مرتبطة  
بالناحية الجوانية - باطنية-، وهذه الناحية لا تتموضع في حيز  
من المكان، فمن الممكن أن تبرز في العيادة وفي التعبير والكلام  
وفي السلوك الخارجي ... فالظاهرة النفسية هي دينامية حية  
وليست بالكم وليست ثابتة، إنما يربطها بالزمان الحي،  
الديومة).<sup>(١)</sup>.

وهكذا ينطلق التفكير بعالم الادراك والوعي وبالشخصيات والتحقيق في  
الظواهر النفسية والعلاقات من الواقع المعاش والحيوي ، ولو من خلال الرواية  
التاريخية ، أو من خلال العودة إلى تاريخ الظاهرة وحكاية بداياتها عند  
الشخص ، ولذا عندما تحدث الباحث العربي محمد زيعور عن المحلول النفسي  
يونغ ومنهجه في التحليل ، قال:

(ان يونغ يربط كل اشكالية نفسية بتاريخية بعيدة المدى) <sup>(٢)</sup>.

ومن هذا المنطق البحثي في علم النفس التحليلي، توجه السيد محمد تقى  
الحكيم الى دراسة شخصياته والتفكير بواقعها النفسي ، وكان شخصية ابن

١- د. محمد زيعور - العيادة النفسية ، دار ، بيروت ط ١٩٩٢: ص ٤٦.

٢- المصدر نفسه : ص ١٧٩.

عباس<sup>رض</sup> او مالك الاشتري<sup>رض</sup> حاضرة لديه في العيادة النفسية لالتماس التحليل والدراسة، فهو يستهل اجحاته في شخصية ابن عباس قائلاً عن طفولته حتى المراهقة:

(وهذه المرحلة التي يعدها السايكولوجيون أخطر مراحل الحياة ، واكثرها في تلوين الصورة التي يطبعها الزمن للشخص ، وعليها يتوقف جل مستقبله ، واليها تعود جملة من المؤثرات الفعالة في تكوين نواة الشخصية الثابتة له ، وفيها اكثر من غيرها تتطاير العوامل الوراثية والبيئية على خلقها وتطورها ، وربما تناقضت فحولت صاحبها الى مصطريع زاخر بالعقد والانفعالات) <sup>(١)</sup>.

وبذلك يكون قد أعتمد عند التفكير بهذه الشخصيات على الاسلوب الحيوى ، والرصد للشخص كما هو عليه في الواقع الطبيعي ، وبذلك عرض شخصية عبد الله بن عباس ، في الجزء الأول من كتابه كما رسمت هذه الشخصية في المدونات التاريخية والروايات ، ثم خلص في الجزء الثاني الى الدراسة السيكولوجية التلخيمية والاستنتاجية ، يقول رحمة الله تعالى عن القسم الاول من الكتاب :

(يبدأ الاول منهما - أي الجزء الاول من الكتاب - في مسيرةه منذ ولادته ، والتدرج معه في مختلف ادوار حياته ،

---

(١) عبد الله بن عباس ، ج١ ، ص٣١.

طفولة، وشباباً، وكهولة، مشيراً إلى كل ما يتعلق ب حياته من حوادث العامة، مما اعتقد بتاثيرها عليه أو تأثيرها به، واضعاً لها في موضعها من سني حياته<sup>(١)</sup>.

ومن هذا النص يتتأكد لنا دقة سماحته في اقتناص المشاهدات الواقعية و التأريخية وضبط الملاحظات العلمية، ورصد النواذر من مشاهد الحياة العابرة ، والتي لا يتتأكد الانتباه إليها إلا في ظل المنهج العلمي والملاحظة العلمية الهدافـة للوصول إلى نتائج تسهم في الكشف عن الظاهرة النفسية والاجتماعية وانارة السـبيل إلى فـهمـها. ومن هنا ينتقل سماحته إلى إعادة صياغة حـيـاة عبد الله بن عباس في الجزء الثاني من الكتاب في ضوء الاسـلـوبـ الثاني لـعرضـ وـتقـديـمـ المـعـلومـاتـ منـ موقعـ التـقوـيمـ العـلـميـ .

## **الشكل الثاني: أسلوب التحديد والتلخيص :Reductions**

وهو الاسـلـوبـ الذي يـقـومـ علىـ أساسـ تقـليـصـ أـيـةـ ظـاهـرـةـ نفسـيةـ أوـ اـجـتمـاعـيةـ إلىـ مـكـونـاتـهاـ، وـاعـادـةـ صـيـاغـةـ بـنـائـهـاـ بـالـشـكـلـ الذـيـ يـؤـمـنـ درـاستـهـاـ وـكـشـفـ غـواـصـهـاـ، وـتحـدـيدـ عـنـاصـرـهـاـ ذاتـ الاـولـويـةـ فيـ فـاعـلـيـةـ الـظـاهـرـةـ وـاـثـرـهـاـ فيـ السـلـوكـ العـامـ.

---

(١) نفس المصدر: جـ1، صـ٢٨.

في كتاب عبد الله بن عباس وكذلك في بحث شخصية مالك الأشتر نلاحظ سماحته، ما ان ينتهي من - الاسلوب الحيوى- في عرض الشخصية حتى يتنتقل في قسم خاص ومحدد من البحث الى اعادة بحث الشخصية تارة أخرى وضمن فضاء علمي آخر هو اسلوب التحديد والتلخيص. يقول عن الجزء الثاني من كتاب عبد الله بن عباس:

(ويبحث الجزء الثاني دراسة شخصيته دراسة سايكولوجية  
مستقلة، ملتمساً عناصرها الأولية مما يتراءى لنا خلال بحثنا  
الأول من سلوكه العام، ومن آثاره العلمية والثقافية التي  
خلصت إلينا بين عشرات والمئات من الأحاديث<sup>(١)</sup>).

هكذا يفصل بوضوح بين مرحلتي الملاحظ والفهم من جهة ، أي مرحلة التفكير بالواقع كما هو ، وبين مرحلة اعادة صياغة الاحكام عن الشخصية والادلاء بخطاب التقويم ، كما هو الحال مع ابن عباس ، والأمر نفسه نجده أيضاً عند دراسته عن مالك الأشتر ، وبعد عرضه لمجمل الواقع الجزئية من حياة مالك الأشتر ، ينتقل إلى مرحلة التحديد والتلخيص والتقويم ، فيقول عن الخلوص الى عناصر شخصية مالك:

(فمن يفضل ويقرأ هذا الكتاب يهتدى بنفسه الى توفر عناصر هذه الشخصية فيه، وإنما المهم ان نلحظ أسرار تكون هذه

---

(١) عبد الله بن عباس: ص ٢٨.

الشخصية ، او قل ان نلحظ أهم العناصر التي اكسبتها هذه الحيوية<sup>(١)</sup>.

هكذا نلاحظ الحكيم ، كيف يطبق منهج التحليل النفسي ، في مرحلته ، بدقة في دراسة شخصياته فمن الملاحظة العلمية للجزئيات، ورصد الحوادث والواقع المتتالية في حياة الشخصية رصداً يقوم على أساس الطريقة أو الكاشفية للوصول الى مجهولات واسرار يسهل بيانها في المرحلة الثانية من البحث مرحلة التحديد والتلخيص وبيان العناصر الأولية، اي ان تكون المرحلة (التجزئية) من البحث ناضرة الى خدمة المرحلة (الترابطية) منه وهي العمدة والزبدة وقد أشار سماحته الى اهمية البحث الترابطي ورجوحة على البحث التجزئي فقال في ندوات القاهرة:

(ان الذي أريده ليس دراسة بحوث تُعد على أساس تجزئي، وإنما أريد دراسة بحوث متراقبة متفاعلة يخرج منها المؤتمر بتجسيد كامل للإسلام)<sup>(٢)</sup>.

إذن السيد الحكيم يحاول أن يتخطى النمط التقليدي في الصناعة الفقهية القائم على أساس البحث عن الجزئيات واكتشاف الفروع والاحكام الجزئية إلى صناعة الشكل المترابط ، أو ما عرفناه في البحوث السابقة بـ(فقه الأنموذج ) ، والذي يخطى حتى فكرة فقه النظرية الذي لا يغطي إلا جزء من معطيات

(١) مالك الاشتري: ص ١٠٤.

(٢) التشيع في ندوات القاهرة، مؤسسة الإمام علي ع عليه السلام: ص ٤٥.

الواقع ، إلى اعطاء تصورات متكاملة ومتراقبة عن الموضوع كما هو الحال في مشكلة نموذج الشخصية .

ففي مجال دراسة الشخصية في علم النفس ، فإن البحث الترابطي القائم على أساس إعادة صياغة عناصر الشخصية ، يُعد هو الاهم ، وذلك بعد رصد الجوانب الجزئية منها في إطار المرحلة الأولى وهي مرحلة الملاحظة العلمية والمبرر للدراسة الجزئية الحيوية ، فالأنموذج النهائي ، هو من يعطي التجسيد الكامل للشخصية . ومن هنا انتقد سماحته اغفال الدراسات التاريخية التي لا تسجل المعلومات عن طفولة الشخصيات موضع البحث والعنابة في الطرح التاريخي ، مع ان لهذه الاحداث في الطفولة أبلغ الاثر في رسم ملامح الشخصية فيقول:

(إنَّ التَّارِيخَ لَمْ يَعُودْنَا بِالْبَحْثِ عَنْ طَفُولَةِ مَنْ يَعْنِي بِهِمْ مِنَ النَّاسِ، وَلَعِلَّ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى التَّشابِهِ فِي حَيَاتِهِمْ عَادَةً، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَلْفِتُ نَظَرَهُ لِيَخْصُّهَا بِكَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ، وَمَا كَانَ -عِلْمُ التَّارِيخِ- يَحْسَبُ أَنْ حَادَثَةً بَسِيِّطَةً يَكْفِي أَنْ تَمْرُ بِحَيَاةِ طَفْلٍ لِتَوَجِّهِ مُسْتَقْبِلِهِ جَمِيعاً، وَرَبِّمَا كَانَتْ كَافِيَةً لَوَضُعِّفْ يَدَ الْبَاحِثِ الْحَدِيثَ عَلَى مَفْتَاحِ شَخْصِيَّتِهِ فِي تَمَامِ أَيَّامِ حَيَاتِهِ) <sup>(١)</sup>.

وفي الاجاث القادمة سوف نلاحظ كيف ووظف سماحته الحوادث الجزئية والعابرة في نظر التاريخ ، توظيفاً علمياً سيكولوجياً ، لتعريفنا بشخصيات كبيرة

(١) عبد الله بن عباس: ص ٤٢.

من امثال عبد الله بن عباس ومالك الاشتري والسيد الحميري ، وهو من خلال هذا التفكير بالشخصيات والنفس والوعي والتطلعات العقلية والبطولية والعاطفية ، يعمل على صناعة الأنموذج الإنساني ، ويقدم شكلاً من أشكال فقهه الأنموذج الذي يكون بطبيعة الحال ملهم للشباب في هذا المجال الحيوي وضامن لتكريس التوجهات الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ومن ثم يعمل على استمرارية العمل بهذه النماذج الأخلاقية في المجتمع .

### **الأمر الثاني: أسلوب العرض السيكولوجي .**

بعد الملاحظة والفهم للواقع تأتي مرحلة صناعة الخطاب المعبر عن التفكير بالواقع النفسي ، وضرورة تقديم الأسلوب المناسب في العرض السيكولوجي وقد ذكرنا في المطلب السابق كيف أنَّ السيد محمد تقى الحكيم قدس سره اعتمد منهج التحليل النفسي سواء في مرحلة استقراء ملامح الشخصية وسبل أغوارها وهي في محيطها الطبيعي الحيوي ، أم في مرحلة التحديد والتلخيص . ففي مرحلة الحيوية والواقعية من البحث اعتمد دراسة الشخصية في مراحل حياتها المختلفة، وهكذا عندما درس شخصية عبد الله بن عباس، قسم حياته إلى مراحل ثلاثة وكل مرحلة وضعها في فصل مستقل وهي:

**الفصل الأول: حتى المراهقة.**

**الفصل الثاني: مراحل الشباب.**

**الفصل الثالث: حتى الوفاة.**

من خلال المراحل الثلاث لحياة عبد الله بن عباس قدم سماحته عرضاً متكاملاً ومن زواية نظر محددة - هي شخصية ابن عباس- لمجمل تاريخ الدعوة الإسلامية وعصر الخلفاء والأحداث التي تلت هذا العصر. فجاء هذا العرض واقعياً وحيوياً ومتربطاً، يقدم أنموذجاً منشوداً في وعي الشخصية الإسلامية ، وهو من حيث الخطاب اقرب الى نموذج الرواية التاريخية في الشكل والمحنتى ، بمشاهدتها الحياتية ، وحواراتها الفكرية ، وأنساقها البنائية ، وفضاءاتها الزمنية المتداخلة ، والتي تجذب اليها القارئ ويستمتع بقراءتها دون ملل أو ضجر رغم كثرة التفاصيل وغزارة المعلومات والاحاديث. وهذا ما نلاحظه في الجزء الاول من (رواية) عبد الله بن عباس (التاريخية) إن صحت هذه التسمية والتي تحكي رواية العصر الإسلامي الاول.اما في مرحلة التحديد والتلخيص واعادة التقويم لما جرى ، فقد اعتمد سماحته التبوب المشهور عند علماء النفس في تدوين مصنفاتهم السايكلولوجية. اذ دأب هؤلاء العلماء على دراسة موضوعات علم النفس في اطار خمسة فصول او ابواب رئيسة وهي:

- دراسة التكوين الجسدي مما له علاقة بعلم النفس كالجهاز العصبي والحواس.
- دراسة التكوين النفسي كقوى النفس والدوافع الاولية والثانوية.
- دراسة النمو سواء في مجال التكوين الجسدي والتكوين النفسي.
- دراسة الانفعالات والعواطف والعمليات العقلية.
- دراسة الانحرافات النفسية والعصبية واساليب العلاج.

وفي مرحلة الدراسة السايكولوجية المستقلة تلمس سماحته العناصر الاولية لشخصية عبد الله بن عباس في هذا الاطار العلمي من العرض السايكولوجي ودرس في ظلاله النقاط الآتية:

١. التكوين الجسدي لابن عباس وجاء تحت عنوان: صفاته الجسدية والزاجية.
٢. التكوين النفسي وجاء تحت عنوان: استعداداته الفطرية، وتعرض في اثناء البحث الى النمو الاخلاقي والتربوي عند ابن عباس.
٣. دراسة العمليات العقلية، وقد بحثها تحت عنوان: قدراته العقلية وتعرض في هذا البحث الى مظاهر الذكاء والالمعية والنبوغ عند ابن عباس. ثم بحث في الانتاج العقلي الواسع لهذه الشخصية العملاقة في مجالات: القرآن الكريم، والتفسير والحديث والفقه والسيرة والتاريخ والأدب . وبعد عرض منهجية السيد في تقديم شخصياته على مرحلتين او فضائيين لابد منها في البحث السايكولوجي، أي كما يفعل الطبيب النفسي في عيادته ، من استعراض حالة الملتزم للتشخيص بطريقة حيوية اولاً ، ثم تشخيص او تحديد عناصر الحالة لديه ثانياً ، ومن هنا يمكن الاشکال على ما ذكره الباحث علاء الجوادي من وجود تداخل والتكرار في البحث عند محمد تقى الحكيم ، إذ أن هذا التداخل هو من ضروريات المنهج العلمي السايكولوجي وقد فرضته كما لاحظنا طبيعة منهج التفكير في النفس وعمليات الوعي والادراك ورصد مركبات الشخصية بين الواقع والتقويم ، قال:

(قدم المؤلف بطل كتابه عبد الله ابن عباس عالماً وفقيهأً حسب مدرسة أهل البيت عبر مجالين لا يخلوان من التداخل) <sup>(١)</sup>.

ويرد هذا الاشكال نفسه على ما ذكره الباحث صلاح الفرطوسى ، الذى عجز عن تشخيص النهج السيكولوجي وطريقة التفكير عن الحكيم ، فقال منتقداً كتاب عبد الله ابن عباس ومنهج السيد في تبويبه:

(وهنا اخرى تتعلق بهندسة الكتاب التي كنت اتمنى أن يعيد النظر فيها اذ كان بالإمكان تقسيمه الى ابواب وفصول تجمع بين وشائجه تجمعاً افضل) <sup>(٢)</sup>

ان عدم تشخيص الباحث لحقيقة اعتماد النهج السيكولوجي عند السيد هو الذي جعله يعتقد انه اخطأ في تبويب الكتاب ، فيما نستطيع ان نؤكد ان هذه المنهجية تساقق في أهميتها المنهجية الاستقرائية التي اعتمدتها السيد الشهيد محمد باقر الصدر في مرحلة قراءة الواقع وملاحظة المعطيات في محياها الحيوى من أجل تحقيق التفكير العلمي بهذا الواقع ، ومن مجموع ما ورد في هذا البحث نخلص الى النقاط الآتية:

**أولاً:** ان السيد محمد تقى الحكيم قد اعتمد النهج السيكولوجي الذي هو ثمرة من ثرات التطور في الغرب والفلسفة الغربية ، وبالتالي يؤكّد بذلك خرق للجدار العازل بين حكمة الشرق وحكمة الغرب ، اذ يستثمر معطيات هذا

(١) مجلة الملتقي : عدد ٣ / صيف ٢٠٠٦ .

(٢) المصدر السابق .

المنهج وملابساته الفلسفية في بحوث ودراسات لا تخلو من الصلة بباحث العقل والادراك البشري الذي هو موضع اهتمام الفلسفة الاسلامية واصول الفقه مثلما هو موضع اهتمام الدراسات الغربية الحديثة لاسيما في مجال علم النفس وعلم الاجتماع ونظرية المعرفة عندهم. ومن هنا تتأكد أهمية هذا الاختيار وخطورته اذ أن هذه المباحث مجال عمل مشترك وموضوعات كبرى للبحث والتفكير الانساني ، بين الفلسفة والعلم .

**ثانياً:** وظف هذا المنهج وطريقه في التفكير بالنفس ، في بحوثه من باب الحاجة والضرورة وليس من باب التزويق والجمالية نظراً للأهمية القصوى للنفس وباحتها من الادراك والعقل في الدراسات الجادة عموماً، ولاسيما في الفلسفة وعلم الأصول وتحليل الشخصيات والواقع التاريخية وغير ذلك، وقد ذكر الفلاسفة والعرفاء والمفسرون أهمية وشرف المعرفة النفسية وخطورتها في حياة الفرد والمجتمع سواء في الدنيا أو في عالم الآخرة.

**ثالثاً:** انه توسع في استثمار المنهج السيكولوجي للتفكير في الموضوعات السائدة في الحوزة ، سواء على مستوى المصطلح أم على مستوى النظرية ووصولاً إلى بناء الأمثلة ، وليشمل تحليله كلاً من:

- الشخصيات كعبد الله بن عباس ومالك الاشتري والسيد الحميري.
- الواقع التاريخية لاسيما وقائع الصدر الأول من تاريخ الإسلام.
- النصوص والروايات.
- العملية الاستنباطية في علم الأصول.

ولاريب أن هذه مجالات تطبيق متنوعة ، فتكشف عن امكانات سماحته وحجم احاطته بهذا المنهج ، ونطه العميق في التفكير ، كي يوظفه في أكثر من مقام و المجال ، والحق أن المنهج السيكولوجي قد حق حضوراً كبيراً لما يقدمه من امكانات كبيرة عند التفكير بالموضوعات الحياتية المختلفة ولاسيما مع تعدد الدوافع عند الانسان وتدرج مستويات الحاجات ، واختلافها بحسب الفترات المختلفة ودرجة النمو والوعي .

وفي ختام هذا البحث ندعوا الأخوة من فضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف وأساتذة الدراسات الأكاديمية في الجامعات الخاصة او الحكومية الى تأسيس مركز يعنى بالفكر السيكولوجي ، نظرياً وتطبيقياً، اذ ان مجتمعنا اليوم لا يقل في كوارثه ومصائبها النفسية وعقدة عن المجتمعات الغربية الحديثة، فمظاهر الوهن والعصاب وكثرة العنف الى حد الارهاب والطلاق وادمان الانترنت والمخدرات، ونبذ الاخلاق كلها مظاهر لانحرافات نفسية تدعوا الى التفكير بعلاجها.

## المبحث الثاني

### حضور المصطلح السيكولوجي ونقده:

لقد أسست المعارف السicolوجيا الحديثة والمعاصرة لمصطلحاتها الخاصة بها بين العلوم الإنسانية والاجتماعية ومفاهيمها الجامحة ، ومن ثم أسست اللغة التي تعتمدها في التفكير بالنفس والعقل والعاطفة والبيجان والصحة النفسية والانحرافات النفسية والخيل الدفاعية ، وما يرتبط بكل هذا الحقل الحيوي من الفروع المعرفية كعلم النفس الاجتماعي والتربوي والسياسي والاقتصادي وعلم نفس الادب ، وغير ذلك من الفروع التي اسهمت في بلورة المنظور السيكولوجي ومنطقه في قراءة الواقع الانساني على أكثر من صعيد ومن ثم التفكير بمستقبل هذا الواقع .

ومن هنا يكون لإدخال السيد الحكيم لهذا النمط من التفكير بالموضوعات ، واللغة التي يستعملها والمصطلحات الفضل الريادي في استطراد هذا النمط من التفكير في الموضوعات السائدة في الدراسات الدينية من النصوص والشخصيات والاحاديث وطرائق الاستنباط للإحكام ، ومن اعادة ثم التأسيس العلمي والتوطين للمنهج السيكولوجي في البحث في هذه الموضوعات في حوزة النجف في منتصف القرن الماضي ولاسيما في مجال بناء النموذج في الشخصية والتي يراد لها أن تكون الشخصية القدوة في زمن الحداثة والمعاصرة و الذي يستهوي الشباب بعيداً عن الضياع والعدمية وغياب الهوية وينقذهم من هذه المتأهات جمياً .

في هذا المبحث سنتعرض الى جملة من النصوص المتنوعة والتي تعالج موضوعات مختلفة، الا أنها رغم تعددية موضوعاتها واختلاف مقاصدتها تحكي لنا حضور الفكر السيكولوجي ومفاهيمه ومصطلحاته في أبحاث السيد محمد تقى الحكيم قدس. فهو يوظف هذه الالفاظ بكل ما تحمله من دلالات مطابقة، أولية، او دلالات ثانوية قد تعارف عليها علماء النفس في مقالاتهم السيكولوجية، مما يكشف عن تضلعه ومارسته في هذا المجال، والمامه الواسع بالملابسات الفكرية والتنظيرية، التي تكتفى استعمال هذه المصطلحات والالفاظ بل سنجده يترقى الى نقد جملة من التعريفات السائدة عند علماء النفس ويصفها بأنها تعريف لشرح الاسم وليس هي بالحدّ ولا بالرسم كما هو المطلوب في التعريف المنطقية المعتبرة.

وبالنظر لكثرة هذه المصطلحات وانتشارها في كتب الحكيم فسنحاول التطرق لذكرها ضمن مطلبين: يضم الأول: جملة من المفردات والمفاهيم الأساسية والمعتمدة في كتب التفكير السيكولوجي والتي تشكل اللغة التقليدية في علم النفس العام فيما يضم المطلب الثاني: تعرض السيد الحكيم الى بعض التعريفات ونقدها.

## **المطلب الأول: المفردات السيكولوجية:**

وظف السيد الحكيم جملة من المصطلحات السائدة في بناء التفكير السيكولوجي بالمواضيع الخاصة بدراسة النفس الإنسانية ، والبحث في مكوناتها ومكوناتها ، وفي أثناء تناوله لتفاصيل حياة شخصياته كأبن عباس ومالك الأشتر والسيد الحميري الى ذكر جملة من هذه المفردات والمصطلحات المتداولة في أبواب علم النفس وسنحاول متابعة هذه المفردات كما وردت في بعض النصوص ضمن مجموعتين:

**الأولى:** وقد وردت في إطار عرض التكوين الجسدي والنفسي ومظاهر النمو والترية كما هي متداولة في الخطاب السيكولوجي العام ونصوص علماء النفس المعروفين ، ومن ثم كيف وظف هذه المفاهيم والنظريات المرتبطة بها عند هذه الشخصيات التي شكلت مشروعه الفكري في بناء الأنماذج الإنساني المتكامل من حيث : العقل والعاطفة والقوة الغضبية .

**الثانية:** في العمليات العقلية والجوانب الافعالية والعاطفية لها. اذ من الصعب وضع ضابطة لتوزيع استخدام هذه المفردات لإمكانية التداخل وتعددية الاستعمال لها، مما جعلني اتناولها في قسمين شاملين لمختلف الموضوعات النفسية.

### **القسم الأول : مفردات التكوين الجسدي والنفسي والنمو والتربية:**

في كتاب عبد الله بن عباس ربط السيد الحكيم بين الصفات الجسمية لابن عباس، حيث كان جسيماً، اذا جلس يأخذ مكان رجلين، جميلاً له وفرة، مع مظاهر الانبساط في شخصيته، ومفردة الانبساط في الشخصية، تشير الى مصطلح خاص بتقسيم الشخصية الى: انطوائي وانبسطي، وهذا التصنيف هو من مبتكرات الدكتور يونغ ، عند قراءة الشخصيات في واقعها الطبيعي ، يقول السيد عن ابن عباس:

(فهذه السمنة التي مكتته من ان يأخذ مكان رجلين. ثم هذا الصلع الذي اعتراه، كما تشعر به الرواية السابقة، كل ذلك من امارات الانبساط فيه) <sup>(١)</sup>.

ثم ربط هذا الانبساط في شخصية ابن عباس بجمل مظاهر حياته النفسية، فقال:

(كان أقرب الى الانبساط منه الى الانطواء، ففيه من مميزات الانبساط سرعة الملامسة بينه وبين المواقف الجديدة الطارئة، وطبعاً في حدود عقيدته -كما سبق ان رأينا موافقه في مراحل الشباب في الجزء الأول من هذا الكتاب من بعض الحوادث الجديدة عليه- كما انّ فيه من مميزاتهم تحقيق التوافق من طريق

---

(١) عبد الله بن عباس: ج٢، ص١٣.

التعويض، وقد سبق ان رأينا ذلك منه أيضاً حين كان عرضة لبعض العقد النفسية، التي ولدت من الشعور ما يحتاج معه الى ذلك، واهتمامه بالأمور الخارجية، وتوجيه سلوكه إليها، هو الآخر من مميزات انبساطه<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص نلمس جملة من المفردات ذات الاتمام السيكولوجي مثل مفردات: السلوك، والشعور، وال الحاجة، والعقد النفسية، ومصطلح التعويض، الذي يشير الى آلية من آليات الدفاع عن النفس في مواجهة التحديات المثيرة للقلق ومن ثم العمل على تحقيق التوازن في الذات، بالإضافة الى الانبساط والتواافق، والانطواء، مما يشير الى امتلاك سماحته لزمام البحث في الموضوعات السيكولوجية وكما سيتأكد لنا ذلك أكثر في البحث الخاص بحضور النظريات السيكولوجية في دراساته رحمه الله.

أما في كتاب مالك الأشتر فربط سماحته بين الأساليب التربوية التي يتلقاها الأطفال ومن ثم قراءة تأثيرها في نمو قوى النفس عندهم فتعرض الى هذه الأساليب وتأثيرها في تكوين شخصية مالك الأشتر ، فقال:

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص١٢.

(وأساليبهم في التربية اساليب ايجابية في الغالب فهم مثلاً عندما يريدون ان يتعاهدوا في نفسيته غريزة حب الظهور بالنماء، يوقعون الرغبة في نفسه بالمسابقة في طراد الخيل أو الرماية<sup>(١)</sup>).

وتحدث عن دور (المضياف) ، والتي تتخذها العشائر أو الأسر العربية عادة كمكان لاستقبال الضيف ، أو ما يعرف بالدلوانين ، وهو بمثابة المدرسة اليومية أو الحلقة النقاشية للتفكير في مختلف الموضوعات ، وسماع التقارير والأنباء مما يجري في المحيط من حولهم ، فقال:

(فالطفل أول ما يستقبل في صباحه المضيف ليسمع حديث الغزو والسلب والنهب، وحديث الكرم والشهامة والنجدة والحماية عن الذمار)<sup>(٢)</sup>.

وعن تأثير هذه البيئة في نفسية مالك قال:

(وبهذه البيئة وهذه التربية يتاثر العقل الباطن ويتأثر بالصور والاحاسيس التي تسسيطر على ميوله وغرائزه فتتجهها فيما تريده، وسيدنا الأشتر عربي كريم له ما للعرب من الخصائص الاجتماعية العظيمة. نشأ في العرب وربى في تربية العرب

(١) مالك الأشتر: ص ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١.

وكانت فيه استعدادات نفسية تتقبل كل هذه الإيحاءات بقبولها الحسن).<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص تطالعنا مفردات: الإيحاء والغرائز والعقل الباطن وحب الظهور، وهي مفردات تدخل في صميم الفكر السيكولوجي وبكل دلالاتها المطابقية والتضمنية وسواء اللغوية او الاصطلاحية، وفي دراسة لاحقة سنتعرض الى بحث العقل الباطن والعقل الواعي وكلمات سماحته في هذا المجال المهم في نظريات التحليل النفسي، التي امتدت منذ فرويد وحتى الدكتورة هورناي.

واما في كتاب شاعر العقيدة السيد الحميري، فقد ذكر استجابة الأطفال لللمثيرات من حولهم وتقليلهم للأباء والأمهات، وحاول سماحته من خلال هذه الفكرة السيكولوجية ان يفسر ما نسب الى السيد الحميري من العداء لآل الرسول ﷺ في أيام طفولته فقال:

(ان الطفل، بحكم استجابته لغريزة التقليد والمحاكاة يبدأ منذ بداية تميزه عادة فيحاول ان يقلد ابويه في كل شيء يقع نظره منهما عليه، وربما اخذ من بعضهما مثلاً أعلى يخصه بجملة محاكاته وتقليله لما يصدر منه من اعمال واقوال).<sup>(٢)</sup>

(١) المصدر نفسه: ص ٢١.

(٢) شاعر العقيدة: ص ١٦.

وفي هذا النص تقف على مفردات سيكولوجية أخرى كالتقليد والمحاكاة والاستجابة والمثل الأعلى، وهي مفردات سائدة في مباحث علم النفس عامة والتربوي خاصة وفي دراسة لاحقة بأذنه تعالى سترعرض لنظرية (الأنماذج) أو البطل التاريخي أو (المثل الأعلى) وهي من نظريات التعلم في علم النفس التربوي. وقد ذكرها سماحته في مواطن كثيرة من كتبه.

## **القسم الثاني : مفردات النضج الانفعالي والعاطفي والعمليات العقلية وأدبيات الدفاع.**

التفكير بمظاهر النضج الانفعالي والعاطفي و دراسة العلوميات العقلية تُعد من أهم البحوث النفسية، وعليها مدار البحث في الشخصية، لارتباطها الوثيق بالنمو والذكاء العقلي، والنضج الاجتماعي، وبمظاهر الادراك والتعلم والنسيان والتفكير والإبداع ومظاهر الانحراف النفسي وأدبيات الدفاع عن الذات لتحقيق التوازن.

ولا ينبغي لأحد أن يتصور أن الدخول إلى دراسة الشخصيات الواقعية ومن بابها السيكولوجي، أمر ميسور، والطريق إليه معبد وسهل ومفتوح لكل من أدرك شيئاً من الثقافة النفسية، يقول الدكتور قاسم حسين صالح وهو من أساتذة عم النفس في العراق، حين يتحدث عن التفكير بالشخصيات من الوجهة النفسية ولاسيما المبدعين في مجال الفن :

(ان القائم بهذا العمل يتحمل مسؤولية علمية وأدبية قد لا تسuffه مصادره وادوات بحثه في التوصل الى الصدق في الاستنتاج، ذلك ان موضوعي (الابداع في الفن) و(الشخصية) من المواضيع المعقّدة في علم النفس، ولعل النقص الكبير في هذا المجال هو عدم وجود منهج سيكولوجي)<sup>(١)</sup>.

وإذا صح هذا القول ، أي صعوبة التفكير بالشخصيات ومن ثم التوصل إلى حقيقتها النفسية ، عن الشخصيات الفنية المعاصرة للكثير من الأحياء والمعايير لها في الواقع ، كالمرحوم جواد سليم ، صانع نصب الحرية في بغداد ، فهو وبقياس الأولوية ، يصدق عند دراسة شخصيات عملاقة كعبد الله بن عباس ، الملقب بمحب الأمة الإسلامية . أو مالك الأشتر ، الذي قال فيه الإمام علي عليه السلام : كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ ، أو شاعر العقيدة السيد الحميري الذي قال عنه السيد محمد تقى الحكيم قدس سره :

(ان دراسة أمثاله ثروة كبيرة للمجتمع الحاضر الذي يحتاج الى امثاله من الرجال المخلصين الذين توفرت فيهم عناصر الإيمان بالمببدأ والاخلاص له والتضحية في سبيله)<sup>(٢)</sup>.

لقد تعرض السيد الحكيم بالبحث والدراسة إلى هذه الشخصيات الكبيرة طبقاً للمنهج السيكولوجي ، كما ذكرنا ، وتناول أدق التفاصيل في حياتها

(١) د. قاسم حسين صالح ، في سايكولوجية الفن التشكيلي : ص ١٥٧.

(٢) مالك الأشتر : ص ١٢٠.

وأنجازاتها طبقاً لمعطيات هذا المنهج الذي اسهم سماحته في تطويره من خلال هذه الدراسات الخالدة. وما ينبغي أن نذكره هنا ونؤكده بحزم هو قلة المصادر في هذا الاتجاه، أي دراسة الشخصيات ومظاهر الابداع عندها وهي دراسة تتصل اتصالاً وثيقاً بالعمليات العقلية ومظاهر افعالاتها ونضجها العاطفي، ولو رجعنا الى بعض المصادر الموجودة بين ايدينا في اللغة العربية فهي اما دراسات لا تزال في طور التنظير العلمي دون النزول الى مستوى التطبيق في دراسة الشخصيات الخارجية، او ان ما تذكره من امور علمية صرفة، تمثل له بحالات تمت معايتها عند الالتماس العيادي وهذه الحالات عادة لا يمكن تعميمها والاستفادة منها في دراسة الشخصيات المعروفة، او ان بعض المصادر اما تتعرض لشخصيات لا تمت الى الواقع العربي والإسلامي بصلة، كما فعل الدكتور قاسم حسين صالح في كتابه: سايكولوجية الفن التشكيلي عندما درس كلاً من بيکاسو وكويا، وأضاف اليهم الفنان العراقي جواد سليم، الا انه عندما اراد عقد مقاربة تنظيرية لسلوك هذا الفنان العراقي، لم يجد امامه الا الفنان الغربي ((باخ)) فقال:

(ولعل الاسباب الرئيسية في الابداع الفني لدى جواد هو انه نشأ في عائلة تهوى الفن والرسم، وهو بذلك قد يشبه ((باخ)) الذي ولد في عائلة تعشق الموسيقى، فتأثر بذلك وأصبح موسيقاراً<sup>(١)</sup>).

---

(١) د. قاسم حسين صالح، سايكولوجية الفن التشكيلي: ص ١٦٠.

وهكذا تتأكد لدينا عظمة وخصوصية واصالة محاولة السيد محمد تقى الحكيم قدس سره، الذي قدم للأجيال من بعده فتحاً كبيراً في مجال بناء الأنماذج الإنساني بأبعاده الكبرى : العقل والعاطفة والبطولة ، وذلك من خلال دراسة الشخصية القدوة وقوة الابداع والنبوغ فيها ، واشاد لها منهاجاً سيكولوجيا يمكن اعتباره خطوة إلى الأمام باتجاه التأسيس الى علم نفس اسلامي يعتمد الحكمة الاسلامية ونظرية المعرفة فيها، ويستفيد من القرآن الكريم والسنة الشاملة لاحاديث المتصوّمين عليهم السلام بالإضافة الى تراث الأمة العملاق لاسيما في علمي الاصول والأخلاق ، ومن ثم محاولة تبييض وإعادة دراسة مطالب علم النفس الحديث والمعاصر ، في ظل هذا الارث الفكري الهائل للمسلمين وذلك في مجالات اسلامية خالصة ، ومن ثم عدم الأخذ من الغرب والتسليم به دون تمحيص وتهذيب ، أو كحاطب الليل مثلما يفعل الكثير من الأكاديميين ، ولاسيما من لا اطلاع لهم على امكانات التراث الاسلامي .

وبعد هذا التمهيد لهذا القسم لابد من الدخول في صلب مباحث السيد للتعرف على جملة من المفردات العلمية في مجال العمليات العقلية والانفعالات والعواطف.

ففي كتاب عبد الله بن عباس تعرض سماحته الى التعريف بقدرات ابن عباس العقلية فقال:

(ويراد بالقدرات العقلية تلكقوى التي تبعث ب أصحابها على التصور والانتباه والادراك والتذكر والتخيل والتفكير.. وما

إلى ذلك... وبما أن هذه القوى من القوى الداخلية التي لا يمكن بلوغها بالللاحظة الخارجية، فإن طريقنا إليها ينحصر بـللاحظاته -أي ابن عباس- الذاتية أولاً، ثم بمعطياتها من التجارب ، سواء في مجالاتها العلمية أم الأدبية أم غيرهما، مما يمكن بلوغه بالللاحظة الخارجية المنظمة ثانياً<sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص يطالعنا السيد الحكيم بجملة من مفردات السيكلولوجيا في مجال دراسة العمليات العقلية، فالتصور والانتباه والتفكير، والإدراك ، وان كانت كلمات شائعة في اللغة والاستعمال، الا انها في علم النفس اضحت اصطلاحات فنية تدرس من خلالها العمليات العقلية، فالإدراك مثلاً يُعد من العمليات العقلية المهمة التي تربط الإنسان بيئته في مراحل الللاحظة والفهم والحكم ، ومن ثم فهو :

(الوسيلة التي تساعده على اشباع حاجاته الأساسية والثانوية  
وبواسطته يتتجنب الأخطار التي قد تؤدي بحياته او التي تقلل  
من فرص نموه واستقراره)<sup>(٢)</sup>.

أما الانتباه وهو من الموضوعات المهمة في علم النفس، وقد يستدعي البحث فيه عشرات الصفحات فقد عرفه الدكتور فاخر عاقل في كتاب : ( علم النفس ١٩٧٢ ) ، بأنه :

(١) عبد الله بن عباس: ج ٢، ص ٤٦.

(٢) د. جمال حسين الآلوسي، علم النفس العام: ص ٢٣٢.

(العملية النفسية التي تقوم باختيار عدد من المثيرات المتوازدة على النفس والتركيز عليها وتجاهل المثيرات الأخرى أو كبت الاستجابة إليها) <sup>(١)</sup>.

وكذا الحال بالنسبة إلى التفكير فالعلماء السيكولوجيون من : (لا يعرفون كيف يعمل الدماغ أثناء التفكير، هل يشمل التفكير جميع الدماغ أم ان هناك مراكز للتفكير كالمراكز المخصصة للبصر والسمع؟ هل العلميات التفكيرية التي تجري أثناء حل المشكلات تختلف عن العمليات التفكيرية التي تجري أثناء احلام اليقظة؟) <sup>(٢)</sup>.

وقد يربط السيد الحكيم بين المفاهيم الأخلاقية والمفردة السيكولوجية، فهو حينما يتحدث عن شخصية مالك الأشتر وشجاعته يربطها بقدرته على ضبط النفس، وضبط النفس هو من الاساليب العلاجية كما سنلاحظ ذلك في المبحث القادم يقول:

(الشجاعة ولا تقصد بها الا التغلب على قوى النفس جمِيعاً وتوجيهها كيما يريد ويريد له المنطق الصحيح... فالشجاعة تظهر في الصراحة وتظهر بضبط النفس في المقامات التي تحتاج إلى ذلك) <sup>(٣)</sup>.

(١) د. فاخر عاقل، علم النفس: ص ٦٢١.

(٢) نفس المصدر: ص ٦٧٣.

(٣) مالك الأشتر: ص ١٠٧.

كما ربط سماحته بين مخالفة الضمير ومثله الأخلاقية وحالة التبرير التي يسلكها الفرد، فقال:

(وهذا الرقيب او الضمير يستمد مثله عادة من المحيط الذي يعيش صاحبه فيه، مهما كان في تلکم المثل من المفارقات، ويظل حارساً اميناً عليها، يسير صاحبها وفقها في حدود ما يستطيع، فإذا شدّ صاحبها عن بعضها بتأثير بعض العوامل النفسية التي تغلب عليه، اوقعته تحت وطأة من تأثيره وتقریعه بصورة لا تعرف الى الرحمة سبيلاً، وكثيراً ما يلجأ صاحبه الى خلق التبريرات النفسية ليخفف بها من ثقل التأنيب والتقریع) <sup>(١)</sup>.

إذا فالتأريب هو من الآليات الدفاعية والخيل النفسية لتحقيق التوازن بعد الاحساس بفقدانه، اذ تقف على رأس اهداف وواجبات حيل الدفاع النفسي، مسألة خفض التوتر ووقاية الفرد من الشعور بالقلق وبالتالي المحافظة على التوازن وقد عرّف الدكتور قاسم العوادي ، ظاهرة التبرير Retionalization في السلوك الانساني ، بأنه:

---

(١) عبد الله بن عباس: ج٢، ص. ١٥.

(محاولة الفرد تبرير سلوكه الخاطئ بأعذار منطقية ومعقولة  
لإقناع نفسه بصواب مسلكه ولكي يتتجنب الشعور بالإثم) <sup>(١)</sup>.

---

(١) د. قاسم هادي العوادي ، العصاب: ص ٢٨.

## المطلب الثاني: الاستشكال على التعاريف السيكولوجية السائدة :

ذكر السيد محمد تقي الحكيم قدس جملة من التعاريف السائدة في علم النفس و قد استشكل عليها بإشكالات عديدة، وفي هذا المطلب سنذكر بعض المفاهيم و التعاريف التي ذكرها و نقل كلماته في الاستشكال.

### أولاً: الشخصية:

نقل سماحته في تعريف الشخصية ما ورد في كتاب : (أسس الصحة النفسية ) ، بانها :

(المجموعة المنظمة من الافكار و السجایا و المیول و العادات  
التي يتمیز بها شخص ما عن غيره) <sup>(١)</sup>.

وقال عن هذا التعريف بانه لا يتماشى مع واقعها كوحدة ، لما توحّي به الكلمة (المجموعة) من تحريرية و تحريدية ، و نظيره كل ما ورد لها من تعريف وهذا الاستشكال يكشف عن تبنيه لما هو مقرر في الفلسفة الاسلامية عن (الأنما) او الشخصية و هو مبني الوحدة وليس الكثرة، يقول فيلسوف الاسلام الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي قدس في كتاب اصول الفلسفة و المنهج الواقعي عن هذا المبني :

---

(١) اسس الصحة النفسية: ص ٨٩.

(وإذا أقينا نظرة بسيطة، لا كلفة فيها سوف نجد أن ذاتنا –  
الأنـاـ غير خفية على ذاتنا، وهذا الامر المعلوم المشهود لدينا  
كما تقدم في المقالة الثالثة – واحد خالص، ليس فيه اي لون من  
الاختلاط او الجزئية والحد الجسمي) <sup>(١)</sup>.

ومن هذا المبني الفلسفـيـ، الذي يرى وحدة الشخصية (الأنـاـ) والبساطة فيها،  
 فهي واحدة في عين كثرتها و كثيرة في عين وحدتها . قال عن التعريف وحدة  
النفس :

(وكل ما ذكر لها من تعـاريفـ فهي لا تعدو ان تكون من قبيل الرسوم الناقصة.  
الـتيـ تـعمـدـ الىـ التـحـدـيدـ بـالـواـزـمـ وـالـآـثـارـ وـلـيـسـ فـيـهاـ مـاـ يـتـلـائـمـ وـوـاقـعـهـ طـرـداـ اوـ  
عـكـساـ) <sup>(٢)</sup>.

### **ثانياً: الذكاء:**

موضوع الذكاء من الموضوعات التي يهتم بها أغلب الناس، في العوائل  
والعامل والمتاجر والدوائر والمدارس، ونتيجة لاختلاف النـظرـةـ اليـهـ منـ حيثـ  
بنـاؤـهـ وـوـظـيـفـتـهـ فقد تـعـدـدتـ تـعـرـيـفـاتـهـ، وـالـاتـجـاهـاتـ فـيـهاـ، فـهـنـاكـ اـتـجـاهـ يـرـبـطـ الذـكـاءـ  
بـالـفـكـيرـ وـاتـجـاهـ يـرـبـطـ الذـكـاءـ بـالـتـعـلـمـ وـاتـجـاهـ يـرـبـطـ الذـكـاءـ بـالـقـدرـةـ عـلـىـ التـكـيفـ.

(١) السيد محمد حسن الطباطبائي رحمه الله، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي - ترجمة عمار أبو رغيف: جـ١، صـ٣٥٠.

(٢) عبد الله بن عباس: جـ٢، صـ٧.

وقد نقل سماحته بعض هذه التعريفات مثل تعريف يوسف مراد في مبادئ علم النفس العام:

(بأنه حدة الفهم النظرية، التي تهيء الإنسان لاكتساب أكبر قدر من المعارف. في أقصر مدة ممكنة ولاستخدام هذه المعارف على احسن وجه لحل المشاكل الجديدة) <sup>(١)</sup>.

ثم استشكل سماحته على جميع هذه التعريفات المطروحة لتحديد الذكاء فقال: (ومهما كان شأن هذه التعريفات من الدقة، فإنها لا تخرج في مدلولها عن الرسوم الناقصة التي تحدد معرفاتها باللوازم الخاصة دون ادراك لواقعها ادراكاً محدوداً، وحسبنا في هذا البحث ان ندركه بآثاره) <sup>(٢)</sup>.

وهذا كاشف عن مبناه في التمييز بين الذات والصفات، فالذات لا يمكن ادراك كنهها او تعريفها بخلاف الصفات والآثار، فأنها قابلة للبحث من خلال آثارها، فما ذكر من التعريف في مجال علم النفس لا يمكن ان يكون ناظراً للذات واعطاء التعريف لها بل هو ناظر الى تحديد اللوازم الخاصة دون ادراك الواقع.

وهنالك مفاهيم سيكولوجية كثيرة وردت في ثنايا بحوثه والاستشكال عليها آثرنا عدم التعرض لها ويإمكان القارئ العودة إليها في مضانها وهي كتاب عبد الله بن عباس وكتاب مالك الاشتري وكتاب شاعر العقيدة السيد الحميري.

(١) يوسف مراد -مبادئ علم النفس العام: ص ٢٩٠.

(٢) عبد الله بن عباس: ج ٢، ص ٤٧.

## المبحث الثالث

### توضيف نظريات التحليل النفسي :

#### التمهيد:

طرق المفكر الكبير السيد محمد تقي الحكيم في ابحاثه الى جملة من الموضوعات المختلفة كالشخصيات والنصوص والواقع التاريخية، واسس اتخاذ القرار، وكانت وجهة النظر النفسية لا تفارق هذه الابحاث، سواء على مستوى اعتماد المنهج الأيكولوجي العام او على مستوى حضور المفردات السائدة في الثقافة السيكولوجية كما لاحظنا ذلك في المبحثين السابقين، وفي هذا المبحث سنتعرض الى بعض النظريات المعتمدة في التحليل النفسي والتي استشرها سماحته في دراسة الشخصية ورسم عناصرها الكلية وتوجهها العام، كما وظف هذه النظريات في مجالات اخرى كدراسة الواقع والاحداث التاريخية مثل اجتماع السقية وتحركات الانصار، اذ حلل هذا التحرك سایكولوجياً كما سنتعرف على ذلك في الابحاث اللاحقة، او في مجال النصوص والروايات، حيث اعتمد المنهج السيكولوجي في تحليل بعض نصوص نهج البلاغة والنصوص الشعرية لشاعر العقيدة: السيد الحميري. كما حاول سماحته ان يدخل المنهج السيكولوجي ولو بشكل هامشي في دراسة الاصول كما سنلاحظ ذلك.

ومن المؤكد اننا لا نستطيع ان نستوفي جميع ما ذكره سماحته من افكار ونظريات في ابحاثه المختلفة مع ما تقتضيه من الرجوع الى هذه النظريات في مسانها من الكتب والموسوعات السيكولوجية. وسنكتفي بذكر بعض هذه الافكار مهدين بذلك السبيل للدارسين من الراغبين في التخصص ونيل الشهادات العالية في هذا المضمار. وسأقتصر هنا على ذكر الابحاث الآتية:

١. تصنيف الشخصية وأراء يونغ.

٢. عقدة النقص وأراء ادلر.

٣. النموذج او البطل وأراء برونز.

وكيف استفاد سماحته من هذه الآراء والافكار في دراسة الاشخاص والجماعات والمواقف التاريخيين والنصوص، ولم يلزم نفسه بمدرسة سيكولوجية بعينها، بل استفاد من هذا الفكر من موقع المجتهد العالم الاصولي البارع، الذي لا حجية عنده لما هو مشكوك في حجيته، فلا يوظف من هذه الآراء الا ما قطع أو اطمأن بكونه كاشفاً عن الواقع أو معدراً في مقام البحث واصدار الاحكام.

## **المطلب الأول: تصنيف الشخصية وأراء يونغ.**

في كتاب عبد الله بن عباس ذكر سماحته، في إطار تحديد مزاج ابن عباس النفسي تصنيف يونغ للشخصية فقال:

(اما مزاجه فهو - فيما اعتقد وتلّبني عليه جملة اخباره الماضية والقادمة- وسط بين الانبساط والانطواء، اذا صحّ تصنيف يونغ للشخصية الى هذين الصنفين، وربما كان اقرب الى الانبساط منه الى الانطواء، ففيه من مميزات الانبساط، سرعة الملاءمة بينه وبين المواقف الجدية الطارئة) <sup>(١)</sup>.

ويونغ Jung هو كارل غوستاف (١٨٧٥-١٩٦١) الطبيب السويسري صاحب كتاب (علم النفس اللاشعور) الذي اثبت فيه الكثير من مخالفاته لنظريات معاصره فرويد (١٩٣٩-١٨٥٦)، وقد وافقه بالنسبة الى دور اللاوعي في رسم سلوك الانسان، الا انه اثبت وجود نوعين من اللاوعي: الأول: الشخصي. والثاني: الجماعي، اما اللاوعي الشخصي فهو كما ذكره فرويد عبارة عن جميع الرغبات والدوافع والأمال وبعض التجارب المكبوتة أو المنسية والتي يمكن اخراجها من دائرة اللاوعي الى دائرة الوعي، وأما اللاوعي الجماعي فهو عبارة عن مخزن الموروث المعرفي والتجريبي والأخلاقي الذي وصل الى الفرد عن طريق الوراثة، وقد ساعد هذا التعريف لللاوعي يونغ

(١) عبد الله بن عباس: ج٢، ص١٢.

وسمح له بإعطاء تقسيم جديد للشخصية وهو: الانطواء والانبساط، مع ابحاث اخرى في هذا المجال لا يتسع المقام الى ذكرها<sup>(١)</sup>. الا ان سماحة السيد حاول ان يدرس شخصية عبد الله بن عباس ويصنفها على اساس الانبساط الذي يستمدّه وراثياً من البيت الهاشمي، الذي اشتهر بالقيادة والافتتاح على المجتمع ولم يعرف عند العرب بالانغلاق والعزلة عن الناس فقال:

(ان الغرائز الفطرية موروثة، والذكاء موروث، وبعض الصفات المكتسبة اذا اخذت في صاحبها طابع الثبوت والاستقرار، وتحولت فيه الى شبه غريزة، فهي موروثة أيضاً، كما ان كثيراً من الصفات الفسيولوجية مما تورث عادة، وليس من المصادفة البحثة ان يتفق جل البيت الهاشمي في الوسامنة والجمال والكرم والشجاعة والذكاء وسلامة النفس والجاذبية والغيرة ونظائرها، ثم ليس من المصادفة البحثة أيضاً ان يقترب صاحبنا من أبيه - كما ينص المؤرخون - في الطول والجمال - وكما رأينا من تأريخهما - وفي الذكاء والعقل وحسن الخلق وغيرها. وربما لا تساعف المصادفة ان يصاب عبد الله وأبوه وجده بالعمى وهم في اسنان متقاربة، وقد تكون متعددة، وربما يعزّوها من يعزّوها

---

(١) انظر - احمد القباني - نظريات علم النفس: ص ١٨٧.

إلى عامل الوراثة التي يطلق عليها العلماء اسم الوراثة المتشدة  
الأزمنة) <sup>(١)</sup>.

ومن هذه المقدمات وغيرها كما سترى صنف سماحته ابن عباس كشخص  
مبسط، والمبسط في تعريف يونغ:

(هو الشخص الذي يميل إلى انشطة خارجة عن ذاته تدفعه  
إلى حب الاختلاط بالآخرين وكثرة الحديث معهم ويرغب في  
الاعمال المشتركة) <sup>(٢)</sup>. وأما الشخص المنطوي فهو (يغلب عليه  
التفكير. ويعيش في داخل أسوار الذات، مقاوم للمؤثرات  
الخارجية، قليل الاعتماد على النفس في صياغة ارتباطه مع  
الآخرين، خجول ويؤثر العزلة وتجنب الخوض في المسائل  
الاجتماعية) <sup>(٣)</sup>.

والنمط الأول من الشخصية هو الأقرب إلى مزاج عبد الله بن عباس كما  
يقول السيد: (كان أقرب إلى الانبساط منه إلى الانطواء، ففيه من مميزات  
الانبساط:

١. سرعة الملاءمة بينه وبين المواقف الجديدة الطارئة، وطبعاً في مجال في  
حدود عقيدته.

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص ٣٢.

(٢) د. جمال حسين الآلوسي - علم النفس العام: ص ٣٧٦.

(٣) احمد القبانجي - نظريات علم النفس: ص ١٨٩.

٢. ان فيه من مميزاتهم تحقيق التوافق من طريق التعويض، وقد سبق ان رأينا ذلك منه أيضاً حين كان عرضة لبعض العقد النفسية، التي ولدت من الشعور ما يحتاج معه الى ذلك.

٣. اهتمامه بالامور الخارجية، وتوجيهه سلوكه اليها، هو الآخر من مميزات انبساطه).

٤. و اذا صرحت ما اعتبروه من المميزات الجسمية للمنبسط، فان الكثير منها يتوفّر فيه أيضاً، فهذه السمنة التي مكتته من ان يأخذ مكان رجلين ثم هذا الصلع الذي اعتراه، كما تشعر به الرواية السابقة، كل ذلك من امات الانبساط فيه) <sup>(١)</sup>.

ويعد تقسيم يونغ للشخصية هو الأفضل والأكثر واقعية من التقسيمات الأخرى كالتقسيم المزاجي القديم وانماطه: الدموي ، والصفراوي ، والسوداوي ، والبلغمي او تقسيم ادلر القائم على انماط الحياة: المتسلط، المستعطّي، والتجنب الناجح، فتقسيم ادلر لا يعتمد على اساس متين سوى المشاهدات الخارجية والاعتماد على ظواهر السلوك دون التوغل الى الدوافع والحركات الوجدانية في الافراد.

وكما استفاد سماحته من تقسيم يونغ للشخصية فقد استفاد من تشخيصه لوجود اللاوعي الجماعي عند الافراد، وذلك عند تعرضه لتحليل موقف

(١) عبد الله بن عباس: ج٢، ص١٢-١٣.

الانصار في اجتماع السقية، وسنعرض لهذه المسألة فيما بعد، الا ان ما نؤكده هنا، ذهاب سماحته الى تقسيم العقل الى الوعي واللاوعي، كما يقسم اللاوعي الى فردي خاص بشخص واحد والجمعي العام الذي يشمل جماعة معينة وهذا هو ما يظهر من كلماته عند حديثه عن حزب الانصار:

(وكان لهذا الحزب جناحان هما الأوس والخزرج، وكانا متابذين قبل الاسلام، وكانت بينهما حروب، فألف بينهم الاسلام ودفنت احقادهم في عقولهم الكامنة، وما كانت تظهر إلا في فترات يختفي فيها العقل الوعي كفترات الغضب ونظائرها) <sup>(١)</sup>.

فالسيد يثبت العقل اللاوعي - الجماعي للأنصار ويعتبره القوة الكامنة وراء سلوكهم في اجتماع السقية، اما عن أهمية وجود مثل هذا العقل فقد ذكر في علم النفس:

(والحق ان يونغ له مبتكرة في علم النفس، مما لم يسبق اليه احد، واثبت التجريب صحتها النسبية، مثل مقوله اللاوعي الجماعي) <sup>(٢)</sup>.

وهكذا نلاحظ نجاح سماحته في توظيف هذا الانجاز العلمي في دراسة التاريخ الاسلامي والمؤثرات غير الوعائية فيه كمدخل سايكولوجي في فهم هذا التاريخ.

(١) عبد الله بن عباس ج١، ص. ٧٠.

(٢) احمد القبانجي - نظريات علم النفس: ص ١٩٣.

اما عن العقل اللاواعي او الباطن الشخصي فقد ذكره سماحته عند تحليل مواقف مالك الأشتر وارجع سلوكه الخماسي في بعض المواطن الى هذا العقل قال:

(و اذا صح ما يقولون من ان العقل الوعي يفقد تأثيره في مثل هذه المواقف التي تجمع بين التحمس والغضب وان العمل فيها للعقل الباطن و اذا صح هذا فمالك من ملئ عقله الباطن ايماناً و اخلاصاً لمبدئه) <sup>(١)</sup>.

وهكذا نلاحظ سماحته ينفع امهات المسائل السيكولوجية من خلال التطبيق، كالعقل الباطن الشخصي واللاواعي الجمعي وتصنيف الشخصية، ويستفيد منها في دراسته وابحاثه عن الشخصيات او النصوص او الاحداث التاريخية ومواقف الجماعات.

---

(١)مالك الأشتر: ص ٧٥.

## **المطلب الثاني: عقدة النقص وأراء آدلر:**

كارل آدلر (١٨٧٠-١٩٣٧) من تلامذة فرويد، انفصل عنه عام ١٩١١ معتقداً ان العوامل الجنسية التي قال بها فرويد وعقدة أوديب، لا تقدم التفسير للعصاب ولا للنشاط النفسي الداخلي ومن ثم لتطور النفس البشرية، وذهب آدلر الى ان (النقص هو الدافع والمحرك للسلوك الانساني، والتعويض هو غاية السلوك البشري، ويعتبر آدلر ان الميل الاجتماعي هو تعويض حقيقي وضروري عن نقاط الضعف الطبيعية الموجودة لدى الكائنات البشرية الفردية) <sup>(١)</sup>.

ولما كان سماحة السيد محمد تقى الحكيم قد اختار المدخل السايكولوجي للدراسة شخصية عبد الله بن عباس فقد حاول الاستفادة من افكار آدلر في تطور بناء الشخصية كما استفاد من قبل (يونغ-Jung) في نتائج هذا البناء حيث استقرت شخصية ابن عباس عند نقطة توازن بين الانطواء والانبساط وهو الى الانبساط اقرب بفعل العوامل الكثيرة التي كانت تدعوه الى هذا الاتجاه في المزاج لاسيما وان البيت الهاشمي يحمل هذه الصفة في الأعم الأغلب.

اما فيما يرتبط بحركة بناء هذه الشخصية وكيف مررت بمراحل تكوينها وتطورها فقد ذكر سماحته نظرية آدلر بمراحلها الخمسة أولاً ثم استمررها في دراسة

---

(١) د. محمد زيعور - العيادة النفسية: ص ١٧٠.

المراحل المختلفة في تكوين شخصية عبد الله بن عباس ذات المزاج الانبساطي  
المعتدل فقال في اساس النظرية:

(اذا شعر بنقص ، تشكل سلوكه بأحد اشكال ثلاثة: الانحلال او  
المرض العصبي او النبوغ، فاذا لم يتغلب على الشعور بالنقص  
انزلق الى الفساد والانحلال او هرب الى الاوهام يختضنها  
ويعيش في ظلها وهذا هو المرض العصبي، فاذا استطاع تعويض  
نقصه اصبح نابغاً<sup>(١)</sup> .

فالشخصية في ضوء هذا التحليل تمر بمراحل خمس هي: الازمة، مركب  
النقص، التعويض اتخاذ البطل، النبوغ، ولا ينبغي الخلط بين التعويض واتخاذ  
البطل، اذ ان التعويض وكما في النص السابق قد يتخذ شكل الانحلال او اتخاذ  
الأوهام واحلام اليقظة بدليلاً عن اتخاذ البطل النموذج من أجل الوصول الى  
النجاح وتأكيد وجود الذات وبالتالي النبوغ، فاتخاذ البطل هو فرع وجود  
التعويض وليس هو التعويض نفسه كوجود المعلول الذي هو فرع وجود العلة  
وقد يسبق اتخاذ البطل وجود المخنة أصلاً. وسنحاول استقراء كلمات السيد في  
تصوير شخصية ابن عباس في ضوء هذه المراحل:

---

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص173 نقلأً عن: مجلة الكاتب - السنة الثانية: ج1، ص141.

### المرحلة الأولى: المواجهة والازمة:

وفي هذه المرحلة تم استعراض المأسى والرزايا والخراب الذي طال بيت الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه بعد رحيله، وكل ذلك من زاوية نظر ابن عباس فقال سماحته:

(هل كانت أعصاب صاحبنا تساعده على متابعة هذه المشاهد وملاحة فصولها؟ وكيف كان حاله وهو يشاهد هذه الجرأة على هتك حرمة هذا البيت مع ماله من مقام رفيع برسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، ثم يشهد فاطمة ل عليها السلام وهي تتضور من الألم تحت ضربة ابن الخطاب... وأخال ان أفعج منظر شاهده اذ ذاك ولم تتحمله اعصابه هو استضعافهم لبطله وتهديدهم له بالقتل، حتى ألجؤه ان يعلن مظلوميته بهذا الاسلوب المتفجع: (يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني) <sup>(١)</sup> .

لقد اعتبر سماحته عبد الله بن عباس مشمولاً بمحنة آل الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه بعد رحيله والحق هو كذلك بل ان ابن عباس كان يعاني مع أبيه في مكة منذ ان فتح عينيه على الحياة، اذ ان تهديدات التهجير والقتل على الهوية الهاشمية كانت تطالهم كل يوم من المشركين في هذه البلدة التي حشدت كل الامكانات لحرب الرسالة، وكانت هذه المعاناة ظاهرة في سؤال أم الفضل للرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه:

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص ١٥٨.

(ان الله نعاك، فلو اوصيت بنا من يكون بعده)

فقال لها النبي ﷺ :

(انكم مقهورون، مستضعفون بعدي) <sup>(١)</sup>.

وهنا يتوقف سماحته عند هذه الرواية ويقول:

(ونرجو ان نخفي بهذه الرواية لما فيها من كشف عن مدى اهتمامها بشأن الخلافة، فربما القت بعض الاضواء على مفتاح عقدة سلسلتها في نفس ولدها بعد حين) <sup>(٢)</sup>.

وهكذا تتشكل اسباب العقدة من المحن والمعاناة والخوف المستمر في مكة أولاً ثم في المدينة ثانياً، يقول السيد عن هذه المواجهة:

(وخلفت في نفسه روابتها، وبرزت آثار تلكم الرواسب على فلتات لسانه من دون شعور، وربما كان مفتاح معرفة شخصيته في قابل أيام حياته معلقة بهذه الاحداث ونظائرها مما لم نعرض له لشابهته لها، فماذا تركت في نفسه من مخلفات؟؟) <sup>(٣)</sup>.

(١)المصدر نفسه: ج1، ص ٣٨.

(٢)عبد الله بن عباس: ج1، ص ٣٨.

(٣)عبد الله بن عباس: ج1، ص ١٧٢.

## المرحلة الثانية: العقدة.

قال سماحته عن مخلفات الاحداث وما تركته في نفس عبد الله عليه السلام :

(وهذه الضربات المتواترة عليهم منذ حادثة الغدير حتى وفاة فاطمة  عليها السلام مع ما ناله منها من نصيب شركته في تقسيم شخصيته وزعزعت من الثقة والاعتراض اللذين كونهما لها... وربما تعمق هذا التشكيك فكم من في لاسعوره على شكل عقدة) ظلت تبحث عن طريقة للتعويض )<sup>(١)</sup>.

والعقدة في علم النفس هي :

(شحنات قوية وافعارات متراكمة على شكل كتل ومجاميع موجودة في منطقة اللاشعور تقوم بتوجيه الفرد دون وعي منه الى عمل معين وسلوك خاص) )<sup>(٢)</sup>.

اما ما هو السلوك الخاص عند عبد الله بن عباس، لاسيما وان هناك ثلاثة اشكال من الاستجابة لمركب النقص والاحساس بالعقدة وهي الاخلال او المرض العصبي او النبوغ، فقال سماحته:

(وكان صاحبنا -بما وهب من امكانيات واستعدادات موروث ومكتسب- من الفريق الثالث فقد وجهت به هذه العقدة الى تأكيد ذاته عن طريق الثقافة والمعرفة) )<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص ١٧٣.

(٢) السيد أحمد القبانجي - نظريات علم النفس: ص ١٧٤.

(٣) عبد الله بن عباس: ج١، ص ١٧٣.

اذا فالعقدة طاقة وشحنة قوية كامنة في العقل الباطن، تعمل كمولد يدفع باستمرار نحو التحرك والعمل والتعويض، فما هو التعويض؟ .

### **المرحلة الثالثة: التعويض:**

يقول الدكتور قاسم هادي العوادي :

(التعويض هو Compensation محاولة الفرد النجاح في ميدان تعويض اخفاقه أو عجزه في ميدان آخر، فالمصاب بعاهة تسبب له شعوراً بالنقص يحاول أن يكون أنيقاً في مظهره والمصاب بصعوبة الكلام منذ الطفولة يكافح من أجل أن يصبح خطيباً مفوهاً<sup>(١)</sup>).

وهكذا أقبل ابن عباس على مصادر العلم والمعرفة للتعويض نفسياً عما ألم به من النقص يقول سماحته عن هذا الاقبال ونتائجها:

(ومثل هذا الاقبال - بماله من عوامله وموهاب صاحبه- لابد ان ينهيه الى النبوغ)، وفي حديث آخر عنه يؤكّد لنا مدى ذلك الاقبال قال: (ووجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الانصار، فإن كنت لاتطي الرجل فأجده نائماً، ولو شئت ان يوقظ لأوّلاظ لي فأجلس على بابه، تسفي على وجهي الريح، حتى يستيقظ متى استيقظ، وأسأله عما أريد ثم انصرف)، وهو بالإضافة الى تأكيده

---

(١) د. قاسم هادي العوادي - العصاب: ص ٢٨.

للمضمون السابق يشير بطرف خفي الى مفعول تلکم العقدة في نفسه، وإنما حاجته الى تأكيد ذاته بقوله: (لو شئت ان يوقظ لي لأوقظ) <sup>(١)</sup>.

(وهكذا قضى بقية هذه الفترة - التي امتدت به الى نهاية خلافة أبي بكر أو قبلها بقليل - اذا صر ما حددناه سابقاً من زمن ولادته- لسيقبل مراحل الشباب وهو مزود بثقافة عالية لفتت اليها انتشار كبار الصحابة، وبرواسب خلفها ما مرّ به من احداث) <sup>(٢)</sup>.

#### **المرحلة الرابعة: اتخاذ البطل.**

وقد ذكره السيد كثيراً في كتبه، وسنعرض له في دراسة خاصة في هذا البحث. اما عند عبد الله بن عباس فهي مرحلة تبلورت في عرض المراحل الأخرى، ومنذ تكوين الوعي الأول عنده في مكة عندما كان يتطلع مع افراد اسرته الى انباء الانتصارات والبطولات والإنجازات التي احرزتها الدعوة الإسلامية في المدينة على يد الرسول الأعظم ﷺ وساعدة الإمام علي عليه السلام اللذان كان يرى فيهما سمات الابطال وبالتالي يجب عليه ان يحاكيهما في هذه الحياة، كما انهما ابنا عمّه وليس بالغريب عنه. يقول سماحته :

(واظتنا في غنى عن القول بان بطله الأول كان رسول الله ﷺ وكان يتأثره حتى في نوع لبسته للأزار، فكان يرخي مقدم ازاره حتى تقع حاشياته على ظهر قدميه، ويرفع الأزار

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص175.

(٢) المصدر نفسه: ج1، ص176.

من ورائه، فإذا سُئل عن أسباب ذلك قال: رأيت رسول الله يأتِر هذه الأُزرة، وقد رأيتم كيف كان يحاكيه في صلواته ووضوئه، ويتبَع خطواته خطوة خطوة وسترون نماذج من ذلك في هذا الحديث، ولكن الذي أخاله أن حياته قد اتسعت لأكثر من بطل واحد، وإن شئت أن تقول بأن البطل الثاني كان امتداداً للبطل الأول<sup>(١)</sup>.

الإمام علي (عليه السلام) هو القدوة الحسنة بعد الرسول (ص)، والمصدر للعلم والثقافة عند ابن عباس، قال سماحته:

(فقد وجهت به هذه العقدة إلى تأكيد ذاته من طريق الثقافة والمعرفة، وقد استغل - فيما أخال - فراغ استاذه وبطله وابتعاده عن السياسة للتزوّد من ثقافته العميقه)<sup>(٢)</sup>.

وفي المطلب القادم سنتعرض إلى تفاصيل أكثر حول نظرية البطل التي تكرر ذكرها في ابحاث السيد محمد تقى الحكيم.

(١) المصدر نفسه: ج1، ص66.

(٢) عبد الله بن عباس: ج1، ص173.

### **المرحلة الخامسة: النبوغ والابداع.**

يذكر الدكتور فاخر عاقل في كتابه، علم النفس نقاً عن ديلاس رأيه في الابداع: (بصورة عامة دلت الدراسات على وجود نمط معين من الملامح السيكولوجية تميز الاشخاص المبدعين، بقطع النظر عن اعمارهم وخلفياتهم الثقافية و المجال عملهم، ويبدو الاشخاص المبدعون متميزون بأهتماماتهم و مواقفهم و دوافعهم أكثر من تميزهم بقدراتهم العقلية) ثم ايد هذه التبيّنة بما قاله كلاً من (والاش وكوجان):

(ان عدم وجود ترابط عال جداً بين الابداع والذكاء قد يبدو مدهشاً ولكن البحث العلمية ايدت هذه التبيّنة -١٩٦٥).<sup>(١)</sup>

ومن هنا أكّد سماحة السيد على الاقبال غير التقليدي لعبد الله بن عباس على طلب العلم والمعرفة، والاهتمام الشديد بهذا الطلب فقال :

(ومثل هذا الاقبال - بما له من عوامله وموهوب صاحبه- لابد ان ينهيه الى النبوغ).<sup>(٢)</sup>

يرى ان وراء هذا الطلب عوامل لا شعورية، تتمثل بمركب النقص، والعقدة النفسيّة التي تسبّبت بها محنّة البيت الهاشمي. فتحولت الى سلوك تعويضي بالاقبال على الثقافة والمعرفة وجمع الاحاديث النبوية لنسياً هذه المحنّة

(١) د. فاخر عاقل -علم النفس: ص ٦٩١.

(٢) عبد الله بن عباس: ج١، ص ١٧٤.

والخلص من مشاعر التوتر والالم، وتأكيد الذات وتحقيق التوازن. فكان اهتمام ابن عباس وجهاده العلمي متميزاً في هذا المجال، ولتأكيد هذا الاهتمام المتزايد ينقل السيد هذه الرواية عنه:

(لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الانصار: هلمْ فلنسأل اصحاب رسول الله فأنهم اليوم كثير، قال، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرن اليك وفي الناس من اصحاب رسول الله ﷺ منْ فيهم، قال: فترك ذلك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث، فان كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح على التراب، فيخرج فيرانني فيقول لي: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟! إلا أرسلت الي فآتيك فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الانصاري حتى رأني وقد اجتمع الناس حولي ليسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني) <sup>(١)</sup>.

ثم علق سماحته على هذه الرواية مؤكداً أهمية الاقبال والاهتمام والتركيز على النبوغ:

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص ١٧٤.

(وهذا الحديث يكشف لنا صفة من اقباله المبكر على المعرفة وفهمه لقيمتها وقيمة حامليها) <sup>(١)</sup>.

وهكذا تتأكد في هذه الابحاث التطبيقية أهمية بعض نتائج الدراسات السيكولوجية، فالابداع والنبوغ ليسا بالضرورة حصيلة الموهبة والقدرة العقلية، فقد تكون نوع الاهتمامات والدوافع النفسية آثارها في مجال الابداع والعطاء. ومن هنا سنعقد المطلب القادم، لبحث نظرية البطل، كآلية من آليات الدفاع عن الذات وشكل من اشكال التعلم، واسلوبياً في علاج المرض النفسي والعقد، وطريقاً للوصول الى الابداع والنبوغ.

---

(١) نفس المصدر: ج١، ص١٧٤.

## **المطلب الثالث: الاقتداء بالبطل:**

فكرة المحاكاة من الافكار المهمة في الدراسات السمايكولوجية وهي تارة ترد في اطار مدرسة التحليل النفسي، كآلية لأشعورية، وحيلة من حيل الدفاع النفسي وأخرى ترد في نظريات التعلم، كأسلوب قائم على النماذج الفكرية، التي كانت موضع اهتمام جيروم برونز Jerome Bruner، وقد أكثر سماحة السيد محمد تقى الحكيم توفيق من ذكر البطل في دراسة شخصياته كعبد الله بن عباس ومالك الأشتر وشاعر العقيدة السيد الحميري. وسنحاول دراسة هذه الظاهرة السمايكولوجية مرة في اطار التحليل النفسي، والعقل الباطن وأخرى كأسلوب من أساليب التعلم وثالثة كأسلوب من أساليب العلاج كما قرر ذلك الطبيب النفسي وليم كلاسر Glasser عام ١٩٦٥، مع الاشارة الى كلمات سماحته في هذه المجالات، التي وظفها في ابحاثه المختلفة :

### **الأمر الأول: محاكاة البطل في التحليل النفسي:**

في كتاب عبد الله بن عباس قدم لنا سماحته، تحليلاً تطبيقياً في الترابط بين المحن او الازمة التي يتعرض لها ابن عباس في طفولته حيث تواجدهم في مكة قد جعله عرضه للقتل او التهجير او الازدراء والاستهزاء من قبل ابناء المشركين، وبين تشكل العقدة، عقدة الشعور بالنقص، وهي طاقة تدفع عبد الله بن عباس باستمرار للتطلع الى البطولة الموجودة عند المسلمين في المدينة وعلى رأسهم ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام ، يذكر سماحته قصة منع المشركين للرسول ﷺ

ومن معه من المسلمين وهم الف واربعمائة من ابطال المسلمين، من دخول مكة لأداء العمرة، ثم يذكر اثر هذه الحادثة على نفسية ابن عباس امام رفاقه قال:

(بماذا واجه رفاقه من ابناء المشركين؟ وكيف قابل ارتياحهم بمنع ابن عمه من العمرة والدخول الى مكة او اي اثر تركه ذلك في نفسه؟ الذي احاله انه تأثر كثيراً، واهتم له كثيراً، وبقي يتضرر الساعية التي يعود بها - ابن عمه- الى مكة متصرفاً لينتقم لنفسه من هؤلاء الشامتين به) <sup>(١)</sup>.

وبعد هذه الحادثة تأتي اخبار انتصار الرسول ﷺ في معركة خيبر، فيكون لها اثرها في طفولة ابن عباس قال سماحته عن حديث خير:

(قد لفت هذا الطفل واصنعي اليه بكل جوارحه، ولفته منه على الخصوص موقف ابن عمه البطولي، وما فيه من غرائب لا يتضمنى وقوفها لاكثر الشجعان، وان حديث القضايا الغريبة مما يستهوي من هم بسنها اكثرا من غيرهم، وما يدرك لعله وجد فيه صدى لما يملأ شعوره بالعزبة بعد ان جرحة من رفاقه هزء الهازيئين) <sup>(٢)</sup>.

وهكذا يربط لنا سماحته محبة ابن عباس، وازمته النفسية بتطلعه الى اباء وبطولات ابن عمه، فهو يتقمص هذه البطولات في ذهنه في مرحلة أولى قبل ان يتحول الى متعلق بها سلوكياً في حياته في المراحل التالية وبعد دخول المسلمين

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص46.

(٢) عبد الله بن عباس: ج1، ص47.

إلى مكة ينطلق هذا التقمص السلوكي للتحرر من مركب النقص في اللاشعور يقول سماحته:

(لاحظ ابن عمه عليه السلام وهو يظهر البيت من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، فملأه كل ذلك زهواً وارتباطاً، وتركه يتبع ابن عمه في روحاته وغدواته، ولا يفارقها عادة إلا في القليل من الأحيان، بل لم يفارقها حتى في ذهابه بال المسلمين وبين أسلم عن قريش لغزو هوازن) <sup>(١)</sup>.

وهكذا تحولت عقدة النقص عند ابن عباس إلى بطولة في الطفولة فهو ينطلق مع الابطال وعلى راسهم ابن عمه بطله التاريخي ومثله الأعلى في الحياة، إلى الحرب بل انه تعلق به ولا يفارقها أبداً، نفسياً أولاً، وعملياً في أرض الواقع ثانياً.

وقد أكد سماحته هذا التحليل على المستوى النظري بعد ان نقل كلمات القوصي في هذا المجال فقال:

(يقول القوصي - وهو يتحدث عن هذه الفترة فيما يتحدث- يبدأ المراهق على وجه العموم يستقل عن المنزل ويتصل بالمجتمع، ويبحث عن شخص يتجسم فيه المثل الأعلى الذي يرتضي لنفسه أن يتحذيه وتصل علاقته من ناحيته بالبطل الجديد

---

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص54.

احياناً الى درجة تشبه العبادة، وتسمى عادة عبادة البطل، وتصل عبادة البطولة الى درجة يصعب على الكبار تصورها<sup>(١)</sup>. وقد ذكر الدكتور قاسم العوادي هذه الظاهرة في كتابه (العصاب) واطلق عليها الاقتداء او التوحد Identification، ومن مظاهرها ان يتتشبه الشخص بمن يعتقد انه مثله الأعلى أي ان الفرد يتوحد ويندمج في سلوكه بشخص أو جماعة فيهم صفات مرغوبة لا توجد عنده وبذلك ييرهن ذاته ويزيد من احترامه لنفسه<sup>(٢)</sup>.

اما الدكتور الطيب علي كمال فقد اطلق على هذه الظاهرة (التعرف او التشبه) وقال عن بعض وظائفها النفسية ومظاهرها:

(ان عملية التعرف تخدم أغراضًا كثيرة وتعتبر وسيلة هامة لتحقيق الرغبات التي لا يستطيعها الفرد بنفسه، فيقتضي تحقيقها في حياة الغير ويرضاها لنفسه كأنه قام بها، والكثير من مظاهر التقليد وتعلق الفرد بغيره وعبادة الابطال)<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص64.

(٢) د. قاسم هادي العوادي - العصاب: ص28.

(٣) د. علي كمال - النفس - انفعالاتها وامراضها وعلاجها: ج1، ص61.

## الأمر الثاني: محاكاة البطل في نظريات التعلم.

اهتم سماحة السيد محمد تقى الحكيم قدس بنظرية البطل ومحاكاته والاقتداء به كأسلوب من اساليب التربية والتعليم واكتساب الملكات العقلية والنفسية والمهارات العملية، ومثلما حلل ودرس شخصياته في ضوء هذا الاسلوب، فإنه دعى الشباب صراحة الى اعتماده والأخذ به فقال في خاتمة كتاب الاشتراط:

(آن لوكينا ان يساير المواكب وان يتقدمها إلى الامام، فنحن  
والحمد لله - ما تقدمت الحضارة إلا وكشفت عن كنوز ثمينة  
كانت مخفية عندنا قبل هذا اليوم، فأستيقظوا يا نائمين  
ووحدوا الهدف ولا تخبطوا خطط عشواء في دياجي الظلام،  
ضعوا سيرة هذا البطل بين اعينكم وتأثروا بآيمانه واحلاصه  
وتضحية فإنها خير دليل) <sup>(١)</sup>.

وبهذه الكلمات يحاول سماحته ان يخلق او يجسد نوعاً من (المجال الحيوي Life Space) كما يعبر عنه في السايكلولوجيا، يتالف هذا المجال من عناصر الماضي وتراثه المشرف وكنوزه الثمينة والنجازات الحضارة الاسلامية، ومسايرة الركب الحديث والصحوة والانتباه وعدم التشتيت او الخبط في الجهل والظلال، واتخاذ البطل القدوة في الایمان والاخلاص والتضحية، بعد وضعه نصب العين.

(١)مالك الأشتر: ص ١٢١.

كشف ليفين Lewin عن أهمية (المجال الحيوي) في التعلم والتفكير واكتساب المعرف، استثمر جيرروم برونز Jerome Bruner ، هذا الكشف ليؤكد على أهمية النماذج الفكرية Constructal Models - في اطار المجال الحيوي ضمن هذه الطرز او النماذج السائدة في المجتمع ومنها الابطال او القدوة، يبدأ الطفل بالمحاكاة والتقليد والرغبة في التكوين والوصول الى حالة التكامل او اكتساب المعرف او السلوك العام.

وقد ذكر سماحة السيد في كتاب شاعر العقيدة، امرئ القيس كنموذج فكري وطراز يستهوي المتعلمين في مجال الادب والشعر، منهم السيد الحميري الذي يقول: رأيت النبي ﷺ في النوم وكأنه في حديقة سبخة فيها نخل طوال والى جانبها ارض كأنها الكافور ليس فيها شيء فقال: اتدرى ملئ هذا النخل؟ قلت: لا يارسول الله، قال:

لامري القيس، اقلعها واغرسها في هذه الارض ففعلت.

يقول سماحته عن اتخاذ السيد الحميري (لا شعورياً) لأمرئ القيس نموذجاً فكريّاً وبطلاً يحاول الاقتداء به:

(وأنا لا أبعد أن يكون لقصائد امرئ القيس نصيب وافر في حفظه، نظراً لما يخصها تقاد البصرة به من الاهتمام، وقد صح عنهم - كما يحدث ابن سلام - انهم اجمعوا على تقديره على سائر الشعراء الجاهليين، وهذا مما يلفت نظر امثاله من

الصغر، فيستهويهم أكثر من غيره ويستأثر بالمكان الأول من نفوسهم كما تقتضي بذلك العادة<sup>(١)</sup>.

كما ذكر سماحته الابوين واثرهما في تكوين شخصية الطفل وبنائه كنماذج فكرية تعيش في المجال الحيوي للشخصية فقال:

(ان الطفل بحكم استجابته لغريزة التقليل والمحاكاة يبدأ منذ بداية تميزه عادة فيحاول ان يقلد ابويه في كل شيء يقع نظره منهما عليه وربما اتخذ من بعضهما مثلاً أعلى يخصه بجملة حماساته وتقليله لما يصدر منه من اعمال واقوال)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يتحول التقمص أو الاقتداء من اداة دفاعية على مستوى التحليل النفسي كما لاحظنا في الامر الاول الى اداة للتعلم على مستوى نظريات التعلم في السيكولوجيا لأن (اهم الاشخاص الذين يقتدي بهم الفرد هم: الوالدان والمعلمون والابطال ورجال الفكر والممثلون)<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا ايضاً التفت خبراء السايكولوجيا الى بعد العلاجي في محاكاة البطل وهذا هو محور الحديث في الامر الثالث .

(١) شاعر العقيدة: ص ٢١.

(٢) شاعر العقيدة: ص ١٦.

(٣) د. قاسم هادي العوادي - العصاب: ص ٢٨.

### **الأمر الثالث: محاكاة البطل في العلاج النفسي:**

الامراض النفسية كالامراض الجسدية لابد فيها من العلاج، وقد تطورت اساليب علاجها بفعل الجهد العلمي المتواصل في علم النفس، فهناك علاج الامراض النفسية من طريق الجسم كتناول الدواء او السيطرة على الجسم، وهناك العلاج العقلي ومنه علاج ضبط النفس او العلاج العقلي التعليمي، ومن اساليب العلاج التعليمي ما يسمى بعلاج الواقع وقد اسس هذا الاسلوب العلاجي وليم جلاسر ١٩٦٥ Glasser، وقد استند هذا العلاج التعليمي الى عدم ترك الفرد معزولاً، يقول الدكتور على كمال:

(ويرى جلاسر بان الفرد الذي يعالج، أن يرتبط مع غيره وعلى الأقل مع فرد آخر... والتعامل معه بواقعية وباهتمام، فإنه لن يبقى معزولاً، وفي ذلك مفتاح تحقيق حاجاته) <sup>(١)</sup>.

وهنا تظهر الروعة في كتابات السيد محمد تقى الحكيم قدس سره اذ ينقل لنا صوراً من تعلق ابن عباس، برسول الله ﷺ الى الحد الذي يثير العجب مع انه لم يكن يعرف النبي عن قرب الا بعد فتح مكة. كما ينقل لنا اهتمام الرسول ﷺ - وهو صاحب الدواء للإنسانية من كل امراضها وعدها- بهذا الصغير بشكل عجيب، فيقول سماحته عن ملاحقة ابن عباس للرسول ﷺ.

(١) د. علي كمال - النفس - انفعالاتها وامراضها وعلاجها: ص ٤٦٣.

(وكان له من وجود خالته ميمونة في بيت النبي ﷺ ما يشجعه على متابعة صحبته والتأثير بعمله، فقد كان ربما يأتي فيبيت معه عند خالته وقد حدث هو قال: (اتيت خالتى ميمونة، فقلت: انى اريد ان ايت عندكم الليلة، فقالت: وكيف تبىت وانما الفراش واحد، فقلت: لا حاجة لي في فراشكم، افترش نصف ازارى، واما الوسادة فإني اضع رأسي مع رؤوسكم من وراء الوسادة، قال فجاء النبي فحدثه ميمونة بما قال ابن عباس، فقال رسول الله: هذا شيخ قريش) <sup>(١)</sup>.

وينقل سماحته رواية أخرى تؤكد اهتمام النبي ﷺ بأبن عباس ورعايته له مع ما تستبطنه هذه الرواية من قيام الرسول ﷺ بمنحه الحنان والرأفة والتقدير تعويضاً له عن معاناته في مكة وارواء لدافع المحاكاة والتقمص عنده، قال:

(كانت هوايته المحببة ان يقتفي آثار النبي ﷺ ويتبع خطواته، ومتابعته في كل ما يعمل، ومن ذلك ما حدث عن نفسه قال:

(كنت عند رسول الله ﷺ فقام الى سقاء فتوضأ وشرب قائماً، قلت: والله لأفعلن كما فعل النبي ﷺ فقمت وتوضأت وشربت قائماً، ثم وقفت خلفه، فأشار الي لأوازي به، اقوم عن يمينه، فأبيت فلما قضى صلاته قال: ما منعك ان لا تكون وازيت بي؟ قلت: يا رسول الله انت اجل في عيني وأعز من اوادي بك، فقال: اللهم آتة الحكمة) فهو - كما ترون - يقسم على نفسه ان

(١) عبد الله عباس: ج1، ص61.

ي فعل كما فعل ﷺ ويقلده حتى في الشرب قائماً، ويتم له كل ذلك<sup>(١)</sup>.

وهكذا تتضح لنا ملامح هذا الاسلوب العلاجي، اذ يتجاوز الرسول ﷺ مع ابن عباس منذ اللحظة الاولى في مكة ويأخذه معه الى الحرب، ثم الى المدينة، ويسمح له بمحاجته حتى في المبيت عنده اذ يشارك الرسول ﷺ وحالته ميمونة في وسادتها. فبالعظمة الاستاذ المربى والبطل الرؤوف الرحيم ويترتب على هذا التفسير لمعالجة النبي ﷺ للموقف مع هذا الفتى الذي اخذه بطلاً له، ان ليس كل وظيفة النبي ﷺ تنحصر في ان يبين الاحكام الشرعية كما هو مقرر عند بعض الاصوليين وبالتالي غاب عن بعض الاذهان، ان من جملة مناصب النبي ﷺ انه كان حاكم دولة وقائد مجتمع، ورب اسرة، وانه انسان يتفاعل مع محیطه وحياته ومع معاشريه من الناس، ويعالج الحالات التي يواجهها طبقاً لما هو المطلوب والتجه في معالجة الحالة، ومن هنا يصف هذا الطفل بأنه شيخ قريش، فيكون العلاج محققاً لهذه الكلمة في مستقبل الايام. وهذه مسألة مهمة يجب مراعاتها في دراسة السنة واستبطاط الاحكام في علم الاصول. ومن هنا تتضح اهمية محاولة سماحة السيد بإدخال المنهج السيكولوجي في علم الاصول كما سنلاحظ في البحث القادم.

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص٥٩.

## المبحث الرابع

### تطبيقات المنهج السيكولوجي.

ذكرنا في المباحث السابقة كلمات بعض اساتذة علم النفس واعترافهم بغياب وعدم وجود منهج سيكولوجي محدد لدراسة الشخصيات في مجال الفن او انجازاتهم. فكيف يكون الحال اذ تطلب الامر تعميم مثل هذا المنهج ليشمل بالإضافة الى الشخصيات النصوص أو الواقع التاريخية المهمة او اتخاذ القرارات واستنباط الاحكام، لقد حاول سماحة السيد محمد تقى الحكيم تشر وبما أotti من عبقرية وتضلع في مجالات عديدة ان يضع لمساته السيكولوجية في اكثر من مجال لتوظيف الفكر السيكولوجي وتعديله ليشمل مجالات عدة وسنذكر اهم هذه الموضوعات بإيجاز تاركين المجال للأخرين في اغنائها بالدراسات والبحوث.

#### أولاً: في مجال علم الاصول.

يدرس علم الاصول مدخلات العملية الاستنباطية، ويقدم لهذه العملية المهمة والخطرة في اتخاذ القرارات او صناعة الاحكام الشرعية ، عناصرها المشتركة ويسع لها نظامها العام ، و(بدون علم الاصول يواجه الشخص في الفقه ركاماً

متناهراً من النصوص والادلة دون ان يستطيع استخدامها والاستفادة منها في الاستباط<sup>(١)</sup>.

ولقد تطورت مباني هذا العلم في مدرسة النجف تطوراً كبيراً على يد كبار الاصوليين من امثال الشيخ الانصاري والمحقق صاحب الكفاية والشيخ العراقي والشيخ والنائيني وأخيراً وليس آخرأ السيد الشهيد محمد باقر الصدر الذي أضاف مباني جديدة لهذا العلم كمبني الاستقراء وقوة حساب الاحتمال والمتحتمل ثم نظر لهذا المبني بشكل مستقل فيما بعد في كتابه الفذ (الأسس المنطقية للاستقراء)، وبعد كل هذه الجهدات التي انتلقت في مدرسة النجف منذ ايام الشيخ الطوسي وتأليف كتاب (العدة) يمكن القول انه لم يعد بالإمكان ادخال تغيير أو تطوير في هذا العلم بسهولة ويسراً حتى بالنسبة للعلماء المتضلعين في هذا العلم، ويبدو لي ان السيد محمد تقى الحكيم قد افاد من خبرته في علم النفس والمنهج السيكولوجي في كتابه الشهير : (الاصول العامة للفقه المقارن) ويمكن ان نسجل هنا ثلاثة ملاحظات تؤكد على ادخال المنهج السيكولوجي في الدرس الاصولي عند سماحته.

---

(١) السيد الشهيد محمد باقر الصدر - المعالم الجديدة للأصول : ص ٢٩.

### **الملاحظة الأولى :**

إنَّ اعتماد منهج البحث المقارن وما يوفره هذا المنهج من امكانية الافتتاح على الفكر الآخر المختلف ، وال الحوار العلمي والموضوعي ، وبذلك تكون له آثار وثمرات في مجال بناء النفس و هدایتها ، وابعاد التعصب والعمى عنها ، عن هذه الثمرة يقول الباحث محمد جعفر الحكيم في بيان ثمرات المنهج المقارن في كتاب الاصول العامة للفقه المقارن:

(اشاعة الروح الرياضية بين الباحثين، ومحاولة القضاء على النزعات العاطفية، وتجريد البحوث العلمية عنها،.. وتقريب شقة الخلاف بين المسلمين، خصوصاً العلماء منهم المفروض قيادتهم للرأي العام الإسلامي، والحد من تأثير عوامل التفرقة، والتي من اقوالها وأهمها جهل علماء بعض المذاهب بأسس وأصول البعض الآخر، مما يدع الباب مفتوحاً على مصراعيه لتسرب الدعوات المغرضة في تشويه المفاهيم، او التقول على الآخرين بما هم لا يؤمنون به بل قد ييرؤون منه<sup>(١)</sup>).

وعلى هذا الأساس فإن اختيار المنهج المقارن يستبطن بعداً سيكولوجيا ومحاولة للتأثير في النفوس بما يؤمن لها الهدایة لمعرفة الحق من الأفكار ، واتباع الأنماذج الاحسن في حال التواافق على البعد العقلاني والموضوعي في شخصية الباحث .

---

(١) - محمد جعفر الحكيم - السيد محمد تقى الحكيم رائد البحث الاصولي: ص ١٥.

### **الملاحظة الثانية:**

ما ذكره في مبحث التقليد من: امتناع جعل الحجية لرأي الفاسق وان الفاسق حتى لو اطلع على مفردات علم الفقه وما يلابسها من المسائل الاصولية، واصبح على علم بدخلات العملية الاستنباطية فهو غير قادر على اتخاذ القرارات او التوصل للأحكام السليمة في الشريعة، للأهمية الخاصة للعدالة في بناء التصورات والتصديقات الصحيحة عند اصحابها لاسيما في مجال استنباط الحكم الشرعي فقال:

(والذي انتهينا اليه، وهو الذي يقتضينا الأخذ به من وجهة نفسية أيضاً، هو اعتبار هذا الشرط - العدالة- فعلماء النفس، فيما اعتقد، يشكون كثيراً في سلامة استنباط الحكم الشرعي من غير العدول، لتحكم عوامل التبرير في استنتاجاتهم لأكثر تصرفاتهم الناشرة، وهي عوامل بعضها لأشعوري) <sup>(١)</sup>.

وفي هذا النص تطالعنا مفردات: الوجهة النفسية، وعلماء النفس، عوامل التبرير، واللاشعور، وهذه مفردات، كما عرفنا سابقاً هي من صميم المنهج السيكولوجي، ومع ان مفردات كثيرة في علم الاصول لها ارتباط بمسائل علم النفس كمباحث وضع الالفاظ، ومدركات العقل العملي والظن والشك وغيرها، الا اننا لم نلاحظ في من سبق الاجهار صراحةً في اعتماد المفردة السيكولوجية في علم الاصول، وان يصبح لعلماء النفس دور كدور وحجية

(١) الاصول العامة للفقه المقارن: ص ٦٧٢.

قول العالم اللغوي، ويكون الرجوع الى السيكولوجيين من باب الرجوع الى أهل الخبرة كما نلاحظه في النص السابق.

### **الملاحظة الثالثة :**

وفي بحثه الشهير (سنة أهل البيت عليهما السلام) ذكر شبهة عكرمة ومقاتل، في استبعاد ان تكون آية التطهير قد نزلت في أهل البيت، وقالا بنزولها في نساء النبي ﷺ خاصة وكان من مظاهر اصرار عكرمة وتبنيه لهذا الرأي: انه كان ينادي به في السوق كما يذكر الواحدى في اسباب النزول، وبعد ان يرد السيد على هذا الرأى وهذه الشبهة، يستعين بالمدخل السيكولوجي للدراسة هذا السلوك الصادر عن عكرمة، قال:

(والحديث حول هذه الشبهة يدعونا الى تقسيم آراء كل من عكرمة ومقاتل، ومعرفة البواعث النفسية التي بعثت بعكرمة على كل هذا الاصرار وال موقف غير المحايد، حتى اضطره الموقف الى الدعوة الى المباهلة والنداء في الاسواق، وهو موقف غير طبيعي منه، ولا الف في غير هذا الموقف المعين) (١).

اذا فالبواعث النفسية هي وراء صرف آية التطهير عن أهل البيت عليهما السلام ونسبتها الى نساء النبي ﷺ ، وبالتالي امكان نسبة الرجس وعدم التطهير الى علي وفاطمة والحسن والحسين ، كما يعتقد عكرمة وامثاله. يقول سماحته:

---

(١) الاصول العامة للفقه المقارن: ص ١٥٣.

(وكان الخوارج - فيما يتحدث عن بعضهم عبد الله بن عيسى بن لهيعة - اذا هروا امراً صيروه حديثاً، وقد كان من هؤلاء تلميذ صاحبنا - ابن عباس - عكرمة، وقد حبسه بالكتيف علي بن عباس لتهمنه ايات بالكذب على ايهه) <sup>(١)</sup>.

ثم جعل سماته من اسباب اختلاق الاحاديث الكاذبة عوامل النقص والشهوة في النفس فقال عن السبب الذاتي في الوضع:

(ونريد به ان يعمد الواقع الى الوضع لا لتأييد مبدأ او سياسة خاصة بل لإثبات شهوة عارمة في نفسه، او ستر جانب من جوانب النقص فيها) <sup>(٢)</sup>.

كما ذكر سماته في كتابه مناهج البحث والتاريخ ، العامل النفسي كأحد اسباب اختلاق الاحاديث المزورة فقال:

(وهذا العامل هو الذي يدفع الانسان الى خلق الحادثة او تحويلها ليستر جانباً من جوانب النقص فيه او ليشبع احدى دوافعه واستعداداته الفطرية). <sup>(٣)</sup>

(١) عبد الله بن عباس: ص ٢٠.

(٢) عبد الله بن عباس: ص ٢٢.

(٣) مجلة النجف السنة الثانية / ١٣٧٧ هـ

### **ثانياً: مجال دراسة النصوص:**

اصبح للنصوص علم خاص يعنى بها ويطلق عليه (علم النص) ومن المداخل المهمة والمعاصرة في فهم النصوص وبالتالي الخطاب الجامع ككل هو المدخل السيكولوجي، فقد جاء في تعريف النص:

(منظومة كلامية مكتفية بذاتها ومكتملة في دلالاتها، تكون مع ميلاتها خطاباً، وينخلق الخطاب تفاعلاً حضارياً مع المجال الاجتماعي الذي يُعد مهاداً لتلقي موضوعه، فيتجاذب مع غيره من الخطابات ويشتبك مع وعي المخاطبين في محاولة لدفعهم الى حقل قناعاته) <sup>(١)</sup>.

ومن هذا التعريف نلمس أهمية الدراسة السيكولوجية للنصوص والخطابات لارتباطها بصناعة الوعي وتكييفه، ففي كتاب مع الامام علي عليه السلام في منهجه، يؤكّد سماحته البعد النفسي في اختيار خطب وكلمات الامام (عليه السلام ) لدراسة ظروف الرسالة وتاريخها، اذ يجد في هذه النصوص انها قد صدرت من القلب السليم والمنزه عن الخضوع للأهواء والميول فيقول:

(انني حاولت قدر استطاعتي ان اترك التحدث للإمام عليه السلام نفسه في تصوير ما احاط به من ظروف ومقدار ما أثر عليها وتأثر بها، وذلك لأن الإمام عليه السلام اقدر على تمثيل نوازعه

---

(١) ليث شبر - استنباط المعنى عند العرب: ص ١٧.

النفسية المقدسة، ونوازع مجتمعه، وابعد عن الخضوع للعواطف والميل (١).

وقد نقلت في المباحث السابقة كيف ان سماحته كان يرغب بتقديم دراسات نفسية عن خطب وكلمات الامام التي وصفها بالدروس الثمينة وكيف كان لها وقع في نفوس اصحاب الامام من امثال مالك الاشتراذ قال:

(ويقبل مالك ويستمع لهذه الدروس الثمينة ويتلقاها بوداعة واطمئنان كما اعتاد ان يتلقى نظائرها عن استاذه من الدروس التي خلقت منه هذا القائد الجبار الذي لم يراوده الفشل في حملة من الحملات، وكم كنت اود لو تساعدنني هذه الازمة الشديدة لأقف من هذه الدروس موقف من يريد ان يدرسها من الوجهة النفسية ليعرف مقدار تأثيرها على النفوس) (٢).

ومن امثلة تحليلات سماحته للنصوص سيكولوجيا، ما ذكره في شرح عهد الاشتراذ من شرح العبارة الآتية:

(اعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيه من امور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم).

(١) مع الامام عليه السلام: ص ٦٨.

(٢) مالك الاشتراذ: ص ٦٦.

فقال في شرحها سيكولوجيا :

وهذه حقيقة نفسية يجب ان يلحظها الموظف الحكومي، فهو قبل ان يكون في ذلك المنصب كان ربما أخذ بعض المآخذ على ذلك الموظف الذي كان قبله، فاذا كان في منصبه، وجب ان يلحظ تلك المآخذ فيرفعها عن نفسه، ثم يبسط نفسه للناس ليسمع المآخذ عليه من قبلهم، فيظهر نفسه منها، وكم كان حظ الأمة سعيداً لو كان يستمع السياسيون لنصيحة الامام، او قل لنصائح الامام في هذا العهد )<sup>(١)</sup>.

اما كتاب (شاعر العقيدة، السيد الحميري) فقد ضمته تحليلات ودراسات نفسية قيمة لقصائد هذا الشاعر المطبوع، ولعل استقراء هذه التحليلات يحتاج الى رسالة او كتاب مستقل، ولا تتسع له هذه الدراسة الموجزة، ونكتفي هنا بذكر مثال لتعليقات سماحته على الايات والقصائد لهذا الشاعر، فقد جاء في بعض قصائد السيد الحميري وهو يهجو قسم منبني أمية، كانوا من معاصريه بعد القضاء على دولتهم، وحصول بعض الحرية النسبية لبني هاشم. فقال:

لا تجزعوا فلقد صبرنا فاصبروا      سبعين عاماً والانوف تجدع

فقال سماحته عن هذه البيت:

(المنطوي مع الشماتة على عتب مرير هو اوقع على نفوسهم من سفع النار، يقول (لاتجزعوا فلقد صبرنا)، تأملوا: (فلقد صبرنا) فهي تتم عن لوعة دفينة في

(١) نفس المصدر: ص ٩٠.

تلافيف قلوب الهاشميين الذين ظلوا يرثرون تحت اغلال ظلمهم وتعسفاتهم سبعين عاماً (والأنوف تجدع) وخطيبهم ينطبل بسب الامام في كل جمعة ولماذا يفعل ذلك:

ليسر مخلوقاً ويُسخط خالقاً  
ان الشقي بكل شرّ مولع<sup>(١)</sup>.

اما في كتاب عبد الله بن عباس فقد ابدع سماحته في استنطاق النصوص سايكولوجيأً، ونقل رواية وردت في طبقات ابن سعد تضمنت حواراً بين الرسول الاعظم ﷺ وام الفضل زوجة عمه العباس وام عبد الله، اذ قالت للرسول: (ان الله نعاك لنا، فلو اووصيت بنا من يكون بعده، ان الامر فينا او في غيرنا، قال: انكم مقهورون، مستضعفون بعدي).

فقال سماحته عن اهمية هذا النص سايكولوجياً واثره على شخصية ابن عباس: (ونرجو ان نحتفظ بهذه الرواية لما فيها من كشف عن مدى اهتمامها بشأن الخلافة، فربما ألقت بعض الأضواء على مفتاح عقدة سلسلتها في نفس ولدتها -عبد الله- بعد حين)<sup>(٢)</sup>.

(١) شاعر العقيدة: ص ١٥٢.

(٢) عبد الله بن عباس: ج ١، ص ٣٨.

### ثالثاً: في مجال الواقع التاريخية (الفعل الاجتماعي).

يدرس علم الاجتماع الفعل الاجتماعي، ولا شبهة ولا اشكال في وجود النوازع النفسية وراء الافعال الاجتماعية، وكما ان الافعال الاجتماعية وحركة المجتمع العامة تؤثر في تربية ونفوس الاجيال. كذلك فان العوامل النفسية الكامنة في اللاشعور الجماعي تعمل عملها في تغذية الافعال الاجتماعية وحركة المجتمع وعلم النفس الاجتماعي هو العلم المختص (بدراسة الصيغ المختلفة للسلوك الذي يتمخض عنه التفاعل الاجتماعي) <sup>(١)</sup>، فهو يدرس التأثير الحاصل في سلوك بعض الفئات الاجتماعية من خلال تعاملها مع فئات أخرى، وهكذا في كل السلوك الذي يربط بين الافراد بعضهم ببعض او بين الفرد والجماعة او بين جماعة أخرى.

وفي ابحاث السيد محمد تقى الحكيم نجد شواهدأ كثيرة لمنهجه السيكولوجي في تحليل الاحداث وبيان العوامل النفسية المؤثرة فيها، ومن الواقع التاريخية المهمة التي حللها سماحته سيكولوجيا، واقعة السقيفة، او اجتماع السقيفة، وقصة هذا الاجتماع طويلة، الا ان المهم فيها العوامل النفسية الثلاثة التي ذكرها سماحته في اندفاع جماعة الانصار الى بيعة ابي بكر وهذه العوامل هي:

**العامل الاول:** كيف استغل ابو بكر، الانقسام النفسي في حزب الانصار، فأستطيع ان يشطره على نفسه في ذلك الاجتماع، يقول سماحته عن هذا الانقسام المتجذر في اللاوعي عند الانصار:

(١) د. جمال حسين الآلوسي - علم النفس العام، جامعة بغداد ١٩٨٨: ص ٩٣.

(ان أهم نقطة ضعف في هذا الحزب هو انقسامه الى قبيلتين - الاوس والخزرج- كانتا متنافستين في الجاهلية، وبقيت روابط ذلك الى الاسلام) <sup>(١)</sup>.

ثم يواصل سماحته الحديث عن هذه الواقعة التي ذكرت الانصار بروابط الماضي التي قفزت الى سطح الذاكرة كاستجابة غير واعية، تزيد التخلص من كابوس الماضي وصراع الجاهلية بالارتماء في احضان المتشابه، دون الحكم مع ما ينطوي عليه المتشابه من التأويل والفتنة، فقال:

(ولولا ان تتوافر في ايي بكر صفات الخطيب الجماهيري المبدع الذي يحسن ان يتلاعب بعواطف المستمعين، بما اوتى من قدرة وخبرة ب نقاط الضعف فيهم، واستغلال ذلك في وقته المناسب لرأينا كيف انتهى امر الاسلام ذلك اليوم، اما ماذا قال ابو بكر حتى شقهم على انفسهم، فذلك ما يحدثنا عنه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، يقول:

(قال ابو بكر: نحن اهل الله واقرب الناس بيتاً من بيت الله، واحسن الناس رحمة برسول الله، ان هذا الامر، ان تطاولت اليه الخزرج لم تقصّر عنه الاوس، وان تطاولت اليه الاوس لم تقصّر عنه الخزرج، وقد كانت بين الحيين قتلى لا تنسى، وجراح لا تداوى، فان نعم منكم ناعق فقد جلس بين الحبي اسد يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري) تصوروا هذه اللباقة الكبيرة التي استطاعت ان تضع يدها على مفتاح الضغائن بين هاتين القبيلتين ((وقد كانت

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص125.

بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى)) وذكرتهم بها بعد ان اشاعت فيهم روح التنافس ((فان تطاولت اليه الخزرج لم تقصر عنه الاوس)) ثم جسّمت لهم سوء المصير بتيقظ الهيئات المعارضة من المهاجرين والانصار الذين لم يحصلوا عليها ((فان نعف ناعق فقد جلس بين لحيي أسد، يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري)).

**العامل الثاني :** ثم يقول سماحته بعد ان بادر الانصار الى البيعة تحت تأثير العامل اللاشعوري:

(على ان هناك عاملًا نفسياً مهماً أثر اثراه الكبير في تخاذلهم عن مرشحهم - سعد بن عبادة - وهو ما ينطويون عليه من عدم الثقة بأنفسهم وضعفهم عن منافسيهم من قريش... واذا قدر لهم ان يعززوا بالإسلام، وتذلل قريش به، فليس معنى ذلك اهم تخليوا عن رواسبهم المنطقية على اكبارهم والشعور بالضعف امامها)<sup>(١)</sup>.

**العامل الثالث :** يقول سماحته في تشخيص هذا العامل السيكولوجي:

(ولعل من عوامل اندفاعهم الى بيعة ابا بكر ورضاهما بهما شعورهم بشيء من التنفيس عن الكابوس الذي جاء من ذلك الشعور بالخوف، لأن ابا بكر كان من ذوي السابقة الى

---

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص١٣١.

الاسلام، ولم يكن بينه وبينهم شيء من التراث، وربما امنوا بجنبه من تحكم المورثين<sup>(١)</sup>.

ومن العرض السابق وتأكيد سماحته على جرد العوامل النفسية في انارة الحدث التاريخي، يتتأكد لنا قصدية سماحته ووعيه التام بوظيفة المنهج النفسي في تفسير الظواهر الاجتماعية والحداث التاريخية، بالإضافة الى انه صرَّ فعلاً، بهذا التوظيف حين قال:

(كان علينا ان نعود الى علمي النفس والاجتماع لتفسير بعض الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تقف في طريق الباحث عندما يريد ان يصور ذلك الانقلاب)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا يتسع سماحته من تحليل الشخصيات المقررة الى الجماعات في اطار منهجه السيكولوجي ليؤكد التأثير المتبادل بين النفس والمجتمع، بين نوازع الاوس والخزرج الباطنية وقدرة ابى بكر على تحرك هذه الكوامن فقال عن حزب الاصدار:

(الفَّ بَيْنُهُمُ الْإِسْلَامُ وَدَفَتْ أَحْقَادُهُمْ فِي عَوْلَاهُمُ الْكَامِنَةُ، وَمَا كَانَتْ تَظَهُرُ إِلَّا فِي فَتَرَاتٍ يَخْتَفِي فِيهَا الْعُقْلُ الْوَاعِيُّ كَفَرَاتُ الْغَضْبِ وَنَظَائِرُهَا... وَسَنَعْرُفُ كَيْفَ اسْتَغْلَلَتْ هَذِهِ النَّقْطَةُ لِلنَّفُوذِ

(١) عبد الله بن عباس: ج١، ص١٣٢

(٢) مع الامام علي عليه السلام: ص٧٤

منها الى الغلبة عليه في اهم صراع وقع بينه وبين حزب قريش)

(١).

#### رابعاً: مجال الشخصية:

الشخصية من الموضوعات الأساسية التي يهتم بها علم النفس ويفكر ببنائها المختصون في مختلف جوانبه وفروعه، كعلم نفس النمو، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس التربوي، وكلمة الشخصية لا يقتصر الحديث عنها في المجال العلمي وعلى لسان المختصين فقط وإنما يتناولها الناس جمياً على مختلف مستويات ثقافاتهم واحتياجاتهم، وكل فئة منهم تتناولها على وفق مفهوم معين ولغرض خاص<sup>(٢)</sup>.

وهذا التنوع يؤكّد صعوبة دراسة الشخصية سواء على المستوى التطبيقي او على المستوى التظيري، فلا عجب اذا ان يقول الدكتور فاخر عاقل:

(ان الدراسة الكاملة لشخصية بشرية واحدة عمل يتطلب  
العمر بطوله)<sup>(٣)</sup>.

وما كانت هذه الصعوبات في دراسة الشخصية، لتقف مانعاً امام المفكّر الكبير السيد محمد تقي الحكيم من دراسة شخصيات عاملة في التاريخ الإسلامي ،

(١) عبد الله بن عباس: ج1، ص. ٧٠.

(٢) د. جمال حسين الآلوسي - علم النفس العام: ص ٣٧١.

(٣) د. فاخر عاقل - علم النفس: ص ٦٩٥.

تحيط بها حالة كبيرة من العظمة والفخر ، كعبد الله بن عباس ، أو مالك الأشتر ، أو السيد الحميري ، وهو من الاصوليين الذين طوروا الرؤية إلى دراسة موضوع العلم والتفكير بالحيثيات المختلفة التي تلابس هذا الموضوع ، ومن ثم جعلوا وحدة موضوعه مرتبطة بوحدة غرضه ، ثم تجاوزوا ذلك إلى تحديد العناصر المشتركة . فوحدة الغرض الجامع لمسائل العلم، وضبط عناصر هذه الوحدة كفيلة بتذليل الصعوبات ووضع منهج واضح لدراسة الشخصية، فتصبح الشخصية الواحدة كموضوع العلم الواحد، اذ تدرس عوارضه المختلفة في ضوء الغرض الكلي الجامع لها، وفي ضوء هذه العناصر المشتركة للشخصية يعلن سماحته عن دراسة شخصيات المجتمع الإسلامي ، وهذا ما اصطلحنا عليه ببناء الأنموذج الإرشادي الذي يبقى منفتحاً على جميع التطورات ، من أجل أن يبقى هو القدوة في التفكير والعمل ، فيقول عند دراسة مالك الأشتر ، بعد أن يشخص السمات والخصائص النوعية التي تبرر تقديمه كأنموذج تربوي للشباب :

(ان مالكاً كان من اعظم الشخصيات الاسلامية وان العصر يقتضي دراسة امثاله، لتكون سيرتهم من المثل العليا للمجتمع وفي عقيدتي ان دراسة امثاله ثروة كبيرة للمجتمع الحاضر الذي يحتاج - اكثر ما يحتاج- الى امثاله من الرجال المخلصين الذين توفرت فيهم عناصر الایمان بالمبدأ، والاخلاص له،

والتضحية في سبيله، والشرق اليوم يحتاج إلى هذه العناصر  
الثالث) <sup>(١)</sup>.

ثم يقول في موضع آخر عن هذه العناصر:

(ضعوا سيرة هذا البطل بين اعينكم وتأثروا بأيمانهم واحلوا  
وتضحيته لمبدئه فإنها خير دليل) <sup>(٢)</sup>.

في دراسة التي قدمها السد الحكيم عن شخصية عبد الله بن عباس ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، أنه قد استعرض في القسم الأول من كتابه : ( عبد الله بن عباس ) ، كل ما يتعلق ب حياته من المحوادث العامة، مما يعتقد بتأثيرها عليه أو تأثر بها ، ثم خلص في القسم الثاني من الكتاب الى دراسة شخصيته دراسة سيكولوجية مستقلة ، متلمساً عناصرها الأولية. وهكذا يؤسس لنا منهجاً متكاملاً لدراسة ظواهر الشخصية يبرر كما ذكرنا سابقاً في شكلين او اسلوبين من التحليل والدراسة ، يخلص من خلال هذا الأسلوب في التفكير والمركب من مراحل إلى بناء أنموذج في الشخصية التي هي رمز العقلانية في الإسلام ، يجمع بين النهج التاريخي الاستقرائي في قراءة الشخصية في الواقع ، ثم القراءة البنوية أو ما يعرف بالتحديد ، فنحن أمام نعطين من البحث العلمي عند التفكير بالشخصية .

(١) - مالك الاشت: ص ١٢٠.

(٢) - نفس المصدر: ص ١٢١.

**الاول: الدراسة الحيوية والشكل الثاني:** اسلوب التحديد والتلخيص والتماس العناصر الأولية، مع المحافظة على وحدة الغرض والهدف والغاية من هذا التناول، وذلك لأهمية ضبط الحقيقة ووحدتها في وحدة الشخصية، وهذا الامر يكاد يكون غائب في الدراسات الاخرى عن الشخصية او عن النصوص او الاعمال الفنية، رغم ان هذه الدراسات كتبت من قبل اساتذة متخصصين في علم النفس<sup>(١)</sup>.

لقد كان السيد على امتداد التفكير بهذه الشخصيات ، دقيقاً في تتبع أحوالها ، مستفيداً من مناهج المعرفة النفسية في ملاحظة الشخصيات بسلوكها الخارجي ورصد تأملاتها الباطنية فقال عن مصادره في الامام بشخصية ابن عباس ورصد عناصرها:

(ستتكلم عن اهم ما ورد من عناصر شخصية ابن عباس في هذه الحالات الثلاثة، ولنا -من انبطاعاته الذاتية وتأمله الباطني، ثم من انبطاعات وتأملات معاصريه عنها، روافد تمدنا بالمزيد من هذا الحديث)<sup>(٢)</sup>.

لقد خدم المنهج المنضبط والتسلسل من ملاحظة الكثرة الى الوصول الى الوحدة، وهو منهج طالما اكده على ضرورته كبار الفلاسفة كصدر الدين

(١) - انظر: د. قاسم حسين صالح - سيكولوجية الفن التشكيلي- دار الشؤون الثقافية ١٩٩٠.

(٢)- عبد الله بن عباس: ج٢، ص٨.

الشيرازي في اسفاره، ووحدة الغرض في ضبط العناصر المشتركة للشخصية، خدم هذان الامران سماحته كثيراً في دراسة شخصياته وتقديمها بهذا الوضوح والتغلغل في اعماقها النفسية وعرض بناءها السيكولوجي، والا فان البحث في الشخصية غاية في الصعوبة وكان سماحته ملتفت جداً الى ذلك اذ قال عند دراسة شخصية السيد الحميري وعن حجم التحديات:

(والبحث عن شخصيته بجميع ما لها من عناصر فسيولوجية، وبيولوجية وسيكولوجية: ذاتية وموضوعية، موروثة ومكتسبة، قد يكون ضرباً من المحاولات العابثة التي لا يجرأ على الاقدام عليها اي باحث مهما كان شأنه، لما بيننا وبينه من بعد الشقة وقلة الانوار الكاشفة وضعف الملاحظة الدقيقة عنه وعن معاصريه لجلّ ما يتعلق به من امور كليلة وجزئية) (١).

ولكي يتخطى سماحته هذه الصعوبات في دراسة واقع الشخصية، وظاهرها كان يتحتم عليه الرجوع الى اكبر قدر من المصادر، لأنها تمثل بصيص النور الذي يمكن من خلاله النفاذ الى عالم الشخصية ولهذا قال سماحته عند دراسة شخصية مالك عن عدد هذه المصادر:

(١)- شاعر العقيدة: ص ٣١.

(أيها السادة، لقد رجعت في دراسة هذه السيرة الى ما يقارب الخمسين مصدراً، ولخصت جملة ما فيها بهذه الصفحات) (١).

ومن هنا لا ينبغي لأحد أن يتصور أن سماحته قد اكتفى بالمنهج السيكولوجي وطريقه التي تبلورت في طريقة عمله، ليطلق الأحكام على شخصياته أو يضفي عليها من الخصائص والميزات ما لم تكن لتسافر عليه، بل من الواضح جداً ومن خلال حجم المعلومات وكميتها وعدد المصادر وتنوعها، كان قد أتعب نفسه الشريفة في استقصاء ما يتعلق بهذه الشخصيات سواء في مرحلة الأسلوب الحيوى ورصدها في مجالها الطبيعي او في مرحلة الأسلوب التحديدى أو التلخيصي من دراساته.

وفي ختام هذه الدراسة القصيرة نسبياً ، أود أن أدعو الكتاب والباحثين وفي المقدمة منهم طلاب الحوزة العلمية من يعنون بالفکر الإسلامي المعاصر وقضايا الملحمة في مجال دراسة المجتمع ككل وليس فقه الأفراد ، الى ضرورة الالتفات الى الملاحظات الآتية:

**أولاً:** فيما يتعلق بالمنهج السيكولوجي عند السيد محمد تقى الحكيم (١) فلا يمكن أن يستوفى ببحث موجز كهذا البحث ، لما ينطوي عليه أنموذجه في بناء الإنسان من ابعاد وتحليلات تتناسب مع الفلسفة الإنسانية التي تسود هذا العصر ، ولابد من اطالة النظر في ابحاثه ضمن دراسة تخصصية على مستوى

---

(١) - مالك الأشتر: ص ١٢١.

الرسائل واطاريج الدكتوراه لإعطاء صورة واضحة عما قدمه هذا المفكر الإسلامي العملاق.

**ثانياً:** بالنظر الى كون دراسة العقل والادراك البشري مجال عمل مشترك عند الفلاسفة والاصوليين وعلماء النفس، ادعو الى بذل الجهد في اعطاء صورة واضحة عن هذه الموضوعات عبر دراسة اسلامية تتسم بالشمولية للأبعاد الفلسفية والاصولية والسيكولوجية.

**ثالثاً:** بالنظر لأهمية الانجازات الغربية في مجال نظرية المعرفة واسهاماتهم في دراسة الادراك واحكام العقل، لابد من ايجاد، مجال فهم مشترك ومجموعة تفكير وعمل مشترك تعنى بهذه الانجازات والاسهامات وملابساتها مع نتائج الفكر الاسلامي المعاصر في هذا الباب.

**رابعاً:** يلخص عرض السيد تقي الحكيم لشخصياته أسلوب روائي رائع، ومتفرد في مجال الرواية العربية التاريخية، من حيث تقنيات السرد، وانساق البناء والديومات الزمنية وتعددية زوايا النظر في تقديم الشخصيات والأفكار والحوادث ، وهو أنموذج قصصي وتاريخي وفضاء واسع من التحليلات العلمية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية ، وبذلك فهو جدير بالبحث والدراسة والكشف عن هذه الابعاد، فما حبذا لو تتصدى الاقلام المتخصصة بدراسة فن الرواية والقصة للكشف عن هذا بعد الفني والادبي في ايجاث السيد محمد تقي الحكيم .

رقم الإيداع في دار الكتب الوثائق ببغداد ( ٢٠٥٦ ) لسنة ٢٠١٨ م